مجلة

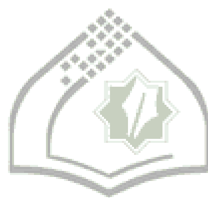
مجمع اللغة العربية بدمشق

« مجلة المجمع العلمي العربي سابقاً »



رمضان ١٤٠٣ هـ

تموز (يوليو) ١٩٨٣ م


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

تحيّة إلى ذكرى

المستعرب اغناطيوس كرتشكوفسكي

لمرور مائة عام على ميلاده

الدكتور عبد الكريم اليافي

بين الاتحاد السوفياتي والبلاد العربية علاقات ثقافية قديمة دعمتها وعززتها ثورة اكتوبر أو تشرين الأول ، فلقد اهتمت روسية قبلُ بالثقافة العربية وحفزت طائفة من أبنائها المثقفين على تدارسها . فنشأت في النصف الأول من القرن التاسع عشر ثلّة من العلماء والباحثين اختصوا بالثقافة العربية وتبوؤوا مكانة مرموقة بين مستعربي العالم ومستشرقيه .

وكان للمدرسين العرب شأن هام في إعداد المستعربين الروس في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، مثل محمد عياد الطنطاوي المصري الذي درس في جامعة بطرسبورغ و غ . ا . مرقص الأستاذ في معهد لازاريف للغات الشرقية بموسكو وفضل الله صروف وميخائيل عطايا وأمثالهم الذين درسوا أو ألقوا محاضرات في المعاهد الروسية .

ولكن الاتصال بين العالم العربي وروسية كان ضعيفاً . ولقد قوي بعد ثورة ١٩٠٥ التي لم يكتب لها النجاح . وكان من سبل الاتصال بعض الضباط العرب الذين أسرهم الروس . كان لفريق منهم شأن وطني بعد أن تأثروا بالأفكار الثورية فبدؤوا يتمردون على السلطة العثمانية في الذهاب إلى الجزيرة العربية ولاسيما اليمن لقمع بعض الحركات التحررية التي كانت تقوم بها أسرة حميد الدين .

كذلك كانت الحروب التحررية في البلقان مثل بلغاريا واليونان وغيرهما ذات تأثير في الفكر التحرري العربي إذ حفزت الضباط العرب الذين كانوا في الجيش العثماني على التفكير ومناهضة نير السيطرة العثمانية فاشتغلوا في سبيل إنشاء الجمعيات العربية فتألف بعضها علناً وبعضها سراً .

ثم دفع مؤتمر باريس الحركات العربية التحررية إلى الأمام إذ بلور التفكير العربي في توجهه نحو الانفصال عن الامبراطورية العثمانية ونوه بضرورة استقلال البلاد العربية .

ودخلت الحركات العربية الثورية مرحلة جديدة من النضال مع ثورة تشرين ١٩١٧ . ولقد كان لتأثير هذه الثورة جوانب عديدة في روسية وفي العالم ، إذ هي تعلن في شعاراتها تساوي الشعوب ومناهضة الاستعمار وتدعو إلى تقويضه في كل مكان .

هذه الثورة أثرت في تلك العلاقات الثقافية بين الجانبين الجانب الروسي الذي غدا سوفياتياً والجانب العربي الذي يتطلع بأعماق قلوب أبنائه إلى أحلام الحرية والاستقلال وتوطيد العلم والتقدم .

المستعرب الكبير اغناطيوس كرتشكوفسكي عاصر المرحلتين مرحلة القيصرية الروسية والمرحلة السوفياتية ، وكان المؤثر الأكبر في تأسيس المدرسة السوفياتية الحديثة في الاستعراب كما كان ذا شأن عال في تاريخ الاستعراب العالمي بما ترك من بحوث علمية واسعة وبعلاقاته الفذة مع الأعلام المفكرين في البلاد العربية ولاسيما بلاد الشام سورية ولبنان والأردن وفلسطين وكذلك بانتخابه عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي

بدمشق ومراسلاته إياه . ويهمنا في هذا الحديث أن نتعقب مراحل حياته ولقاءاته برجال الفكر العرب وأن نبرز بعض جوانب آثاره العلمية .

ولد إغناطيوس يوليانوفتش كرتشكوفسكي في ١٦ آذار[1] عام ١٨٨٣ بمدينة ويلنا عاصمة لتوانية القديمة . وكان والده رئيساً لمدرسة المعلمين فيها . ولد إذن في جو علمي وتعليمي . ونشأ طول حياته في هذا الجو الفكري المبارك .

لم تمض على ولادته سنتان حتى سُمّي والده رئيساً لمدرسة المعلمين بمدينة طشقند أو مدينة الشاش كما دعاها العرب وهي اليوم عاصمة جمهورية اوزبكستان . وبعد مدة سُمّي ناظراً عاماً للمدارس في آسية الوسطى . كانت الفتيات الاوزبكيات يداعبن هذا الولد الصغير ذا العينين الزرقاوين . وقد نشأ بين يدي حاضنته الاوزبكية فكان أول ألفاظ بغم بها ألفاظ اللغة الاوزبكية . وهكذا تفتحت عيناه على حضارة الشرق بما وقعتا عليه من ناس ومساجد وأسواق وعادات ولباس . فكان لذلك الأثر العميق في نفسه أيام طفولته وربما كان ذلك سبب ميله إلى الشرق وإلى العرب وإن لم يكن إذ ذاك مدركاً لهذا الميل الأول .

وليس ذلك غريباً إذا عرفنا أن نحواً من أربعين ألف عربي يعيشون في أراضي آسية الوسطى كما ظهر من دراسات أندرييف وأوشانين الاتنوغرافية والانتربولوجية . وهم يتكلمون بلهجة قريبة من اللهجة العراقية تداخلها عناصر من اللغتين الاوزبكية التركية والطاجيكية

---

(١) أرخ المستعرب ميلاده في ٤ آذار ١٨٨٣ بمقالة نشرها عن نفسه في مجلة المجمع العلمي بدمشق (المجلد السابع سنة ١٩٢٧) والفرق راجع إلى انه أرخ بالتقويم الميلادي الشرقي .

الفارسية ، كما أظهرت ذلك دراسات العالمتين الاتنوغرافيتين بوريكينا واسماعيلوفا وأيدتها دراسات يوشمانوف وكما خلص إلى هذه النتيجة نفسها العالم السويدي نيوبيرغ . وقد كتب بعد ذلك فينيكوف عام ١٩٤٠ بحثاً بعنوان « العرب في الاتحاد السوفياتي » .

نعود إلى الطفل كرتشكوفسكي . في سنة ١٨٨٨ رجع والده إلى ويلنا وصار مديراً للمكتبة العمومية ورئيساً في لجنة البحث عن الآثار التاريخية القديمة وعاش هو وأسرته في بيت صغير بولاية ويلنا . وكان في البيت خزانة كبيرة للكتب أثّلها أبوه وجده اطلع الطفل الناشئ فيها على كتب التاريخ والقصص الروسية .

في سنة ١٨٩٣ دخل المدرسة الإعدادية او الجمناز وأنهاها سنة ١٩٠١ وشرع اهتمامه منذ الفصل الأخير في تلك المدرسة يتوجه نحو دراسة اللغة العربية . ثم دخل في السنة نفسها قسم اللغات الشرقية في جامعة بطرسبورغ وانضم إلى فرع لغات الشرق الإسلامي فصرف أربع سنوات في دراسة اللغة العربية والفارسية والتركية والتتارية وبعض اللغات السامية كالعبرانية والحبشية القديمة ولكن اللغة العربية لثرائها وجمالها ومكانتها كانت أشد اللغات جذبا له .

في سنة ١٩٠٣ توفي والده . وفي سنة ١٩٠٥ أكمل دراسته في الكلية ونال رصيعة ذهبية لتأليفه دراسة في إدارة الخليفة المهدي العباسي معتمداً على المصادر العربية كالطبري وابن الأثير والمسعودي والعيني وغيرهم . وكان لايكتفي بالمطالعة بل يخالط أولاد العرب الساكنين في روسية كفضل الله صروف وانطون خشاب الطرابلسي . وبهذه المخالطة بدأ يطلع على اللغة الدارجة في سورية .

في سنة ١٩٠٧ قدم فحص الماجستير في الآداب العربية . وفي صيف هذه السنة قررت نظارة المعارف وجامعة بطرسبورغ إرساله إلى الشرق العربي لتعلم اللغة العربية الدارجة ولزيارة المكتبات العربية وتبين مافيها من كنوز المخطوطات والتعرف إلى العلماء العرب والاطلاع على العادات العربية . وذلك مدة سنتين .

لقد كتب اغناطيوس ترجمة حياته بالعربية في مقالة نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (المجلد السابع ص ١٢٢ ـ ١٢٦ سنة ١٩٢٧) كما ترجم هو نفسه حياته في سفر بديع كتبه بالروسية ونُقل إلى العربية سنة ١٩٦٣ أي بعد وفاته وهو « مع المخطوطات العربية » .

هذا الكتاب وتلك المقالة وكتاب نجيب العقيقي عن المستشرقين وغيره نعتمدها في تتبع حياة المستعرب اللامع .

سافر بالباخرة وشاهد في طريقه أوديسا ومر بالبسفور فتملى القسطنطينية وإزمير تتلألآن بأنوارهما في الظلام . وفي شهر تموز ١٩٠٨ وصل بيروت . وهو يذكر أنه وجد العقبات في التفاهم مع الناس وذلك أنه درس الفصحى إلى درجة لابأس بها ولكنه كان مضطراً إلى أن يستعمل اللغة العامية . فكان الناس في الشارع لايكادون يفهمونه . ولذلك عزم على الانزواء في بلدة صغيرة بلبنان مدة شهرين كيلا يسمع ولايتكلم إلا العربية الدارجة وبقيت ذكرى انزوائه هذا عالقة بباله ليتحدث عنها في الترجمة . وهو يذكر محبته للشعب وقضاءه أغلب أوقاته بين الناس يحدثهم ويستمع إليهم ، والناس في كل مكان يستضيفون ذلك الموسكوبي الغريب بنفوس راضية مبتهجة على حد تعبيره هو . وليس ذلك بمستغرب من أبناء الشرق المشهورين بحب الاستضافة .

ثم يهبط إلى جامعة القديس يوسف ببيروت وهي كما يقول : نصف عربية ونصف فرنسية وفيها اطلع على كثير من المخطوطات العربية القيمة كما تعرف طائفة من الباحثين الأجانب جاؤوا لغايات تبشيرية أو غيرها ومنهم الأب لامنس اليسوعي المعروف الذي هو من أصل بلجيكي والفرنسي رونز نفال باحث اللهجات العربية وتعرّف ثلة من الباحثين العرب كالأب لويس شيخو المارديني الأصل والدمشقي أنطون صالحاني المختص بدراسة ألف ليلة وليلة ودراسة الأخطل الشاعر الأموي المشهور ، ثم تعرف إلى أحد نجوم الأدب العربي الحديث الناشئين كما يدعوه هو وهو أمين الريحاني وقد طاف بالمدن السورية فأم حلب واطلع على المكتبة المارونية فيها وزار حمص وعرف فيها كما يقول المعلم المتواضع قسطنطين يني الذي كان يهتم بالتمثيل المسرحي بمدارس هذه المدينة والذي شاء القدر بعدئذ أن يكون المسؤول عن تنظيم سلاح الطيران الخاص بالشريف حسين الذي صار ملك الحجاز . ولما أتى دمشق اطلع على مكتبة الملك الظاهر كما يدعوها وتعرف « إلى الكثيرين من العلماء الذين صاروا من أعضاء المجمع العلمي المكرمين فيما بعد » ولاسيما محمد كرد علي صاحب مجلة المقتبس وزار إدارة المجلة نفسها .

إن اللغة العربية كالخضم الواسع كلما أبحر المرء فيها شعر بأغوارها العميقة ، فلا غرو أن نجده يكتب إلى شقيقته ان اللغة العربية تزداد صعوبة كلما ازداد المرء دراسة لها .

ويصف المستعرب الشاب رحلاته في بلاد الشام متنقلاً بين روابي لبنان وسهول سورية وربوع فلسطين فيزور القدس ويطوف مرات بالمكتبة الخالدية فيها ويقابل خليل السكاكيني وإسعاف النشاشيبي وينشر

خلال تطوافه في بعض الصحف العربية مقطوعات عاطفية من نوع الشعر المنثور ربما أوحى بها إليه بعده عن بلده الأصلي وكان يوقعها باسم الروسي الغريب .

لقد كان اينما ذهب يتصل بابناء الشعب ويتحدث مع معلمي القرى وأطبائها وصحفيي المدن الصغيرة ومراسلي الجرائد وكلهم يقابلونه بالود والترحاب ويتحدثون معه الساعات الطوال ويذكر أنهم جميعاً كانوا تتقد في نفوسهم مشاعر الثورة ويحلمون بالتحرر الوطني وأن الأدب الوطني المتحمس يستجمع ميولهم واهواءهم ويحبّون معه التراث العربي التليد الذي مازالت صوره وآثاره حسب تعبير السائح الروسي حية في قلوبهم .

لقد كتب في ترجمته لنفسه التي خطها بالعربية : « أن هذا اللطف العربي من الأسباب التي جذبتني إلى الشرق جذبة لا أتخلص منها مادمت حياً . » صداقة الكتب والمخطوطات العربية من جهة وصداقة الناس في سورية الطبيعية التي تشمل لبنان وسورية والأردن وفلسطين من جهة ثانية كلتاهما أقامتا ركن صداقة هذا المستعرب الشاب مع العرب . وعلى الرغم من تزاحم هاتين الصداقتين واشتباكهما فقد كاد ميزانهما يتعادل لولا أن رجحت كفة المخطوطات التي كان ولعه بها عظيماً جداً . ولكن حب المخطوطات أنفسها وجهه مرة ثانية إلى الناس . وهكذا وجد أنه لا يمكن الفصل بين الناس والكتب .

هذا الظمأ إلى العلم وإلى دراسة المخطوطات العربية حمله إلى القاهرة . فيلجأ إلى المكتبة الخديوية وفيها يعثر على ضالة من ضالاته وهي مخطوطات شعر الوأواء الدمشقي الذي كان شعره موضوع رسالة الماجستر ليقارن هذه المخطوطات القاهرية بالنسخ التي أحضرها معه من

بطرسبورغ . ثم ينتقل إلى مكتبة الأزهر . وحسبنا للدلالة على حب اغناطيوس لمخطوطات التراث العربي جملةٌ وردت في كتابه « مع المخطوطات العربية » حين يقول في الحديث عن مكتبة الأزهر : « ويمكنك هناك أن تجد في كل سطر الدرر والجواهر التي لا يعرفها الناس والتي لم يرها أحد مطلقاً . وإن النظرة السريعة في هذه الفهارس لشبيهة بالنظرة في رواية مغامرات ممتعة تطالعك من حين لآخر بالمفاجآت والمستغربات » . وهذا تنديد غير مباشر بعزوف المثقفين العرب إذ ذاك عن مطالعة تلك الثروة العظيمة . وقد استطاع أن يستعير بعض تلك المخطوطات إلى منزله . وهو يصف حاله معها فيقول : « ومن جديد عزلتني المخطوطات بعيداً عن الناس . وقد كان يؤسفني أن الوقت كان قليلاً لهذه المخطوطات وأنه يترتب عليّ أن أدرسها بسرعة محمومة . وكانت المخطوطات كأنما تتسابق فيما بينها على افتتاحي لها . » ثم يذكر فرحته أيضاً بلقاء مخطوط للصولي وآخر للمعري وثالث لقصة عن الحلاج . ثم يقول : « وكنت أغرق في هذا البحر من المخطوطات أحاول أحياناً أن أنسخ مقتطفات من بعضها بسرعة وأحياناً أخرى أكتب فقط عنوان المخطوط مؤملاً بسذاجة أن آتي إلى القاهرة مرة أخرى . » .

ويتعرف في مصر إلى كثير من علمائها ولاسيما إلى جرجي زيدان السوري الأصل وإلى العلامة أحمد زكي باشا وإلى المستشرق الايتالي نلينو ولم يكن في ذلك الوقت آلات لتصوير الكتب كالتي نجدها الآن . ولكن الأمر الغريب أننا نجد تقاعساً في العصر الحاضر عن الإكباب على المخطوطات بل على الكتب عامة والإفادة منها واعتبار سطورها درراً وجواهر كما مر بالموازنة مع مانجده عند أولئك الباحثين الأعلام بل لانجد شيئاً ولو قليلاً يقايس بجهودهم العظيمة ومشاقّهم الكبيرة وأتعابهم الجبارة

مع انه يسهل للمرء الحصول على صور المخطوط وهو قابع لايريم في بلده .

ويحدثنا أيضاً لما أزف رحيله عن مصر كيف تحدّث مع الصبيان الصغار حين أراد أن يزور مكتبة أحمد تيمور باشا بالقاهرة وكيف تصور أحد الصبيان أن المستشرق الروسي انما هو سوري بسبب لهجته العربية السورية وأن قبعته لم تخدع الصبي في زعم الصبي فلما ودعه صرخ الفتى المصري : مع السلامة سلِّم على دمشق .

وقد كتب هو نفسه بالعربية عن السنتين اللتين قضاهما في بلاد الشام وفي مصر : « استفدت في هاتين السنتين أكثر مما استفدت طول حياتي . ولا أزال أرجو أن يرزقني الله رؤية تلك البلاد المحبوبة ومسامرة أعيان علمائها مرة ثانية . » ولكن الحرب العالمية الأولى وثورة أكتوبر وأعباء المستشرق العلمية ورحلاته في الغرب والحرب العالمية الثانية ونشاطه عند محاصرة الألمان لمدينة لينيغراد كل ذلك ضنّ عليه بتحقيق ذلك الرجاء وحال دونه .

ومن عجائب المصادفات انه في مصر عند سفح أهرام خوفو عام ١٩٠٨ تعارف هو وفيرا ألكسندرفنا التي كانت تدرس الآثار العربية وتهتم بالنقوش والرسم والتي غدت زوجته ومعاونته وتركت بحوثاً جمة جيدة في اختصاصها كما شاركته في كتابة بعض البحوث ورعت مكانته وقدرت علمه .

وهانحن أولاء نرسم بخطوط خاطفة بقية نشاطه .

بعد رجوعه إلى روسية صيف ١٩١٠ سمّي مديراً لمكتبة فرع اللغات الشرقية في كلية بطرسبورغ . ثم كلف التدريس في الكلية . وفي سنة

١٩١٤ يسافر إلى أوربة لدراسة المخطوطات العربية في مكتباتها المشهورة ولاسيا في مدينة ليبزيغ الالمانية وليدن الهولندية . ثم يعيّن سنة ١٩١٧ معلماً أول للعربية وآدابها في الكلية المذكورة آنفاً ، وتنشب الثورة السوفياتية ثورة أكتوبر في تلك السنة . وفي سنة ١٩٢١ ينتخب عضواً عاملاً في أكاديمية العلوم الروسية بقسم التاريخ واللغات . وفي السنة التالية ينتخب أميناً لهذا القسم .

وفي سنة ١٩٢٣ انتخب عضواً مراسلاً في المجمع العلمي العربي بدمشق وهو مجمع اللغة العربية اليوم وذلك في جلسة هذا المجمع المنعقدة في ١٦ تشرين الثاني من تلك السنة . وجرت مراسلات متعددة بينه وبين رئيس المجمع محمد كرد علي وأعضائه . وقد نشر مقالات متعددة في مجلته .

واستمر كرتشكوفسكي يوالي نشاطه العلمي بجامعة لينينغراد وبأكاديمية العلوم السوفياتية وينشر في الحين بعد الحين أبحاثه الممتعة المفيدة ، كما يشارك في الندوات والمؤتمرات ويعلق على البحوث المنشورة في المجلات العلمية .

وإبّان حصار الألمان لمدينة لينينغراد في الحرب العالمية الثانية أبدى شجاعة كبيرة إذ عمل على صون الآثار العلمية والثقافية ولاسيا المخطوطات العربية الثمينة المحفوظة في معاهد تلك المدينة الكبيرة وفي متاحفها ومكتباتها . وقد قدرت الحكومة السوفياتية نشاطه زمن ذلك الحصار حق قدره فمنحته أعلى وسام سوفياتي ألا وهو وسام لينين ثم هو ينال بعدئذ وسام لينين الثاني تقديراً لمآثره العلمية الفذة .

وقد كتب أثناء الحرب هذه كتابه المشهور « مع المخطوطات العربية » الذي ترجم إلى عدة لغات . ثم كتب آخر مشهوراً « من تاريخ الاستعراب الروسي » . والعالم النحرير البحاثة مثل هذا المستعرب الكبير تضيق بنشاطه الأوقات والأعوام فهو لايفتأ يكتب ويؤلف ويعلق حتى توافيه المنون في الرابع والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٥١ عن سن لاتتجاوز السابعة والستين .

تتراوح آثار كرتشكوفسكي العلمية بين نيف وخمسين واربعمائة كتاب ورسالة ومقالة كما يذكر شرباتوف في كتابه « الاستعراب في الاتحاد السوفياتي » وستمائة دراسة علمية كما تذكر زوجته فيرا كرتشكوفسكايا في مقدمة كتابه الذي أعادت نشره « مع المخطوطات العربية ».من تلك الدراسات مائتان وخمسون على الأقل مخصصة للتاريخ والأدب العربيين . وتقديراً لأعمال المستعرب العلمية قرر مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي بتاريخ ٥ نيسان عام ١٩٥١ ومجلس رئاسة أكاديمية العلوم السوفياتية بتاريخ ١٣ نيسان من العام نفسه وهو العام الذي توفي فيه المستعرب الكبير طبع منتخبات من تلك الأعمال فظهرت في ستة أجزاء بين عامي ١٩٥٥ ـ ١٩٦٠ .

تعتبر دراسات كرتشكوفسكي أبهى الصفحات في تاريخ الاستعراب السوفياتي . ولقد توزعتها اتجاهات متعددة أهمها تاريخ الشعر العربي ونقدُه منذ قديم الأزمان إلى العصر الحديث . وأهم من عني بهم وكتب عنهم الشنفرى وعمرو بن قميئة وسلامة بن جندل وأبو دهبل وهب بن زمعة الجمحي والنعمان بن بشير وبكر بن عبد العزيز وذو الرمة والأخطل وأبو العتاهية ومسلم بن الوليد وأبو نواس وابن المعتز والمتنبي وعلي بن الجهم

والوأواء الدمشقي ثم أبو العلاء المعري. ويرجع الفضل إليه في الكشف عن رسالة الملائكة للمعري في مكتبة الأزهر وقد قضى نحوا من عشرين سنة في دراسة جميع المخطوطات والمطبوعات المشابهة لتلك الرسالة وقد نشرها عام ١٩٣٢ وكذلك اهتم بالأمير السوري أسامة بن منقذ وعرّف كتابه المنازل والديار وقد جهل هذا الكتاب المستعربون الأوربيون حتى الذين درسوا أسامة دراسة خاصة . وأسامة هذا معاصر للحملات الصليبية الأولى .

وكذلك من أهم دراساته العلمية تاريخ الأدب الجغرافي العربي والكتاب الذي ألفه فيه من أعظم الكتب التي كتبها المستعربون في تاريخ الحضارة العربية. يقول المؤلف في مقدمته: «والكتاب يقدم في آن واحد نصيباً متكافئاً لكل من الأدب العلمي والأدب الشعبي ويجهد في أن يلم بأطراف الجغرافية الرياضية والوصفية كما جهد في الإحاطة بالجغرافية العامة والاقليمية . وهو لا يهمل قصص الرحلات حتى تلك التي تحمل طابعاً أدبياً صرفاً بل وأسطورياً»

ثم يقول في المدخل : « إن المكانة المرموقة التي تشغلها الحضارة العربية في تاريخ البشرية لأمر مسلم به من الجميع في عصرنا هذا . وقد وضح بجلاء في الخمسين عاما الأخيرة فضل العرب في تطوير جميع تلك العلوم التي اشتقت لانفسها طرقاً ومسالك جديدة في العصور الوسطى ومازالت حية إلى أيامنا هذه أعني علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجية والجيولوجية . أما فيما يتعلق بالأدب الفني العالمي فان العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءاً أساسياً من التراث العام للبشرية ، كما امتد تأثيرهم كذلك إلى عدد كبير من المصنفات والفنون

الأدبية التي نشأت في بيئات غير عربية .[٢] » .

واهتم هو وزوجته في فك رموز بعض النصوص العربية مثل النص المكتوب على الجلد الذي وجد في طاجكستان بين أطلال قصر « موغ قلعة » عام ١٩٣٣ وهو رسالة من الأمير الصغدي المحلي إلى الوالي العربي كتبت في عهد مبكر جداً في آخر القرن الأول الهجري حوالى ٩٩ أو مائة للهجرة .

ومن أهم مافعل كرتشكوفسكي - وكلّ مافعل مهم - أن كتب سلسلة من المقالات نوه فيها بآثار ممثلي الاتجاهات الأدبية الحديثة مثل جرجي زيدان وأمين الريحاني اللذين عرفهما إبان رحلته إلى سورية ومصر ومثل جبران - وهولدة المستعرب ولدا في عام واحد - واليازجي والبستاني وميخائيل نعيمة وجميل الزهاوي وقاسم أمين وطه حسين ومحمود تيمور ونوه خاصة بالتيارات الأدبية المهجرية . وهو يفتخر في مقالة نشرها بمجلة المجمع العربي بدمشق بأنه أول من كتب بالروسية عن الأدب العربي الحديث في القرن التاسع عشر . وقلَّ من كتب من مستشرقي أوربة فيه .

وقد ترجم إلى الروسية كتاب كليلة ودمنة (وفي رأينا ان الشاعر الروسي كريلوف الذي شهر بكتابته قصصاً شعرية عن الحيوانات تأثر بهذا الكتاب لامباشرة بل بطريق الشاعر الفرنسي دو لافونتين الذي ظهرت في عصره ترجمة الكتاب إلى الفرنسية بعنوان Le Livre des lumières) ، كما ترجم المستعرب قصة الأيام للكاتب المصري المشهور طه حسين . وكتب مقدمات متعددة لآثار أدبية عربية حديثة

---

(٢) ترجم الكتاب ترجمة جيدة السيد صلاح الدين عثمان باشراف لجنة التأليف والترجمة والنشر واختيار الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية .

ترجمت إلى الروسية أو لكتب مدرسية تعليمية في اللغة العربية ، كما اشترك هو وبارانوف في وضع القاموس العربي الأول للغة العربية المعاصرة .

وفي سنة ١٩٦٣ أي بعد وفاته باثنتي عشرة سنة صدرت في الاتحاد السوفياتي ترجمة كان أعدها للقرآن .

ولم يفته أن يكتب عدة مقالات عن تأثير بعض الكتاب الروس في الأدب العربي الحديث . كتب مثلاً مقالة سنة ١٩٤٠ بعنوان « غوركي والأدب العربي » أبان فيها ان الأدباء العرب الحديثين وجدوا في غوركي على الفور كاتباً ثورياً يدافع عن الطبقات المظلومة ، ومقالة أخرى سنة ١٩٤٤ بعنوان « تشيخوف في الأدب العربي » . وكان في مستهل نشاطه الأدبي كتب عام ١٩١٠ مقالاً ذكر فيه ان ليون تولستوي معروف عند العرب معرفة لعلها خير من معرفة أي شعب من شعوب الشرق الأدنى به .

واهتمامه بالمخطوطات العربية فاق كل اهتمام أيان كانت في البلاد العربية أو أوربة أو البلاد السوفياتية . كتب مقالاً عام ١٩٢٤ بعنوان « مجموعة المخطوطات العربية في قازان » أشار فيه إلى أن بعض هذه المخطوطات التي يناهز عددها ستمائة هي كشف لاجدال فيه للاستعراب على النطاق الأوربي العام . وكتب مقالاً عن المخطوطات العربية التي وردت من الجهة القفقاسية أثناء الحرب العالمية الأولى.وكذلك وصف مجموعة المخطوطات التي أهداها غريغوريوس الرابع بطريرك انطاكية إلى القيصر نقولا الثاني ، الى جانب مقالات أخرى في هذا الصدد .

هذا وفي معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفياتية وحده

من المخطوطات ما يزيد على ١٢ ألف مجلد بصرف النظر عن المخطوطات التي في لينينغراد وآسيا الوسطى ولاسيما طشقند .

يبقى علينا الآن أن نشير إلى بعض علاقاته بالمجمع العربي بدمشق فقد كتب عدة مقالات في مجلته أشرنا إلى بعضها .

ومنها مقالة بعنوان « صدى أعمال المجمع في روسية » استهله بقوله : « من أحسن أدلة التقدم في الحياة العمرانية للبلاد العربية ظهور المجمع العربي بدمشق » . ثم يقول : « إن نبأ تأسيس المجمع العلمي في دمشق لا في مصر - حيث نمت في العهد الأخير الآداب والعلوم العربية نمواً غريباً - أذهل أصدقاء الشعب العربي » .

ويقول أيضاً : « على أن قائمة أسماء الأعضاء العاملين في إنماء هذا المجمع الجديد دلت لحسن الحظ أنه وإن كانت دمشق المركز فتدور حوله البلاد العربية قاطبة . » وينوه بأعضاء المجمع فيقول : « وكل أعضاء المجمع يوحدهم اطلاعهم على الأساليب العلمية الأوربية التي اقتبسوها إما بتحصيلهم في مدارس أوربية أو باختصاصهم بدرس تلك الطرق على أحدث نمط عرفه العصر » .

ويقول أيضاً : « أما اختيار الأعضاء من البلاد الخارجية فيدل على لطف وأدب كبيرين ونظر علمي حقيقي . ومن البديهي أن إدخال الأعضاء الأجانب من ممثلي الشعوب الأجنبية المعدودين من كبار المستشرقين هو شجاعة لايستهان بها . » ثم يبيّن تفوّق الشرق على الغرب في اتساع روح التعاون فيكتب بلغته العربية المبينة : « ومما مرّ نستدل أن العرب قد تمكنوا من عمل مايتصوره الغرب مستحيلاً في أوربة بعد الحرب (أي العالمية الأولى) أعني ربط جميع البلاد العربية بمنتدى علمي

واحد ، بل ربط جميع علماء المشرقيات في أوربة . وهنا أيضاً في فهم كنه التمدن الروحي الحقيقي يمكننا بملء الجرأة أن نسمي الشعب الشرقي معلّم الغربيين . وفي هذا وحده خدمة وفضل للمجمع العربي لاحد لها . »

سيداتي سادتي

بعد كتابة هذه التحية إلى ذكرى المستعرب السوفياتي الكبير تمثل طيفه بجانبي وأسمعني هذه القطعة الشعرية وهو الذي يحب الشعر العربي قديمه وحديثه . يتحدث في هذه القطعة عن نفسه ويخاطب الأمة العربية .

أحببت بعد بلادي أربع العرب — فطفت في بعضها للعلم والأدب
يحدوني الشوق والآمال واسعة — والعزم مثل شباة السيف لم يخب
العرب من أعرق الأقوام قاطبة — تراثهم حلية التاريخ والحقب
كم من مطالعة لي في ذخائرهم — مجلوة الحسن لم توصم ولم تُعَبِ
خمسين عاماً يراعي مشرعٌ ألِقٌ — يَفْري إهاب الدجى في عالم الكتب
جلوت كل بديع من صحائفها — مابين مستغلق بالٍ ومحتجب
وكم عكفت على الآمال أنسجها — عسى أرى ذات يوم ثورة العرب
قد كان غابرهم للكون مفخرة — مابال حاضرهم يدعو إلى العجب
تركت بعدي للأجيال شاخصة — أمثولة الحب والاخلاص والنصب
ياأمة يرقب التاريخ نهضتها — طال السبات وطالت غمرة النوب
لموا شتاتكم وامضوا إلى هدف — عالي النباهة فوق النجم والسحب
عسى يعود زمان المجد ثانية — وتنتهي فترة التشكيك والريب
لايعرف المجد الا كل مجتهد — ماضي العزيمة نضو الجد والدأب

الدكتور عبد الكريم اليافي

تقي الدين أبو بكر بن قاضي شهبة
بقلم
ابنه البدر محمد بن قاضي شهبة

حققها : الدكتور عدنان درويش

شهدت المئة الثامنة والمئة التاسعة من الهجرة النبوية أعلاماً كثيرين من العلماء ، حفظوا بما جمعوه في بطون مصنفاتهم الضخام ما أبدعته عقول نبغت خلال أزمان طالت فرقت في قدمها إلى بدء حركة التدوين في القرن الثاني للهجرة ، مضفين على فضل الجمع حسن التأليف وبراعة تصنيف الفنون وترتيبها ، فأغنوا التراث الإسلامي المكتوب بهذه الآثار التي أثروها في مختلف شعب المعارف الإنسانية ، ونصبوا بذلك صوىً مضيئة يتهدى بها الخلف في سيرهم على نُهُج لواحب رسمها السلف وأثلوا قواعدها . ليجنبوا الوارثين مزالق التيه والضياع لو كانوا من القارئين .

في هذين القرنين من الزمان ظاهرة عجب ، تلك هي كثرة العلماء والمصنفين الموسوعيين - على قول أهل هذا الزمان - ، نبغ حفاظ ومحدثون ومؤرخون وواضعو كتب الرجال والمجاميع الثقافية ، فالنويري ، والذهبي ، والمزي ، والبرزالي ، وابن رافع ، وابن كثير ، والصلاح الصفدي ، والحسيني ، والتاج والتقي السبكيان ، وابن حجي ، والشهاب ابن حجر ، والتقي والبدر ابنا قاضي شهبة ، والمقريزي ، وابن تغري بردي ، والقلقشندي ، والسخاوي . هؤلاء العلماء الأعلام وكثيرون غيرهم

وراء كل واحد منهم من المصنفات الضخمة ما تتجمل به جنبات المكتبة العربية الموروثة وتزدان .

ومن هؤلاء العلماء الأعلام من نبتوا في بيوت علم يخلف الخلف سلفاً من بيته أقام له قواعد البحث والنظر والتدريس والتصنيف فيأخذ بها ويمضي على السنن متأسياً بالأب والجد ، ومن هذه البيوت الأسرة الأسدية التي سمي بنوها فيا بعد ببني قاضي شهبة الأسدي ، لأن أحد أعلام هذا البيت وهو نجم الدين عمر من أواسط سلسلة هذه الأسرة تولى منصب القضاء في بلدة شُهْبة[1] إحدى بلاد جبل حوران مدة أربعين عاماً فعرف أبناؤه وأحفاده من بعده ببني قاضي شُهبة ، وقد سبق النجم عمر هذا نفر من هذه الأسرة الأسدية وكانوا قضاة وعلماء ، وخلف من بعد عمر أبناؤه وأحفاده وأحفاد أحفاده فعرفوا ببني قاضي شهبة ، وهكذا ترقى أصول هذا البيت إلى مطلع القرن الثامن للهجرة ، وتمتد فروعه بأبنائه العلماء والقضاة في سموق حتى تبلغ نهاية القرن التاسع للهجرة ، ويتأثل التراث العلمي ويستمر في هذه الأسرة مدة قرنين من الزمان شغلتها بالقضاء والعلم والحديث والتصنيف والتدريس في المدارس والتصدر في حلقات الجوامع يفيد أبناؤها الناس ويتصدون للنفع العام .

هذا العقد من علماء هذا البيت كان واسطته التقي أبو بكر بن أحمد بن محمد بن عمر قاضي شهبة الأسدي ، العالم الكبير والقاضي والمؤرخ والمصنف المكثر الذي توفي في سنة إحدى وخمسين وثماني مئة أنجب ابنه البدر محمداً مُجَنَّبَةَ الواسطة في العقد ، وكان كأبيه عالماً قاضياً مؤرخاً كثير التصانيف ترجمه السخاوي في (ضوئه) فقال[2] :

---

(١) قال ياقوت في معجم البلدان : « شُهْبَة : من قرى حوران ، ينسب إليها مَخْلَد الشُّهبي

(٢) الضوء اللامع : ٧ / ١٥٥ ـ ١٥٦ .

« محمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب ، الفقيه ، أبو الفضل ابن فقيه الشام التقي الأسدي الدمشقي الشافعي ، ويعرف كسلفه بابن قاضي شهبة .

ولد في طلوع فجر الأربعاء ثاني صفر سنة ثمانٍ وتسعين وسبعمائة ، ونشأ فحفظ كتباً منها (المنهاج) لرؤيا رآها أبوه ، وتفقه بأبيه وغيره ، وأسمعه أبوه على عائشة ابنة ابن عبد الهادي ، والشهاب ابن حجي ، وابن الشرائحي وغيرهم - فيما قاله ابن أبي عذيبة - وقرأ على شيخنا [ابن حجر] في سنة ست وثلاثين بدمشق (الأربعين المتباينات) له . وارتحل إلى القاهرة بعد أبيه وحضر مجلس شيخنا [ابن حجر] وتناظر هو والبرهان بن ظُهَيْرَة بين يديه فكان الظفر للبرهان ، واستنابه السقطي ، وبرع في الفقه استحضاراً ونقلاً ، وشرح (المنهاج) بشرحين سمى أكبرهما (إرشاد المحتاج إلى توجيه المنهاج) والآخر (بداية المحتاج) وعمل (سيرة نور الدين الشهيد) وصنف غير ذلك .

وتصدى للإقراء فانتفع به الفضلاء ، ودرس بالظاهرية ، والناصرية ، والتقوية ، والمجاهدية الجوانية ، والفارسية ، وكذا في الشامية البرانية نيابة عن النجم ابن حجي ، وولي إفتاء دار العدل ، وناب في القضاء من سنة تسع وثلاثين حتى مات ، وصار بأخرة فقيه الشام بغير مدافع ، عليه مدار الفتيا ، والمهم من الأحكام ، وعرض عليه قضاء بلده فأبى .

لقيته بدمشق وسمعت كلامه ، وكان من سروات رجال العلم علماً وكرماً وأصالة وعراقة وديانة ومهابة وحزامة ولطافة وسؤدداً . وللشاميين به غاية الفخر .

مات في ليلة الخميس ثاني عشر رمضان سنة أربع وسبعين ، ودفن من الغد بمقبرة الباب الصغير عند أسلافه بعد الصلاة عليه بعدة أماكن ،

وكانت جنازته حافلة ، وكثر الثناء عليه . ولم يخلف بدمشق في محاسنه مثله رحمه الله وإيانا » انتهى .

وكان البدر محمد هذا كثير الإعجاب بأبيه وعلمه ، كثير البر به نجابة وعرفاناً ، لا يفتأ يذكره في كتاباته ويثني عليه ، وكأنه رأى من كمال البر أن يعقد لوالده ترجمة يبقي بها ذكره محفوظاً في الدفاتر - على شهرته - يقرؤها ويتناقلها الوارثون ، فكانت هذه الرسالة الصغيرة التي تشغل من الورقات لواذ خمس ، وتداولها النساخ ، وسارت نسخ منها في الآفاق حتى استقرت إحداها في الغرب من العالم في مكتبة برلين تحت الرقم / ١٠١٣٠ / يضمها مجموع ، ووصفها ألفارت (W. Ahlwardt) في فهرسه لمخطوطات دار الكتب البرلينية . وقفت عليها في فهرست ألفارت ، وحرصت على اجتلابها فكتبت إلى المستشرقة الألمانية الأستاذة السيدة بربارة شيفر : (Barbara Schäfer) فأرسلت إلي مصورتها مشكورة متفضلة ، فقمت بتحقيقها ونشرها لما تشتمل عليه من الفوائد .

تقع هذه النسخة في ثماني صفحات ونصف الصفحة ، وهي في المجموع الذي ضمت إليه تقع بين الصفحات منه من الورقة / ١٧٥ / حتى الورقة / ١٧٩ / وتشتمل الصفحة منها على خمسة وعشرين سطراً ، كتبها الناسخ الذي لم نقف على اسمه بخط النسخ الجميل المشرق المعجم المقيد بالشكل الكامل ، غير أنها لم تبرأ من التصحيف والغلط القليل في النحو والإملاء والضبط .

ويبدو من قراءة هذه النسيلة أن تلميذاً للبدر محمد بن قاضي شهبة واضع الترجمة هو الذي استملاها منه أو نقلها عنه ، وذلك واضح من الخطبة التي وضعها التلميذ مستهلاً بها كلام أستاذه البدر . ولم نظفر بمعرفة اسم التلميذ هذا . وأخرجنا الترجمة محققة على وجه نرجو أن نبلغ به صواب الأصل الذي خرجت عليه ، والله ولي التوفيق .

د . عدنان درويش

[١ أ] / بسم الله الرحمن الرحيم

وما توفيقي إلا بالله

قال أستاذي الشيخُ الإمام العالمُ العلاّمة ، جمالُ العصر وكمالُ الدهر ، حُجَّةُ الأدب ولسانُ العرب ، أفضلُ القضاة بَدْرُ الدين ضياءُ الإسلام شَرَف الأنام ، مفتي المسلمينَ مفيدُ الطالبين وَلِيُّ أمير[1] المؤمنين ، أبو الفضل محمد بنُ قاضي شُهْبَةَ الأسَدِي الشافعي ، خليفةُ الحُكْم العَزيز بالشّام المحْروس ، ومفتي دارِ العَدْلِ الشريف ، مَتَّع الله المسلمين بطولِ بَقائه ، وأسْبَل عَلَيْه سوابِغَ نَعْمائِه بمَنِّه وكَرَمِه :

الحمد لله على قضائِه الذي لا يُدافَعُ ، وحُكْمِه الذي لا يُمانَع ، وأمْرِه الذي إذا بَرَز لا يُراجَع ، سبحانه مِنْ مَلِكٍ تفرَّدَ بالخُلود ، وليس لملكه أمَدٌ[2] محدودٌ ولا أجَلٌ[2] مَعْدُود ، أقَّتَ لجَميعِ الأمم وغيرهم يوماً ﴿ ذَلكَ يَوْمٌ مجموعٌ لَهُ النّاسُ وذَلكَ يَوْمٌ مَشْهُود[3] ﴾ .

أحمدُه على قضائه الذي فَرَّقَ بين الأحْباب ، وشَتَّتَ شملَ الترائِبِ والأتْراب وأبْلى تلكَ الوُجُوهَ الحسانَ تحتَ رَدْمِ التُّراب . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادَةَ من أيْقَن بمَعادِه ، وفوَّضَ إلى الله سُبْحانه وتعالى وحَمَدَهُ في إصْدارِه وإيراده .وأشهدُ أنَّ سيدَنا محمداً عبدُه ورسولُه الذي ابْتَلِي فصبر ، وامْتُحِنَ فضاعف الحمدَ وشكر صلى الله عليه وعلى آله الذين صَبَروا عند صَدْمَةِ المصائب ، واتّقَوْا بحُسْنِ الثقة بالله سهاماً من البَلْوَى صَوائِب ، وما منهم إلا مَنْ توجَّعَ قلبُه وأصبح مَحْزوناً

(١) كذا الأصل ، ولعلها : « أمر » .

(٢) الأصل : « أمداً » « أجلاً » .

(٣) هود ، الآية : ١٠٣ .

لفَقْدِ الحبائِب ، صلاة تُبلغُ قائِلَها الأمَدَ[٤] الأَقْصَى ، ويَفُوزُ ببركاتِها بما لا يُحْصَرُ ولا يُحْصَى .

وبعد : فقد ذكرتُ في هذه الأَوْراقِ شيئاً من تَرْجَمةِ شَيْخي وأستاذي وَوالدي تَغَمّدهُ الله برحْمَتِه والرِّضْوان ، وَطرَفاً من ابتداءِ تصدِّيه للنَّفْعِ العامِّ والخاص ، وذكرَ بعضِ مجموعاتِه ومؤلَّفاته على سَبيلِ الاختصارِ دونَ الإطْنابِ والمبالغةِ في الألقاب ، فإنه ـ رَحِمهُ اللهُ تعالى ـ كان يكرَهُ ذلكَ ، حتىَّ إنَّهُ لما وَلِي القضاءَ مَنَعَ من كِتابَةِ « شَيْخ الإسلام » في أَلْقابه ، ومَنْ خاطَبَهُ بذلِكَ زَجَرَه . ولقد وقفْتُ على فَتْوى وقد كُتِبَ له فيها : « ما قولُ سيّدنا ومولانا شَيْخِ الإسلامِ في كذا ؟ » فَضربَ بخطِّه على لَفْظَةِ «شيخ الإسلام» ثم كَتَبَ على الفتوى. فالله تعالى [أسأل[٥]] أن يرفعَ قَدْرَه في الآخرةِ كما رَفَعَه في الدُّنيا ، ويجْعلهُ في الجَنَّةِ من أَهْلِ المنزلَةِ العُلْيا / والمرتبة العُظمَى بمنّه وكَرَمِه آمين ، فأقول : [ب

هو الشيخُ الإمامُ العالِمُ العلاَّمة ، شيخُ البلادِ الشاميَّة وعالِمُها ومُفتيها ومدرسُها قاضي القضاة تقيُّ الدين أبو الصِّدْقِ أبو بكرِ بنُ الشيخ العالم الفَقيهِ الفَرَضي المدرّسِ شهابِ الدين أحمدِ بنِ الشيخ الإمام العلاَّمةِ شيخِ الإسلامِ شمسِ الدينِ أبي عبدِ اللهِ محمدِ بنِ الشيخِ الفقيه العالم القاضي نَجْمِ الدين عُمَرَ بنِ الشيخِ الإمامِ الفقيهِ العالمِ المُصدِّرِ شرفِ الدين فخرِ القضاةِ تاج الأئمَّةِ أبي عبد الله محمد بن القاضي الإمام العالم المُصدِّرِ كمالِ الدينِ شرفِ القُضاةِ عبدِ الوهّابِ بن القاضي الفقيهِ العالِمِ القاضي جمالِ الدين محمد بن ذُؤَيْبِ بن مُشَرّف ، ابن قاضي شُهْبَة[٦] الأَسَديّ الشافعي .

---

(٤) الأصل : « للامد » .

(٥) ليست في الأصل .

(٦) ابن قاضي شهبة : لقب أبي بكر وأبيه وأعمامه وجدّه وإخوة جده ثم أولاده من هذه =

وَلدَ بدمشقَ في ربيع الأولِ سنةَ تِسْعٍ وسبعينَ وسبعِ مـائـة . وحَفِظ القرآن وقام به في رمضانَ في ثلاثِ سنينَ في حياة والده . وحَفِظ (التَّنْبِيهَ) في الفقه للشيخ أبي إسحاقَ الشِّيرازي[٧] ، و(منْهاجَ الأُصول) للقاضي العلاَّمة ناصرِ الدين البَيْضَاوي[٨] ، و (ألفيَّةَ ابن مالك)[٩] في النحو في صِغَرِه ، ثم حفظ (الحاوي الصغير)[١٠] في كِبَرِه . واشتَغَلَ ودَأبَ وحصَّل ، وسمِعَ الحديثَ على جَمَاعةٍ من المشايخ ، وأخَذَ الفقْهَ عن جماعَةٍ من العُلَماء الأعيان .

منهم : الشيخ الإمامُ الفقيهُ المحدِّثُ الحافظُ المفسِّرُ الأصوليّ المتكلِّمُ النَّحْوي اللغوي المنطقي الجَدَلي الخِلاَفي النَّظَّار شيخُ الإسلام سِرَاج الدين البُلْقِيني[١١] .

= الأسرة ، وقد لقبوا بذلك لأن نجم الدين عمر وهو أبو جَدّ أبي بكر أقام قاضياً بشهبة ـ قرية في جبل حوران ـ مدة أربعين عاماً . وبذلك لايكون « قاضي شهبة » حسب وروده هاهنا أباً لمشرّف الجد الأعلى في نسب أبي بكر بن قاضي شهبة . وهذا ماأراده واضع الترجمة . انظر : الضوء اللامع : ١١ / ٢١ .

(٧) في فروع الفقه الشافعي ، لأبي إسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦ هـ . الكشف : ١ / ٤٨٩ ، وبروكلمان : ١ / ٣٨٧ وذيله : ١ / ٦٦٩ .

(٨) هو منهاج الوصول إلى علم الأصول : في علم أصول الفقه ، لناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي الشيرازي المتوفى سنة ٦٨٥ هـ . الكشف : ٢ / ١٨٧٨ ، وبروكلمان : ١ / ٤١٨ ، وذيله : ١ / ٧٤١ .

(٩) المنظومة المشهورة في النحو . واضعها جمال الدين محمد بن عبد الله الطائي الشهير بابن مالك المتوفى سنة ٦٧٢ هـ . الكشف : ١ / ١٥١ ، وبروكلمان : ١ / ٣٥٩ ، والذيل : ١ / ٥٢١ .

(١٠) في فروع الفقه الشافعي ، لنجم الدين عبد الغفار القزويني المتوفى سنة ٦٦٥ هـ . الكشف : ١ / ٦٢٥ ، وبروكلمان : ١ / ٣٩٤ ، والذيل : ١ / ٦٧٩ .

(١١) هو عمر بن رسلان بن نصير بن صالح بن شهاب ، سراج الدين ، أبو حفص ، الكناني العسقلاني الأصل البلقيني ، المصري الشافعي ، الإمام ، الحافظ ، المصنف ، قاضي القضاة بمصر : شعبان سنة : ٧٢٤ هـ ـ ذو القعدة سنة ٨٠٥ هـ في القاهرة . ترجمه ابن قاضي شهبة في =

ومنهم : الشيخَ الإمامُ العَلاَّمة الوَرِع بقيَّةُ السَّلف ، أقدم المدرِّسين ، شيخ الشافعيَّةِ ومدرِّسُ البادَرائِيَّة[١٢] ، أقضى القضاة شرف الدين أبو البَقَاء محمود[١٣] بن الإمام العلاّمَةِ جمالِ الدين بن الإمامِ العَلاّمة كمالِ الدين البَكْري الوَائلي المعروف بابْنِ الشَّرِيشي .

ومنهم : الشيخ الإمام العلاّمَةُ بقيَّةُ السلف ، مفتي المسلمين صَدْرُ المدرّسين ، شهاب الدين أبو العبّاس أحمد الزُّهْرِي[١٤] .

ومنهم : الشيخُ الإمامُ العلاّمة فقيه العصر شرف الدين أبو الرُّوح عيسى الغَزِّي[١٤] .

ومنهم : الشيخُ الإمام العلاَّمةُ الحَبْرُ المحدِّث الفقيه النَّحْوي بدر الدين أبو عبد الله محمد بن مَكْتُوم[١٥] ، وهو جَدِّي لِوَالِدَتي .

ومنهم : الشيخُ الإمام العَلاَّمةُ شهاب الدين أبو العبّاس أحمد المَلْكَاوي[١٦] .

ومنهم : الشيخ الإمام العَلاَّمة الحافظ المحَقِّقُ شهاب الدين أحمدُ بن حِجِّي[١٤] ، وعنه أخذَ علمَ التاريخ .

= ذيله على الذهبي ترجمة مبسوطة في الورقة ٢٣٣ ب - ٢٣٤ أ . وانظر الضوء اللامع : ٦ / ٨٥ .

(١٢) مدرسة للشافعية بدمشق ، بناها نجم الدين عبد الله البادرائي سنة ٦٥٣ هـ ، وتقع في الزاوية الشرقية الشمالية من أعمدة جوبيتر قرب الأموي . الدارس للنعيمي : ١ / ٢٠٥ .

(١٣) في الأصل : « محمد » خطأ الناسخ . وانظر ترجمته في تراجم رجال سند ابن قاضي شهبة في رواية فقه الشافعي ، الملحقة بآخر الترجمة .

(١٤) انظرهم أيضاً في تراجم رجال روايته فقه الشافعي في آخر الترجمة .

(١٥) محمد بن أحمد بن عيسى بن عبد الكريم ، بدر الدين ، القيسي السويدي الدمشقي ، المعروف بابن مكتوم ، الشافعي ، الفقيه المحدث النحوي : ٧٤٠ هـ - جمادى الأولى : ٧٩٧ هـ في دمشق انظر ابن قاضي شهبة ١ : ٥٦٦ .

(١٦) أحمد بن راشد بن طرخان ، شهاب الدين ، أبو العباس ، الملكاوي ، الدمشقي الشافعي ، الشيخ الإمام المفتي ، القاضي ، نائب القاضي الشافعي بدمشق ، توفي في رمضان سنة ٨٠٣ هـ الضوء اللامع : ١ / ٢٩٩ .

ومنهم : الشيخَ الإمامُ العلاَّمة المفَنّنُ جمالُ الدين الطَّيْماني[١٧] ، وعنه أخذ الأُصُول ، قرأ عليه (شرْحَ المُخْتَصر) للأَصْفهاني[١٨] ، و (الحاوي الصغير) وهو الذي رَغبَّه في حِفْظه .

وأخذ النَّحو عَنِ الشيخ العالِم المفَنّنِ شرفِ الدين محمود الأَنْطاكي[١٩] .

وروى (المِنْهاجَ)[٢٠] عن جَماعةٍ من المشايخ ، منهم : الشيخان العالِمانِ شيخا عصرهما قاضي القضاة شهابُ الدين أحمدُ الزُّهْري[٢١] الشافعي ، والعَلاَّمَةُ الرَّبّاني شَرَف الدين / محمود بن الشَّرِيشي[٢١] عن العَلاَّمَةِ شمسِ الدين محمد بن النَّقِيب[٢١] تلميذ المصنف عن المصَنِّف[٢١] . [٢ أ]
ورَواهُ أيضاً عن جَدّه الشيخ الإمام شَمْسِ الدين محمد[٢١] بالإجازة الخاصَّة عن العَلاّمةِ علاءِ الدّينِ ابن العَطّار[٢٢] عَنْ أصحاب المؤلف عن المؤلف .

(١٧) عبد الله بن محمد بن طيمان ، جمال الدين ، الطيماني ، الدمشقي ، الشافعي ، الفقيه : قبل سنة ٧٧٠ هـ - صفر سنة ٨١٥ هـ . الضوء اللامع : ٥ / ٥٠ .

(١٨) هو شرح كتاب (مختصر المنتهى لابن الحاجب) في علم أصول الفقه ، وضعه شمس الدين محمود بن عبد الرحمن بن أحمد الأصفهاني ، أبو الثناء ، الشافعي الأصولي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ . الدرر الكامنة ، لابن حجر : ٤ / ٣٢٧ . وانظر الكشف : ٢ / ١٨٥٥ .

(١٩) محمود بن عمر بن محمود بن إيمان ، شرف الدين ، الأنطاكي ثم الدمشقي ، الحنفي ، النحوي ، خطيب بدمشق . توفي بدمشق في شعبان سنة ٨١٥ هـ . الضوء اللامع : ١٠ / ١٤٢ .

(٢٠) هو (منهاج الطالبين) لمحيي الدين يحيى بن شرف بن مري ، أبو زكريا ، النواوي الدمشقي ، الشافعي ، الحافظ الفقيه المتوفى سنة ٦٧٦ هـ . وقد اختصر فيه كتاب (المحرر) في فروع الشافعية ، لأبي القاسم عبد الكريم بن محمد الرافعي القزويني المتوفى سنة ٦٢٣ هـ . الكشف : ٢ / ١٦١٢ . وبروكلمان ١ / ٣٩٣ والذيل : ١ / ٦٧٨ ، وشذرات ابن العماد : ٥ / ٣٥٥ .

(٢١) انظرهم في تراجم رجال السند آخر الترجمة .

(٢٢) علي بن إبراهيم بن داوود بن سلمان ، أبو الحسن ، علاء الدين ، ابن العطار الشافعي ، الدمشقي ، الفقيه المتكلم المحدث : شوال ٦٥٤ هـ - ذي الحجة ٧٢٤ هـ بدمشق . الدرر : ٣ / ٥ ، الشذرات : ٦ /٦٣ .

وروى (التَّنْبِيهَ) أيضاً عن جَدِّه المشارِ إليه بالإجازَةِ الخاصَّةِ عن ابن دَقِيقِ العِيد[٢٣] بالإجازة العامة عن ابن الجُمَّيْزِي[٢٤] عن ابن أبي عَصْرُون[٢١] عن أبي علي الفَارِقِي[٢١] عن المؤلف .

وروى فِقْهَ الشافعي عن غالب[٢٥] مَنْ تَقَدَّم أَخْذُهُ الفقهَ عنهم مِمَّنْ أخَذَ عن جَدِّهِ الشيخ شمس الدين ورَفِيقَيْهِ ابن خَطيبِ يَبْرُوَد وابن قاضِي الزَّبَداني عن الشيخ برهانِ الدين الفَزَاري عن والدِهِ الشيخ تاجِ الدين الفَزَاري عن الشيخ تَقِي الدين ابنِ الصَّلاح .

ومن طريق آخر عن العلاّمةِ شهاب الدين أَحْمدَ بنِ حِجّي عن والده العلاّمَة شيخِ الشافِعية علاء الدين حِجّي ، عن الشيخ شَمْسِ الدين ابن النَّقِيب ، عن الشيخ الإمام العلامة الربَّاني مُحْيي الدين النَّواوِي قَدَّس الله رُوحَه ، عن جَمَاعَة من مشايخه ، عن الإمام العَلاّمة مفتي الإسلام تَقّي الدين أبي عَمْرو بن الصَّلاح ، عن والده الإمام البارِع صَلاَح الدين ، عن الشيخ الإمام العَلاّمة قاضي القضاة شَرَف الدين أبي سَعْد عبد الله بن أبي عَصْرون ، عن الشيخ الإمام العَلاّمة الحسين أبي علي الفَارِقي ،

(٢٣) محمد بن علي بن وهب بن مطيع ، أبو الفتح ، تقي الدين ، القشيري المصري القوصي ، المعروف بابن دقيق العيد ، المالكي ثم الشافعي ، المحدث ، القاضي : شعبان ٦٢٥ هـ ـ صفر ٧٢٠ هـ . الدرر : ٤ / ٩٣ .

(٢٤) علي بن هبة الله بن سلامة بن المسلم ، أبو الحسن ، بهاء الدين ، الشهير بابن الجميزي ، اللخمي ، المصري الشافعي ، مسند مصر ، والمدرس والخطيب بها : ذو الحجة ٥٥٩ هـ ـ ذي الحجة ٦٤٩ هـ . الشذرات : ٥ / ٢٤٦ .

(٢٥) انظر التراجم التي وضعناها لرجال طرق رواية أبي بكر بن قاضي شهبة عنهم فقه الشافعي والتي تصله بالإمام صاحب المذهب ، وذيلنا بها هذه الترجمة .

(٢٦) مدرسة للشافعية في باب البريد بدمشق ، وقد درست ولم يبق لها أثر . الدارس ، للنعيمي : ١ / ٣٣٦ .

عن الشيخ الإمام العَلاّمة جمال الإسلام إبراهيم أبي إسحاق الشيرازي ، عن الشيخ الإمام العَلاّمة القاضي أبي الطَّيِّب طاهِر الطَّبَري عن الشيخ الإمام العَلاّمة شيخ الشّافعية في عصره الفقيه أبي الحسن محمد الماسَرْجسي ، عن الإمام العلامة أحد أئمة المذْهَب أبي إسحاق إبراهيم المرْوَزي عن الشيخ الإمام حامِل لِواءِ الشّافعية في زمانِه وناشِر مذْهَب الشافعي القاضي أبي العَبّاس أحمد بن سُرَيج ، عن الشيخ الإمام أبي القاسم عُثْمان بن سَعيد الأنْماطي ، عن الإمام العَلاّمة الزاهد المجتَهد أبي إبراهيم إسماعيل المُزَني ، عن الإمام المُطَّلِبي أبي عَبْد الله مُحَمّد بن إدْرِيس الشّافعي رضي الله عنه .

هذه السلسلة من طريق العِراقيين .

ومن طريق المَراوِزَة بالسَّنَد المتَقدِّم إلى الشيخ تَقيّ الدين ابن الصَّلاح ، عن والِده ، عن الشيخِ الإمام شيخِ المَذْهَبِ في زمانه أبي القاسم عُمَرَ بن البَزْري إمام جَزيرَةِ ابن عُمَر وفقيهها ومُفْتيها ، عن الإمامين حُجَّةِ الإسلام أبي حامِد محمد الغزالي وعماد الدين شمس الإسلام أبي الحسن الطَّبَرِي المعروف بالكَيّا الهَرّاسي ، عن العلاّمةِ ضياءِ الدين أبي المعالي عَبْدِ الملك إمام الحَرَمَيْن ، عن والده رُكْنِ الإسلام العَلاّمَةِ أبي محمد عبد الله الجُوَيْني ، عن الإمام الجليل أبي بَكْر القفَّال الصغير شيخ طريقَة خُراسان ، عن الشيخ الزاهدِ الإمام أبي زيد المَرْوَزِي ، عن العَلاّمة أبي إسحاق المَرْوَزِي ، عن أبي العَبّاس بن سُرَيْج ، عن أبي القاسم / الأنماطي ، عن أبي إبراهيم المُزَني ، عن الإمام المُطَّلِبي الشّافعي رضي الله عنه وعن أصحابه . [٢ ب]

ولازَمَ الاشْتِغال ، وأكَبَّ على الطَّلَب ، وجدَّ واجتهد ، إلى أن فَضُلَ وبرَع ، وشارك في العلوم ، وَدرَّس بالمدرسَةِ الطَّبَرِيَّة(٢٦) ، والمدرسة

الأَمينيَّة(٢٧) ، والمدرسة الإقْباليّة(٢٨) دَرْسَ إجْلاسٍ لكونِه المعيدَ بالمدرستين المذكورَتَين ، وحضر إجْلاسَه قاضي القضاة سَريُّ الدين ابن المِسَلاَّتي(٢٩) ، وكان هُوَ الوَصِيَّ عليه من قِبَلِ والده وبقيةُ القضاة والفقهاء ، وكان ذلك قبلَ الثمانمائة .

ثم بعد الثمانمائة حضر التَّصْديرَ بالجامع الأموي ، وأشْغَل وحَضَرَ عنده جماعة من طَلَبة والده وغيرُهُم ، ثم بعد فِتنة العدوِّ المخذولِ تَمرْلَنْك(٣٠) استمرَّ على ملازَمَةِ الاشْتِغال بالعلم ، ولم يلْتَفتْ إلى ما الناسُ فيه منَ الغَلاءِ المُفْرِط وقِلَّة المُتحصِّل ، بل يتقنعُ بالقَليل ويُكِبُّ على الاشتغال .

ثم لازَمَ الشيخَ جمال الدين الطَّيْباني وقرأ عليه (شرح الإصْفَهاني لمُخْتَصَر ابنِ الحاجِب) في أُصُولِ الفِقه ، و (الحَاوِي الصغير) ثم تَصدَّى في

(٢٧) مدرسة للشافعية بدمشق ، قبلي باب الزيادة الآخذ إلى القبلة ، من أبواب الجامع الأموي ، وهي شرقي المدرسة المجاهدية جوار قيسارية القواسين بظهر سوق السلاح . بناها أمين الدولة كمشتكين الأتابك بدمشق المتوفى سنة ٥٤١ هـ . ووقفها سنة ٥١٤ هـ ، وموقعها اليوم في سوق الحرير . الدارس للنعيمي : ١ / ١٧٧ ، والخطط لكرد علي : ٦ / ٧٧ . ومخطط دمشق للمنجد : رقم ٦٧ .

(٢٨) مدرسة للشافعية بدمشق بين باب الفرج وباب الفراديس شمالي الأموي ، أنشأها جمال الدين إقبال خادم نور الدين أو صلاح الدين المتوفى سنة ٦٠٣ هـ . ولم يبق منها اليوم إلا الحجر الذي كان على باب الدارس : ١ / ١٥٨ ، والخطط لكرد علي : ١ / ٧٦ ، ومخطط المنجد : رقم ١١ .

(٢٩) محمد بن محمد بن عبد الرحيم بن علي ، سري الدين ، أبو الخطاب ، السلمي ، المسلاتي الدمشقي . قاضي الشافعية بدمشق ، ومدرس ببعض مدارسها :
رمضان سنة ٧٥١ بدمشق ـ رجب سنة ٧٩٩ بالقاهرة . تاريخ ابن قاضي شهبة : ١ / ٦٤٢ .

(٣٠) كان ذلك في أواخر سنة ٨٠٣ للهجرة ، وتمرلنك : هو تيمور بن غازي بن أبغاي السمرقندي الغازي المشهور ، توفي سنة ٨٠٧ للهجرة ، وقد عقد له ابن قاضي شهبة في تاريخه في وفيات هذه السنة ترجمة مبسوطة . تاريخ ابن قاضي شهبة ، الورقة ٢٥٥ أ .

سنة ثلاث[٣١] عشرة وثمانمائة بالجامع الأموي للإشغال[٣٢] والإفتاء ، فعكف عليه الطَّلَبَةُ من الفضلاء الحُذّاق ولازموه مع وجود المشايخ الذين [هم[٣٣]] أكبر سناً منه وأكثر رواجاً في ذلك الوقت لكثرة حِفْظِه ونَقْلِه وحُسْنِ تَقْريره وتَحْقيقه وتَحْريره .

وكان كثيرَالاطّلاع ، صحيحَ النَّقْل ، عارفاً بالدَّقائق والغَوامِض ، معروفاً بحل المُشْكلاتِ ، مع فَهْم صَحيح ، وسُرْعَة ادْراك ، وقُدْرَة على المناظرة ، وكان يَعْتَني في دُروسِه بحَيْثُ لا يَتْرِكُ لأحَدٍ مِمَّنْ يحضُرُ عنْدَه ما يقولُه ولَوْ طالَعَ منَ الشروحِ ما عَسَى أن يطالع .

وأشْغَلَ في الفِقْه والأُصول والحديث ، وأقرأ (التَّنْبيه) و (المِنهْاج) و (الحاوي) و (مِنهاج البَيْضاوي) و (مُخْتَصر ابن الحاجِب[٣٤]) وشَرَحَ (أَلْفِيَّة العراقي)[٣٥] في عُلُوم الحديث مِراراً ، واستمرَّ ملازِماً لذلك إلى وفاته .

وفي أوائلِ سنةِ عشرينَ وثمانمائة استَنابَه قاضي القُضاةِ نجمُ الدين بنُ حِجِّي[٣٦] في القضاء ، وكان كثيرَ الكراهة له ، ولما طلَبَه قاضي

(٣١) في الاصل : « ثلاثة » .

(٣٢) في الأصل : « الاشتغال » تصحيف واضح .

(٣٣) ليست في الأصل .

(٣٤) مختصر منتهي السول والأمل في علمي الأصول والجدل ، لجمال الدين عثمان بن عمر بن أبي بكر ، أبو عمرو الرويني ثم المصري الشهير بابن الحاجب ، المتوفى سنة ٦٤٦ هـ : وفيات ابن خلكان : ١ / ٣٩٥ ، والكشف : ٢ / ١٨٥٥ .

(٣٥) منظومة في علوم الحديث عنوانها : (التبصرة والتذكرة) واشتهرت بالألفية ، وضعها زين الدين عبد الرحيم العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ . الكشف : ١ / ١٥٦ ، وبروكلمان : ٢ / ٦٦ ، والذيل : ٢ / ٦٩ .

(٣٦) عمر بن حجي بن موسى بن أحمد ، نجم الدين ، أبو الفتوح ، السعدي الحسباني الأصل الدمشقي الشهير بابن حجي ، الشافعي ، القاضي ، قاضي حماة ، قاضي طرابلس ، قاضي دمشق ومدرس ببعض مدارسها : ٧٦٧ هـ - قتل في ذي القعدة ٨٣٠ هـ . الضوء اللامع : ٦ / ٧٨ .

القُضاة لهذا الأمْرِ شَقّ عليه ذلك وتَغَيَّر لونُـه ، وكان ذلـك بحَضْرَة جماعَـةٍ من الأَعْيانِ ، فاعْتذرَ إليه بأَشياء كثيرة ، فلم يقْبَلْ ذلـك ، فلم يمكنـه إلا الامتثال[٣٧] ، فباشر ذلك بعفَّةٍ ومهابَـةٍ زائـدةٍ وتصيم في الأمور ، مع نُفُوذِ كلمته .

وكان مُهاباً شَهْماً مُعَظّماً عند الخاصّ والعامّ ، له صورة كبيرة وحشمـة بالغة . ثم باشَرَ لجَماعَةٍ من القضاة بعزَّةٍ زائـدة ، واستمرَّ على ذلـك إلى سَنَـةِ خَمْسٍ وثلاثين وثمانمائـة . ثم تَرَكَ القَضـاءَ بـإشـارةِ الشيخ الإمـامِ العَلاَّمـة الزاهِـدِ العـابِـد الورع القُـدْوَةِ المحَقّق . فريـدِ الـدهرِ ووحيـدِ العصر علاء الدين مُحَمَّد البُخاري[٣٨] الحنفي .

ثم إنَّ بعضَ النّـاس منَ القُضـاةِ والأُمراء سَـألوا الشيـخَ عَـلاء الـدين المُشـارِ إليـه في عَـوْدِه إلى نِيـابَـةِ الحُكْمِ[٣٩] ، وذكرُوا لـه أنَّ في مُبـاشَرَتـه مَصْلَحـةً . فلم يلتَفِتْ الشيـخ رضي الله عنـه إلى ذلـك وقـال : « مَصْلَحـةُ فراغِهِ للعلم أعظم ، هذا اتْرُكُوهُ لِي ، أنا ما رأيتُ في بَلَدِكُمْ غيرَه ، وأنـا ماأَتَجمَّل مَعَ أحَد » وحجَّ في سَنَة سبعٍ وثلاثين / وثمانمائة . [٣ أ]

وفي آخر أمره انتهتْ إليه رِئاسةُ العِلْم بالبلادِ الشاميَّـةِ ، حتى لم يبقَ بها من يُضاهيـه في هـذا الأَمْرِ ، وصـارَ هو المشـارَ إليـه في مَشْيَخَـةِ العلْم والتدريس ، والمعوَّلَ عليـه في الإشكالاتِ والفَتَـاوَى ، وأتتـهُ الفَتَـاوَى من

---

(٣٧) الأصل : « الأمْثال » تصحيف واضح .

(٣٨) محمد بن محمد ، علاء الدين ، البخاري ، الحنفي ، الفقيه ، نشأ ببخارى ورحل إلى الهند ثم إلى مكة ثم مصر واستوطنها وانتقل إلى دمشق فأقام بها إلى أن توفي بها ودفن بالمزة : سنة ٧٧٩ هـ ـ ٨٤١ هـ . الضوء اللامع : ٩ / ٢٩١ ، والشذرات : ٧ / ٢٤١ .

(٣٩) وظيفة ينهض بها قضاة يعينهم قضاة القضاة ليضطلعوا بالحكم نيابة عنهم ، وهم يجلسون في حوانيت خاصة بهم . صبح الأعشى للقلقشندي : ٤ / ١٩٢ .

الأَقْطارِ البعيدة والبلاد الشاسِعَةِ ، ورحل الناسُ إليـه من الآفـاقِ للقراءَةِ عليه ، وخضعَ له كلٌّ من يُنْسَبُ إلى عِلْم الفقْه وغيره . وأخـذت الطَّلَبَـةُ عنهُ طبقـةً بعـدَ طبقَةٍ حتى لم يبقَ بـدمشق قـاض[٤٠] ولا مفت[٤٠] إلاّ من طَلَبَته ، ولا طالبُ عِلْم إلا مِنْ تلامذَته أو تَلامذَةِ تَلامذَته . وبَعُدَ صيتُـهُ حتى إنَّ شَـارُخْ بنَ تَمرْلَنْـك[٤١] راسَلَـهُ بـالسَّلام بُمشَـافهَـةِ الأمير شَكْبُغـا الدَّوادار[٤٢] لمّا أن جهَّزَهُ إليه مَولانا السلطان[٤٣] بالرِّسـالـة ، فـأخبرَني أنَّـه قال له عنْدَ سَفَرِه إلى بلاد الشام : « سَلِّمْ بحَلَب على الشّيخ بُرْهـان الـدين القـوف[٤٤] المُحدِّث . وبـالشـام على ابن قَـاضِي شُهْبَـة ، وابنِ مُـزَلِّـق[٤٥] . وبمِصْرَ على ابنِ حَجَر[٤٦] ، وعَبْدِ الباسِط[٤٧] .

(٤٠) الأصل : « قاضي » « مفتي » .

(٤١) هو شاهرخ القان معين الدين سلطان بن تيمورلنـك ملـك المشرق وسلطـان مـاوراء النهر وخراسان وخوارزم وعراق العجم ومازندران ومملكة دلي من الهند ، وكرمـان وأذربيجـان ، ولم يذكر السخاوي تاريخ وفاته . الضوء اللامع : ٣ / ٢٩٢ .

(٤٢) لم نقف على ترجمة له .

(٤٣) هو الملك الظـاهر جقمق ، أبو سعيـد الجركسي العلائي ، تسلطن سنـة ٨٤٢ هـ وتوفي في صفر سنة ٨٥٧ هـ ودفن في القاهرة . الضوء اللامع : ٣ / ٧١ ـ ٧٤ .

(٤٤) كذا في الأصل ، ولم نهتد إلى ترجمته ، ولعل في الاسم تصحيفاً .

(٤٥) هو محمد بن علي بن أبي بكر بن محمد ، شمس الدين ، الحلبي ، ثم الدمشقي ، ويعرف بابن المزلق بضم الميم وفتح الزاي المنقوطة واللام المشددة . كبير التجار الـدمشقيين . توفي سنـة ٨٤٨ هـ بدمشق . الضوء اللامع : ٨ / ١٧٣ .

(٤٦) أحمد بن علي بن محمد بن محمـد بن علي ، شهـاب الـدين ، أبو الفضل الكنـاني العسقلاني ، المصري ثم القاهري ، ويعرف بابن حجر ، الشافعي ، الإمام ، الحـافـظ المحدث المصنف المؤرخ المسند ، القاضي بالقاهرة ، والمدرس ببعض مدارسها : شعبـان سنـة ٧٧٣ هـ ـ ذي الحجـة سنـة ٨٥٢ هـ في القاهرة الضوء اللامع : ٢ / ٣٦ .

(٤٧) عبـد البـاسـط بن خليـل بن إبراهيم ، زين الـدين ، الـدمشقي ثم القـاهري ، من كبـار الأعيان وأرباب الدولة في كبـار وظـائفهـا بـالقـاهرة : سنـة ٧٨٤ هـ ـ شوال سنـة ٨٥٤ هـ في القاهرة الضوء اللامع : ٤ / ٢٤ ـ ٢٧ .

وكان كثيرَ البرّ والإحْسانِ للطَّلَبَـةِ والفُقَراءِ والغُرَبـاء ويَبرُّهم كثيراً ، ويحبُّ الفُقَراء[٤٨] ، وكان له حَظٌّ وافِرٌ منهم .

وكان الشيخُ الإمامُ العلاَّمَةُ الزّاهِدُ العابدُ تَقي الدين الحُصْني[٤٩] يُثْني عليـه في مَجْلسـه ، ويخصُّـه بإرسـالِ الفتـاوَى إليـه . وكان يُوافي النـاسَ بحقوقهم ، يسلِّمُ على القـادمين ، ويعودُ المرضَى ، ويُشيِّع الجنـائز ، ويحضر الصُّبَح[٥٠] . وعنده بِرٌّ وصِلَة لأقاربه وجيرانه ، وربمـا كان يطبخُ الطعـامَ الملوَّنَ ويفرّقُه على أقاربه وجيرانِه جميعَـه ، ثم يـأكل هو قليلاً من الحِمِّصِ بالمِلْح من غير زيت ولا غيره ، كما أخبرني بذلك بعضُ خَدَمه بعدَ وفاته ، وأمـا هـو فما كان يعلمني[٥١] بشيء من ذلـك ، وقـد أخبرني بعضُ الطَّلَبَـة ممَّن[٥٢] كان مُقيمـا عنـده بـالـزَّاويـة الحَلَبيـة[٥٣] في العشر الآخر من شهر رمضـان أنـه كان قـد يجهِّزُ لـه القَطـايفَ واللَّوْزينَج وغير ذلك فيطعمُـه للطَّلَبَـة والفقراء ، ويـأكل هو وقت السحور كِسْرَةً مـع عنَب وجُبْنَـة ولا يأكل من ذلك شيئاً .

(٤٨) المتصوفة .

(٤٩) أبـو بكر بن محمد بن شـاذي ،تقي الـدين الحصني - حصن كيفـا - الشـافعي ، نـزيـل القاهرة ، الفقيه المحدث المفتي العلامة ، المدرس ببعض مدارس القـاهرة : سنـة ٨١٥ هـ - ربيع الأول سنة ٨٨١ هـ بالقاهرة الضوء اللامع : ١١ / ٧٦ .

(٥٠) كذا الأصل ، ولعله يريد بها جمع « صبحة » على الدارجة في أيـامـه والتي سترد في هـذه الترجمة أيضاً ، والمراد بها - على الأرجح - حضور مجالس لقراءة القرآن والأذكار والأدعية تعقـد في صبـاح كل يوم من الأيـام الثلاثـة التي تعقب يوم وفـاة المتوفى ، ويقـال عنهـا في دارجـة أيامنا : « الصباحية » .

(٥١)الأصل : « يعلمين » طفرة قلم .

(٥٢) الأصل : « من » .

(٥٣) لم نعثر عليهـا بهـذا الاسم ولعلهـا المقصورة الحلبيـة شرقي الجـامـع الأمـوي . انظر مخطـط المنجد : رقم ٢٠ .

وكان مبروكاً[٥٤] في رزقه ، فإنّه كان له برّ كثير وعطاء جزيل وكثرةُ عِيال ، ومع هذا لما أن توفي لم تبلغ جَوامِكُ[٥٥] الوظائف المُخْتَصَّة به في كلِّ شَهْر ألفاً ومائتي[٥٦] درهم .

وكان جميعُ مابيدهِ من الوظائف المشهورة قد استنْزَلَ عنها بعِوَضٍ كان يستَدينُه ثم يوفّيه بعد ذلك . وكان قد باشَرَ غالبَ تَداريس البَلَدِ ، منها ما هو بطريق الأصالة ، ومنها ماهو بطريق النّيابة ، فمن ذلك إفتاء دار العَدْل[٥٧] الشّريف بدمشق ، وتدريسُ المدرسَةِ الظاهرية الجُوّانية[٥٨] ، وتدريسُ المدْرَسَة التَّقَويّة[٥٩] ، وتدريسُ المدرسةِ

(٥٤) كذا الأصل ، ولعلها من عامية أيامه ، فصيحها : « مباركا له في رزقه » .

(٥٥) مفردها : « جامكية » وهي مايرتب من مال ومطعم وملبس وغير ذلك لمماليك السلطان في الأصل ، ثم أصبحت تطلق على مايرتب للموظفين والمدرسين ، ويقال لمن يستحقها ويتناولها « أصحاب جوامك » .

نزهة النفوس والأبدان ، تحقيق حبشي : ١ / ٣٥٠ الحاشية ٣ ، وذيل المعاجم العربية لدوزي .

(٥٦) الأصل : « ألف ومئتين » خطأ .

(٥٧) بدمشق ، كان أول من بنى هذه الدار لكشف الظلامات وسماها دار العدل نور الدين الشهيد وفي العهد المملوكي أضيفت إلى دار السعادة وأصبحت مركزاً للحكومة فيها يجلس النائب وأركان الحكومة للنظر في أمور البلاد . ولاة دمشق في عهد المماليك ، للأستاذ دهمان : ٢٦ - ٢٩ .

(٥٨) مدرسة للشافعية بدمشق ، داخل بابي الفرج والفراديس بينهما ، جوار الجامع الأموي ، شمالي باب البريد ، وقبلي الإقباليتين والجاروخية ، وشرقي العادلية الكبرى ، بابهما متواجهان بينهما الطريق ، وفيها تربة الملك الظاهر بيبرس البندقداري ، بناها الملك الظاهر بيبرس في حدود سنة ٦٧٠ هـ وهي اليوم مقر دار الكتب الظاهرية الوطنية بدمشق .

الدارس : ١ / ٣٤٨ ، ومخطط المنجد ، رقم : ٢٤ .

(٥٩) مدرسة للشافعية داخل باب الفراديس بدمشق شمالي الجامع الأموي شرقي الظاهرية و الإقباليتين بناها الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب سنة ٥٧٤ هـ وموضعها مايعرف اليوم بجادة بين السبعة طوالع ، وقد حولت إلى دار للسكن .

الدارس : ١ / ٢١٦ ، مخطط المنجد ، رقم : ٢٩ .

المَسْرورِيّة(٦٠) ، وتدريسُ المُجاهِدِيّة الجُوّانية (٦١) ، وتدريس المدرسة الأَمِينيّة ، وتدريسُ الفارسية ، وتدريسُ المدرسة العَذْراوِيّة(٦٢) ، والمدرسة الرُّكنية(٦٣) ، النصف منها أصالة والنصف نيابة عن نجم الدين ابن المدني(٦٤) ، وتدريسُ المدرسة الأمجديّة بالشَّرَفِ الأعلى(٦٥) وتدريسُ الحَلْقة القُوصِيّة(٦٦) بالجامع الأموي / ، ثم آثر به أقضى القُضاة تقي الدين [٣ ب] الأَذْرَعي(٦٧) ، ثم آثره أيضاً بِرُبع تدريس الرّكْنية . وآثر أخي سري

(٦٠) مدرسة للشافعية بدمشق بباب البريد ، أنشأها الطواشي شمس الدين مسرور ، وقيل : إنها منسوبة إلى الأمير فخر الدين مسرور الملكي الناصري العادلي . مجهولة ، وقد درست .
الدارس : ١ / ٤٥٥ .

(٦١) مدرسة للشافعية بدمشق بالقرب من باب الخواصين جوار المدرسة النورية ، وقفها الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس الجلالي الكردي مقدم الجيش بالشام المتوفى سنة ٥٥٥ هـ .
الدارس : ١ / ٤٥١ ، ومخطط المنجد : رقم ٦٥ .

(٦٢) مدرسة للشافعية والحنفية بدمشق بحارة الغرباء داخل باب النصر ، أنشأتها في سنة ٥٨٠ هـ ، الست عذراء بنت أخي صلاح الدين الأيوبي المتوفاة سنة ٥٩٣ هـ وقد درست وضاعت معالمها .
الدارس : ١ / ٣٧٣ ، مخطط المنجد : رقم ٥٠ .

(٦٣) مدرسة للشافعية بدمشق في زقاق بني مفلح أمام المقدمية وبينها الطريق ويعرف الآن بـ (دخلة بني عبد الهادي) في العمارة . وقفها ركن الدين منكورس المتوفى سنة ٦٣١ هـ ولم يبق لها أثر .
الدارس : ١ / ٢٥٣ ، مخطط المنجد : رقم ٧ .

(٦٤) لم نهتد إلى ترجمته ، ولعل الناسخ صحف في اسمه .

(٦٥)الشرف الأعلى : هو المكان المشرف على المرجة ونهر بردى بدمشق ، وهو الذي فيه اليوم مدرسة جودة الهاشمي ، ويقابله الشرف الأدنى أو القبلي .
إعلام الورى ، لابن طولون : ٢٤ والحاشية رقم ١ فيها للأستاذ دهمان .

(٦٦) انظر الدارس : ١ / ٤٣٨ .

(٦٧) أبو بكر بن أحمد بن سليمان بن داوود ، تقي الدين ، أبو الصدق ، الأذرعي ثم الدمشقي ، الشافعي أقضى القضاة ، مفتي دار العدل ، مدرس ببعض مدارس دمشق : سنة ٧٩٨ هـ - ربيع الأول ٨٥٨ هـ بدمشق . الضوء اللامع : ١١ / ١٩ .

الدين[٦٨] بالرُّبع الثاني له من التدريس المذكور ، وآثرني بتدريس المدرسة المُجاهدِيّة الجوانية ، وبربع تدريس التَّقَوية ، ودَّرس كُلٌّ منا بحضرته . وآثر أخي جمال الدين يوسُف[٦٩] بنظر الأمجدية وتدريسها وبنصف تدريس العَذْراوية . وباشر تدريسَ الشَّاميّة البَرَّانية[٧٠] بعد وفاة قاضي القضاة نجم الدين ابن حِجِّي نيابة عن ولده مدة ، وألقى بها دروساً حافلة . وباشر تدريسَ الشاميَّة الجُوّانية[٧١] نيابة عن المَقَرّ الكَمالي ابن البارِزي[٧٢] ، وتدريس العَزيزيّة[٧٣] عن المشار إليه ، وتدريس الناصِريّة الجوانية[٧٤] عن المرحوم بهاء الدين بن حِجّي[٧٥] .

(٦٨) لم أهتد إلى ترجمته .

(٦٩) لم نجد له ترجمة في وفيات القرن التاسع أو القرن العاشر .

(٧٠) مدرسة للشافعية بدمشق بالعقيبة في محلة العونية أنشأتها ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شاذي المتوفاة سنة ٦١٦ هـ ،
الدارس : ١ / ٢٧٧ ، مخطط المنجد : رقم ٤ ، مخطط دهمان رقم ١٢٠ .

(٧١) مدرسة للشافعية أيضاً بدمشق ، قبلي المارستان النوري ، أنشأتها أيضاً ست الشام .
الدارس : ١ / ٣٠١ ، مخطط المنجد : رقم ٥٤ .

(٧٢) محمد بن محمد بن محمد بن عثمان بن محمد ، كمال الدين ، أبو المعالي ، الحموي ، ثم القاهري ،ثم الدمشقي ، ثم القاهري الشهير بابن البارزي ، الفقيه ، القاضي ، والمدرس ببعض مدارس دمشق : ذو الحجة سنة ٧٩٦ هـ ـ صفر ٨٥٦ هـ ودفن بالقاهرة .
الضوء اللامع : ٩ / ٢٣٦ ـ ٢٣٩ .

(٧٣) مدرسة للشافعية بدمشق ، شرقي التربة الصلاحية وغربي التربة الأشرفية وشمالي الفاضلية بالكلاسة لصيق الجامع الأموي . بناها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين الأيوبي المتوفى سنة ٥٩٥ هـ وقد درست ولم يبق منها سوى بعض جدرانها وعقد أبوابها .
الدارس : ١ / ٣٨٢ ، ومخطط المنجد : رقم ٣١ .

(٧٤) مدرسة للشافعية بدمشق داخل باب الفراديس شمالي الجامع الأموي والرواحية بشرق وغربي وشمال وشرقي القيمرية الصغرى والمقدمية الجوانية ، أنشأها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي المتوفى سنة ٦٥٩ هـ . وهي في جادة حمام أسامة اليوم وتحولت إلى دار سكن .
الدارس : ١ / ٤٥٩ ، ومخطط المنجد رقم ١٧ .

(٧٥) محمد بن حجي بن موسى بن أحمد بن سعد ، بهاء الدين ، أبو البقاء السعدي الحسباني =

وولي قضاء الشافعية وماهو من مُضَافاته كالخطابة ، ونظر البيمارستان النوري[٧٦] ، ومشيخة الخانقاه السُّمَيْساطِية[٧٧] وغير ذلك مرتين من غير إشعار له بالتولية ، وكان قد صَمَّم أولاً على عدم القبول ، وليت ذلك تمَّ له ، ولكن كان أمرُ الله قَدَراً مقدوراً ؛ فإنه لم يحصُل له من ذلك طائل ، وركبه الدين بسببه ، وكان مباشرتُه للقضاء في المرتين دونَ السَّنة ، ثم أقبل بعده على ملازمة الإشْغالِ والإفتاء والتدريس ، وصار أكابر الناس بين القضاة والأمراء والتجّار وغيرهم يقصدونه للزيارة وغيرها ، وكان القضاة المخالفون[٧٨] من المذاهب الثَّلاثَةِ إذا أُشكَلَتْ عليهم واقِعَةٌ رجعوا إليه في الحكم إلى مايُفْتي به .

ولزِمَ الكتابةَ ، وكتب الكثير بخطه ، بلغ ماكتبه بخطِّهِ نحوَ مائةِ مُجَلَّدَة ، منها ماهو نَسْخٌ ، ومنها ـ وهو الأكثر ـ تأليفٌ له . فمن مؤلفاته :

كفايةُ المُحْتاجِ إلى شَرْحِ المنهاج[٧٩] : خمس مُجَلَّدات ضخمة ، وصل فيه إلى أثناء « كتاب الخلع » .

الدمشقي ، الشافعي ، الفقيه ، الصوفي ، مدرس ببعض مدارس دمشق : ربيع الأول سنة ٧٦٣ ـ شوال ٨٠٠ هـ بدمشق . ابن قاضي شهبة : ١ / ٦٨٢ من المطبوع .

(٧٦) مستشفى بدمشق في الشرق الجنوبي من الجامع الأموي ، وهو واحد من البيمارستانات المشهورة في العالم الإسلامي ، بناه نور الدين الشهيد سنة ١١٥٤ للميلاد ، ولايزال إلى اليوم وموضعه في سوق الحريقة بدمشق ، وقد اتخذ منه اليوم متحفاً للطب العربي .

الخطط ، لكرد علي : ٦ / ١٦٢ ، وآثار دمشق التاريخية لسوفاجيه : ٤٩ .

(٧٧) في الأصل : « الشميصاتية » ولعلها على اللفظ الدارج في تلك الأيام ، وموقعها شمال الجامع الأموي بدمشق لصيقة به وقفها أبو القاسم علي بن محمد السلمي الحبشي السميساطي أحد أكابر الرؤساء بدمشق المتوفى سنة ٤٥٣ هـ .

الدارس : ٢ / ١٥١ ، مخطط المنجد : رقم ٤٢ .

(٧٨) في الأصل : « المخالفين » .

(٧٩) أي منهاج الطالبين ، الكشف : ٢ / ١٨٧٣ .

وعليه حواش(٨٠) له اعتراضات على شراح (المنهاج) وعلى (المُهمّات)(٨١) وغيرها ، لو جمعت كانت نحو مجلدين .

ونكت المنهاج الكبرى(٨٢) : أكثرَ فيها من المَنْقُولِ والمَبْحُوثِ والاعتراضات على المتأخرين ، كتب فيها من « باب من تلزمه الزكاة » إلى آخر « كتاب القِراض » .

وإقناع المُحْتاج إلى شرح المِنْهاج(٨٣) : كتب منه من « كتاب السَّلَم » إلى أثناء « كتاب العدد » .

ونكت كبرى على التَّنْبِيه(٨٤) : كتب منها من « كتاب الصيام » إلى أثناء « كتاب النكاح » في مجلدة بخطه وبعض أخرى ، وهي في الغاية من التحرير على (التنبيه) ثم أعرض عنها .

وكتب **نكتاً على التَّنْبِيه**(٨٤) : أخصر منها جاءت في مجلدين .

وعليها حواش(٨٥) اعترض فيها على شراح (التَّنْبِيه) وعلى الشيخ كال الدين النشائي(٨٦) اعتراضات كثيرة سماها : **كافي النبيه في نكت التَّنْبِيه** ، بيض منها عدة نسخ ، وقرئت عليه في حياته ، لم يُكْتَب على التَّنْبِيه أحسنُ منها في معناها .

---

(٨٠) في الأصل : « حواشي » .

(٨١) هو (المهمات على الروضة) في فروع الفقه الشافعي ، لجلال الدين عبد الرحيم بن حسن الإسنوي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٢ هـ .
الكشف : ٢ / ١٩١٥ .

(٨٢) انظر كشف الظنون : ٢ / ١٨٧٣ .

(٨٣) كشف الظنون : ٢ / ١٨٧٣ .

(٨٤) الكشف : ١ / ٤٨١ .

(٨٥) في الأصل : « حواشي » .

(٨٦) كال الدين أحمد بن عمر بن أحمد النشائي القاهري الشافعي المتوفى سنة ٧٥٧ هـ .
الدرر الكامنة : ١ / ٢٢٤ ، الكشف : ١ / ٥٧٣ ، وبروكلمان : ٢ / ١٨٩ ، والذيل : ٢ / ٢٧١ .

ولبـاب التهـذيب لخص فيـه (تَهْـذِيب الكمـال)[٨٧] للمـزي ، و (التذهيب)[٨٨] للذهبي ، في أربع مجلدات ، وصل فيه إلى أثناء « باب الهاء » وبقي عليه / مواضع متفرقة . [٤٢أ]

والذيل على تـاريخ ابن كَثير وغيره[٨٩] : كتب منـه خمسَ مجلـدات ضخمة إلى سنة عشر وثمانمائة ، وكتب كراريس متفرقة من ذلك نحو مجلدة إلى سنة وفاته ، لكن فُقِدَ من ذلك كراريسُ لم نجدها بعد وَفاته . ثم اختصر هذا الذَّيْلَ فكتبَ منه مجلَّدين إلى سنة ثمان وثمانمائة ، وكتب منه كراريس بعد ذلك لو تم كان مجلدة أخرى .

والمنتَقَى من تاريخ الإسكندرية المسمى (بكتاب الإعلام فيما جَرَتْ بـه الأحكام من الأمـور المقْضِيّـة في وقْعَـة الإسكَنْـدَرِيّـة) تـأليف محمد بن قاسم بن محمد النُّوَيْري[٩٠] : في مجلدين في نصف البلدي .

والمنتقى من الأنساب لابن السَّمعاني[٩١] : في مجلدة .

والمنتقى من نُخْبَة الدَّهْر في عجَائِب البَرّ والبحر[٩٢] : مجلدة .

---

(٨٧) تهذيب الكمال في أسماء الرجال ، للحافظ جمال الدين يوسف بن الزكي المزي المتوفى سنة ٧٤٢ ، كشف الظنون : ٢ / ١٥٠٩ .

(٨٨) في الأصل : « التهذيب » تصحيف . مختصر تهذيب الكمال ، للحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ وسماه (تذهيب التهذيب) .

(٨٩) أي الذهبي والبرازلي .

(٩٠) المالكي المتوفى سنة ٧٦٧ هـ . الكشف : ١ / ٢٨٢ .

(٩١) الإمام أبو سعد عبد الكريم بن محمد المروزي الشافعي الحافظ المتوفى سنة ٥٦٢ هـ . الكشف : ١ / ١٧٩ .

(٩٢) للشيخ شمس الدين محمد بن أبي طالب الأنصاري الصوفي الدمشقي ، الشهير بشيخ الربوة ، المتوفى سنة ٧٢٧ هـ . الكشف : ٢ / ١٩٣٦ . والدرر : ٣ / ٤٥٨ .

ومنتَقى من تاريخ دمَشق لابن عَسَاكر[٩٣] : مجلدين .
وطبقات النُّحاة واللُّغويين[٩٤] : في مصنفين ، أحدهما : على السنين والآخر : على الحروف سماه : **التبيين في طبقات النُّحاة واللُّغَويين**[٩٥] ، كل واحد في مجلد .
ومناقب الشافعي وطبقات أصحابه[٩٦] : إلى آخر سنة أربعين وثمانمائة في مجلدة .
والإعْلام بتاريخ الإسْلام[٩٧] : بدأ فيه من أوّلِ المائة الثالثة ، ووصل إلى آخر المائة الثامنة .
وطَبَقات الفُقَهاء الشافعية[٩٨] : جمعها من (تاريخ الإسلام)[٩٩] للذهبي ثم ذيل عليها في ثلاث مجلدات .

إلى غير ذلك من المؤلفات والمجاميع التي لم تكْمَل .

توفي رحمه الله في يوم الخميس بعد العَصْر حادي عَشَر ذي القَعْدة سنة إحدى وخمسين وثمانمائة فُجاءَة ، فإنه ـ رحمه الله تعالى ـ حضر الدروس يوم الأربعاء قبل وفاته بيوم ، وألقى الدُّروس ، واستطْرَد في دَرْس التَّقوِيَّة إلى فَضْل الموت في ليلة الجمعة ويوم الجمعة وذِكْر مافيه ؛ فلما أن حضر في المدرسة الناصِرِيّة وفرغ من الدَّرْس ذكر بعضُ الطَّلبةِ وقوعَ

(٩٣) للحافظ أبي الحسن علي بن حسن المعروف بابن عساكر الدمشقي المتوفى سنة ٥٧١ هـ . الكشف : ١ / ٢٩٤ .
(٩٤) كشف الظنون : ٢ / ١١٠٧ .
(٩٥) لم يذكره صاحب الكشف .
(٩٦) كشف الظنون : ٢ / ١٨٤٠ .
(٩٧) كشف الظنون : ١ / ١٢٧ .
(٩٨) كشف الظنون : ٢ / ١١٠١ .
(٩٩) والمسمى أيضاً بـ (تاريخ الذهبي) . الكشف : ١ / ٢٩٤ .

الموتِ فجاءَةً في الناس فقال : « موتَ الفُجاءة وإن كان أخذه أسف فهو في حق الغافل والمذنب ، وأما في حق المتيقّظ[١٠٠] فلا بأس به ، وأنا أختاره للراحة من الآلام والأمن من الافتتان »

ثم إنه لما أن أراد الركوبَ على البَغْلة قال : « تأخروا أنتم كلُّكم حتى أروحَ أنا وأخَلّيكم » ثم قال : « مابقي فينا شَيْء » . ثم توجه إلى البيت فتغدّى وجلسَ للكتابَة على عادتِهِ . ثم في عَشيَّةِ ذلك اليومِ تَعَشَّى وتَسَحَّر لصومِ يوم الخميس على عادَتِه ونامَ . فلما أن كان في آخرِ الليل شَكا من ضَرَبانٍ في كَتِفَيه ومابينهما ، وتألَّم لذلك تألُّما شديدا ، فلما أن طلع الفجرُ توجَّه إلى الحَمَّام فحصل له به راحةٌ ، ثم خَرَج وتوجَّهَ إلى البيت وصَلَّى الصبح ، فعاد عليه الوجع ، فعاد إلى الحمام ثانيا ؛ ثم خرج وتَغَطى[١٠١] فسكن عنه الوجَعُ والألم ونام . فلما أن كان قُبَيْلَ العَصْرِ خرج وتوضَّأ ودخل إلى قاعتِه التي يجلسُ بها ، فصلى الظُّهْرَ ثم جلس للكتابةِ في (نكَتِه على التَّنْبيه) في تحرير بعض دُروسِ الطَّلَبَة فيها ؛ فدَخَلْتُ عليه فوجدته يكتب ، فسألته عن حاله ، فذكر لي أنه طَيّب / وأنَّ ذلك الأَلَم قد [٤ ب] زال . ثمَّ تركَ الكتابة ، وأخذَ يحادثني وقال : « غلب النوم علي حتى إني لم أُصَلِّ الظُّهرَ إلا قَبْلَ أن تحضر بيسير ، وكان مافاتني البارِحَةَ من النوم استَوْفَيْتُه اليوم » فقلت له : حصل به خير . فقال : « ظهر لي أنَّ شيء[١٠٢] ينزل مِنْ دماغِي ، وهو ينْتَقِل منْ عُضْوٍ إلى عضو » فقلت له : فهل بقي من ذلك الوجع شيء ؟ قال : « لا ، ولكن أرى على مَعِدَتي شيئاً كالحجر » ثم إنه أخذ يحدثني . ثم التفت إلى جهَةِ يَسَارِه وتأخَّر إلى

(١٠٠) في الأصل : « المتيقض » .
(١٠١) في الأصل : « وتغطا » .
(١٠٢) كذا الأصل ، ولعله ساق الحوار على العامية .

ورائـه بحركـة قويـة واتكأ[١٠٣] على المِخَـدَّةِ التي وراءه ؛ فـوثبتُ ومَسَكْتُ برأسه ، ففتح فاه وغَمَّضَ عَيْنَيْه من غير أن يحصل له لفقة[١٠٤] ولاغيرها ؛ فأخذتُ أحْضُنُه وأحوطه ولا أقدرُ أن أستغيثَ بأحَدٍ خَوفاً أن يكونَ قـد حصَلَ له إغمـاءٌ فينزعج ؛ ثم نـاديتُ بعضَ الخـدم ، فلما أن حضر النسـاءُ استَغَثْنَ من حُزْنِهنّ . ثم استمر جالسا مُسْنِـداً ظهره [إلى[١٠٥]] المخـدة من غير حَرَكة . ثم بعد ذلـك حضر الأطبـاء والنـاس فـأُخبروا بمفـارقَتِـه بعـد امْتِحـانِـه بمرآةٍ[١٠٦] وغيرهـا . فلا حول ولاقوة إلا بـالله .ثم جُهِّزَ في اليَـوْم الثاني وهو صَبِيحَةُ يوم الجمعة .

حَضَر جنـازَتَـه غـالبُ أهـل البلـد والخـواصُّ والعـوامُّ ، وحملـوه على الأعنـاقِ ثم على الرُّؤوس ، ثم رُفِعَ النعشُ بـالأيـدي والأصـابـع ، وارتَفَـعَ النعشُ حتى أخْبرَ غيرُ واحـدٍ أنـه كان يـدخُلُ الرَّجلُ الطويل من النـاسِ ويُمدُّ يدَهُ فلا يصلُ إلى النَّعش .

وكان له جنازةٌ لم يُرَ مثلُها في زماننـا ، ودُفِن بمقبرة بـاب الصغير[١٠٧]

---

(١٠٣) الأصل : « اتكى » .

(١٠٤) كذا الأصل . ولعله يريد : « الفواق » وهو ترديد الشهقة ، ومـا يـأخـذ الإنسـان عنـد النزع ، وجاء على العامية الدارجة في عصره .

(١٠٥) ليست في الأصل .

(١٠٦) يريد بوضع مرآة أمام أنفه وفمه لاختبار تردد النفس بما يترك ذلك من أثر على المرآة .

(١٠٧) مقبرة في جنوب دمشق ، سميت بذلك لقربها من الباب الصغير وهو البـاب الجنوبي من أبواب دمشق ، وسمي بذلك لصغره ، وهو روماني رممه الأتـابـك نور الـدين في النصف الثـاني من القرن الثاني عشر للميلاد .

دمشق القديمـة للمنجـد : ٤٩ ، إعلام الورى لـدهمـان : ٣٨ ح . وصف دمشق لإيليسيف : ٣١٠ وخريطته : هـ / ٧ و ٨ .

بين جَدِّه الشيخ شمس الدين(١٠٨) وبين عَمِّ والده الشيخ كمال الدين(١٠٩) ابن قاضي شهبة ، رحمهم الله تعالى . وحضر في صُبْحَتـه(١١٠) في الأيـام الثلاثـة خلق لايحصي(١١١) عدَّتَهُم إلا الذي خَلَقهم ، وقرئ في كل يوْم عـدَّةُ خَتْمات وأهديتْ في صحائفه .

ورأى(١١٢) النـاس لـه منـامـات حَسَنـة كثيرة حتى يتـوارد الـواحـدُ والاثنان والثلاثة على رؤية(١١٣) منام في ليلة واحدةٍ بمعنى واحـد ، وتكرَّرَ ذلك من الرّائين الثقات ، ولقد عبَّر على منامات حَسَنـة رؤيتْ لـه تـدلُّ لـه على عُلُوِّ مقـامـه في الـدّار الآخرة مـالم تحصَ كثرةً حتى إني كنتُ قـد كتبتُ بعضَهـا فجـاءَتْ في أوراقٍ كَثيرة ،وأردْتُ أن أذكرَ شيئـاً منهـا ثم رأيت الإعراضَ عن ذلك أوْلى .

ورُثي بقصـائـد كثيرة أردتُ أن أذكر منها شيئـاً هنـا ، ثم تـذكَّرْتُ كراهيته لذلك في حال حياته ، فـإنـه ـ رحمـه الله تعـالى ـ كان إذا مُـدِحَ بشيء من القَصـائِـد لايُعْجِبـه ذلك ، فيجيزُ المادحَ بِشَيء ثم يَغسِلُ تلـك القصيدةَ من غير يقف عليه(١١٤) أحد .

ولم يكنْ بيَده عندَ وفاته وظيفةُ قراءَةٍ ولا إمامَـةِ مَسْجـد ولا عمـالـة

(١٠٨) محمد بن قاضي شهبة ، انظره في تراجم رجال الرواية .

(١٠٩) عبد الوهاب بن محمد بن ذؤيب الأسدي ، ابن قاضي شهبة ؛ سنـة ٦٥٣ هـ ـ ذي الحجـة سنة ٧٢٦ هـ .

الدرر الكامنة : ٢ / ٤٣١ .

(١١٠) انظر تعليقنا السابق على كلمة « صبح » .

(١١١) الأصل : « لاتحصى » .

(١١٢) الأصل : « ورأ » .

(١١٣) الأصل : « رؤيت » .

(١١٤) كذا الأصل ، ولعله يريد : أن يقف على مدحه .

على وَقف . وكان فيـه خِصـالٌ كثيرةٌ من خِصـالِ الصـالحين وسيرةِ السَّلَفِ مـا يكثُرُ تعـدادهـا ، ولـولا علمي بكراهيتـه للمـدْح والثّنـاءِ لأطْنَبْتُ في ذلك ، فعلِمَ اللهُ أنه كان / فوق ماقيلَ وما يقالُ فيه . [٥ أ]

فرحِمَه اللهُ تَعالَى وبَلَّ ثراه بوابلِ سحائبِ رحْمتـه لقـد آنسَ الوادي وأوْحَشَ النَّادي ، فواللهِ لم نُصَبْ في زَمانِنا بمثْله ، ولكنَّه قد وَرَد عن سيِّد البَشر ﷺ : « مَنْ عَظُمَتْ مُصيبتُه ـ أو مُصابُـه ـ فلْيَسلُ مُصـابَـهُ بي ـ أو فَلْيذكُر مُصا [به] بي[١١٥] » فَنَقُولُ[١١٦] كما قال بعضهُم :

يـــارَسُـولَ اللهِ يـــاخَيْرَ الـــوَرَى مَنْ بِـهِ هَـانَتْ رَزَايـا الكِرامِ[١١٧]

فهو الذي قيلَ فيه :

ومَـوْتُ العَـــالِمِ النِّحرِيرِ شَيْنٌ وقَـدْ ثُلِمَتْ من الإسْـلامِ ثُلْمَـه

واللهِ لقد أوحَشْتَ الأحبابَ والأترابَ :

- - - - - - - - - - يـــابَحْرَ علمٍ تَحْتَ كَـوْمِ تُرابِ

فرحِمَه الله تعالى رَحْمةً واسعةً ، وأناله الجنَّةَ بمنّه وكرمه .

وهذا ماتَيَسَّرَ من تَرْجَمَةِ شيخِ الإسلامِ الشيخِ تقيِّ الـدين ابن قـاضي شُهْبَةَ رضوانُ اللهِ عليه .

---

(١١٥) كذا الأصل . والذي في سنن الدارمي : المقدمة : ١٤ :

« إذا أصاب أحدكم مصيبة فليذكر مصيبتـه ـ أو مصـابـه ـ بي فـإنهـا من أعظم المصائب » .

(١١٦) في الأصل : « فيقول » وليس بذلك الوجه .

(١١٧) الشطر الثاني في الأصل :

- - - - - - - - - - يـــامن بـــه هـــانت رزايـــا الكرام

ولايقوم بذلك الوزن .

- ١ -

الإمام الشافعي
صاحب المذهب

أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع ، القرشي المطلبي .

ولد في غزة سنة ١٥٠ هـ وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين ، وزار بغداد مرتين ، وقصد مصر سنة ١٩٩ هـ ، وتوفي فيها سنة ٢٠٤ للهجرة .

والإمام رحمه الله كثير المناقب ، جم المفاخر ، منقطع القرين ، اجتمعت فيه من العلوم بكتاب الله ، وسنة الرسول ﷺ ، وكلام الصحابة رضي الله عنهم وآثارهم ، واختلاف أنظار العلماء وغير ذلك من معرفة كلام العرب وأدبهم ولغتهم ونحوهم وشعرهم مالم يجتمع لغيره .

وفيات الأعيان : ٤ / ١٦٣

☆ ☆ ☆

رجال الرواية

- ٢ -

المزني

إسماعيل بن يحي بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق ، أبو إبراهيم ، المزني .

صاحب الشافعي ، من أهل مصر ، ولد سنة ١٧٥ للهجرة ، وتوفي سنة ٢٦٤ هـ . وكان زاهداً عالماً مجتهداً محجاجاً غواصاً على المعاني الدقيقة ، وهو إمام الشافعيين وأعرفهم بطرقه وفتاواه وما ينقله عنه ، صنف كتباً

كثيرة في المذهب .

وفيات الأعيان : ١ / ٢١٧ ، طبقات الشافعية للسبكي : ١ / ٢٣٨ .

☆ ☆ ☆

- ٣ -

الأنماطي

أبو القاسم عثمان بن سعيد بن بشار الأحول الأنماطي ، الشافعي ، الفقيه .

كان من كبار فقهاء الشافعية ، أخذ الفقه عن المزني والربيع بن سليمان المرادي ، وأخذ عنه أبو العباس بن سريج وآخرون ، وكان هو السبب في نشاط الناس ببغداد وميلهم إلى كتب الشافعي وحفظها ، توفي سنة ٢٨٨ هـ .

وفيات الأعيان : ٣ / ٣٤١ ، وتاريخ بغداد : ١١ / ٢٩٢ ، والعبر : ٢ / ٨١ للذهبي .

☆ ☆ ☆

- ٤ -

ابن سُرَيج البغدادي

أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادي ، الشافعي .

فقيه الشافعية في عصره ، ولد سنة ٢٤٩ هـ ، وولي القضاء بشيراز ، وقام بنصرة المذهب الشافعي فنشره في الآفاق . أخذ الفقه عن أبي القاسم الأنماطي ، وعنه أخذ كثير من فقهاء الإسلام وكان يفضل على جميع أصحاب الشافعي حتى على المزني ، له نحو أربعمائة مصنف ، توفي سنة ٣٠٦ للهجرة .

وفيات الأعيان : ١ / ٦٦ ، تاريخ بغداد : ٤ / ٢٨٧ ، تهذيب الأسماء واللغات : ٢ / ١٥١ ، تذكرة الحفاظ : ٨١١ ، والعبر : ٢ / ١٣٢ .

ـ ٥ ـ

أبو إسحاق المروزي

أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن إسحاق المروزي ، الشافعي .

إمام عصره في الفتوى والتدريس ، أخذ الفقه عن أبي العباس بن سريج وبرع فيه ، وانتهت إليه الرياسة في المذهب في العراق بعد ابن سريج ، وصنف كتباً كثيرة وشرح (مختصر المزني) وأقام ببغداد دهراً طويلاً يدرّس ويفتي ، وأنجب من أصحابه خلقاً كثيراً ، ثم ارتحل إلى مصر في أواخر عمره ، فأدركه أجله بها فتوفي سنة ٣٤٠ للهجرة .

تاريخ بغداد : ٦ / ١١ ، وفيات الأعيان : ١ / ٢٦ ، تهذيب الأسماء واللغات : ١٧٥ .

☆ ☆ ☆

العراقيون

ـ ٦ ـ

الماسَرْجسي

أبو الحسن محمد بن علي بن سهل بن مصلح الماسَرْجِسي ، الشافعي.

أحد أئمة الشافعيين بخراسان وأعرفهم بالمذهب وترتيبه وفروع مسائله ، صحب أبا إسحاق المروزي وتفقه عليه وخرج معه إلى مصر ولزمه إلى أن مات ، ثم رجع إلى بغداد ، وكان يخلف علي بن أبي هريرة في مجالسه بعد قيامه عنها ، ثم انصرف إلى خراسان سنة أربع وأربعين وثلاثمائة ، ودرس

بنيسابور ، وعنه أخذ فقهاؤها وعليه تفقه القاضي أبو الطيب الطبري ، وتوفي سنة ٣٨٤ هـ .
وفيات الأعيان : ٤ / ٢٠٢ . والعبر : ٣ / ٢٦ ، وتهذيب الأسماء واللغات : ٢ / ٢١٢ .

☆ ☆ ☆

- ٧ -

أبو الطيب الطبري

أبو الطيب طاهر بن عبد الله بن طاهر بن عمر الطبري ، القاضي ، الفقيه ، الشافعي .
ولد سنة ٣٤٨ هـ ، كان ثقة صادقاً ديناً ورعاً عارفاً بأصول الفقه وفروعه ، محققا في علمه سليم الصدر حسن الخلق صحيح المذهب ، قال الشيخ أبو إسحاق : لازمت مجلسه بضع عشرة سنة ودرست أصحابه في مسجده سنين بإذنه ، ورتبني في حلقته ، توفي سنة ٤٥٠ هـ .
وفيات الأعيان : ٢ / ٥١٢ ، تهذيب الأسماء واللغات : ٢ / ٢٤٧ وطبقات السبكي : ٣ / ١٧٦ .

☆ ☆ ☆

- ٨ -

أبو إسحاق الشيرازي

أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي الفيروزآبادي ، الشافعي .
ولد سنة ٣٩٢ هـ وسكن بغداد وتفقه على جماعة من الأعيان ، وصحب

القاضي أبا الطيب الطبري كثيراً وانتفع به ، وناب عنه في مجلسه ، ورتبه معيداً في حلقته ، وصار إمام وقته ببغداد ، وولي مدرسة نظام الملك إلى أن توفي سنة ٤٧٦ هـ . وله تصانيف كثيرة .

وفيات الأعيان : ١ / ٢٩ ، تهذيب الأسماء : ٢ / ١٧٢ ، طبقات السبكي : ٣ / ٨٩ .

☆ ☆ ☆

- ٩ -

أبو علي الفارقي

أبو علي الحسن بن إبراهيم بن علي بن برهون الفارقي ، الفقيه الشافعي .

ولد سنة ٤٣٣ هـ ، وكان مبدأ اشتغاله بميا فارقين على أبي عبد الله محمد الكازروني فلما توفي انتقل إلى بغداد واشتغل على الشيخ أبي إسحاق الشيرازي صاحب المذهب وعلى أبي نصر بن الصباغ صاحب الشامل ، وتولى القضاء بواسط . توفي سنة ٥٢٨ هـ .

وفيات الأعيان : ٢ / ٧٧ ، طبقات السبكي : ٤ / ٢٠٩ .

☆ ☆ ☆

- ١٠ -

ابن أبي عصرون

أبو سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله التميمي ابن أبي عصرون الموصلي ، الفقيه الشافعي .

ولد سنة ٤٩٢ هـ ، وكان من أعيان عصره وفضلاء زمنه ، وممن سار ذكره وانتشر أمره ، تفقه على غير واحد من الأئمة في بغداد ، ثم توجه إلى

مدينة واسط ، وقرأ على قاضيها الشيخ أبي علي الفارقي وأخذ عنه فوائد المذهب ، ودرس بالموصل في سنة ٥٢٣ هـ وأقام بسنجار مدة ، ثم انتقل إلى حلب في سنة خمس وأربعين ، ثم قدم دمشق لما ملكها الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي في صفر سنة ٥٤٩ هـ ، ودرّس بالزاوية الغربية من جامع دمشق ، وإليه تنسب المدرسة العصرونية في دمشق ، وله تصانيف كثيرة ، توفي سنة ٥٨٥ هـ ودفن في مدرسته التي أنشأها .

وفيات الأعيان : ٣ / ٥٣ ، العبر : ٤ / ٢٥٦ ، طبقات السبكي : ٤ / ٢٣٧ .

☆ ☆ ☆



ـ المراوزة ـ

ـ ١١ ـ

أبو زيد المروزي

أبو زيد محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد المروزي الفاشاني ، الفقيه ، الشافعي .

كان من الأئمة الأجلاء ، حسن النظر ، مشهوراً بالزهد حافظاً للمذهب ، وله فيه وجوه غريبة ، أخذ الفقه عن أبي إسحاق المروزي ، وأخذ عنه أبو بكر القفال المروزي ، ودخل بغداد وحدث بها وسمع منه الدارقطني والمحاملي ، ثم خرج إلى مكة فجاور بها سبع سنين وحدّث هناك بصحيح البخاري عن الغربري ، قال الخطيب البغدادي : « وأبو زيد أجل من روى هذا الكتاب » توفي سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة للهجرة بمرو .

تاريخ بغداد : ١ / ٣١٤ ، وفيات الأعيان : ٤ / ٢٠٨ ، طبقات

الشيرازي : ١١٥ ، طبقات السبكي : ٢ / ١٠٨ ، تهذيب الأسماء واللغات : ٢ / ٢٣٤ .

☆ ☆ ☆

- ١٢ -

أبو بكر القفال الصغير

أبو بكر عبد الله بن أحمد بن عبد الله ، المعروف بالقفال ، المروزي ، الفقيه الشافعي .

ولد سنة ٣٢٧ هـ ، وكان وحيد زمانه فقهاً وحفظاً وورعاً وزهداً ، وله في مذهب الإمام الشافعي من الآثار ما ليس لغيره من أبناء عصره ، وتخاريجه كلها جيدة ، وإلزاماته لازمه ، اشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به . توفي سنة ٤١٧ للهجرة .

وفيات الأعيان : ٣ / ٤٦ ، العبر : ٣ / ١٢٤ ، طبقات السبكي : ٣ / ١٩٨ .

☆ ☆ ☆

- ١٣ -

عبد الله الجويني

أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ، الفقيه الشافعي ، والد إمام الحرمين .

كان إماماً في التفسير والفقه والأصول والعربية والأدب . اشتغل على أبي بكر القفال المروزي بمرو ولازمه واستفاد منه وانتفع به وأتقن عليه المذهب والخلاف وقرأ عليه طريقته وأحكمها ، فلما تخرج عليه عاد إلى

نيسابور سنة سبع وأربعمائة وتصدر للتدريس والفتوى ، وتخرج عليه خلق كثير ، منهم ولده إمام الحرمين ، توفي سنة ٤٣٨ هـ .
وفيات الأعيان : ٣ / ٤٧ ، العبر : ٣ / ١٨٨ ، طبقات السبكي : ٣ / ٢٠٨ .

☆ ☆ ☆

ـ ١٤ ـ

إمام الحرمين

أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني ، المعروف بإمام الحرمين .
أعلم المتأخرين من أصحاب الشافعي على الإطلاق المجمع على إمامته المتفق على غزارة مادته وتفننه في العلوم من الأصول والفروع والأدب وغير ذلك ، ولد سنة ٤١٩ للهجرة وتفقه في صباه على والده أبي محمد ، ولما توفي والده قعد مكانه للتدريس ، وإذا فرغ منه مضى إلى الأستاذ أبي القاسم الإسكافي بمدرسة البيهقي حتى حصّل عليه علم الأصول ثم رحل إلى بغداد ولقي بها جماعة من العلماء ، ثم خرج إلى الحجاز وجاور بمكة مدة أربع سنين وبالمدينة يفتي ويدرس ويجمع طرق المذهب ، ولهذا قيل له : « إمام الحرمين ثم عاد إلى نيسابور في أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان السلجوقي والوزير يومئذ نظام الملك فبنى له المدرسة النظامية بمدينة نيسابور وتولى الخطابة بها ، وكان يجلس للوعظ والمناظرة وظهرت تصانيفه وحضر دروسه الأكابر من الأئمة ، وانتهت إليه رياسة الأصحاب ، وفوض إليه أمور الأوقاف ، وبقي على ذلك قريباً من ثلاثين سنة غير مزاحم ولامدافع ، مسلماً له المحراب والمنبر والخطابة

والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة ، وله مصنفات في كل فن ، توفي سنة ٤٧٨ هـ .

وفيات الأعيان : ٣ / ١٦٧ ، المنتظم : ٩ / ١٨ ، طبقات السبكي : ٣ / ٢٤٩ ، العبر : ٣ / ٢٩١ .

☆ ☆ ☆

ـ ١٥ ـ

أبو حامد الغزالي

أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي ، الفقيه الشافعي . حجة الإسلام . ولد سنة ٤٥٠ هـ ، لم يكن للشافعية في آخر عصره مثله ، اشتغل في مبدأ أمره بطوس على أحمد الراذكاني ، ثم قدم نيسابور واختلف إلى دروس إمام الحرمين ، وجدَّ في الاشتغال حتى تخرج في مدة قريبة وصار من الأعيان المشار إليهم في زمن أستاذه وصنف في ذلك الوقت ، وكان أستاذه يتبجح به ، ولم يزل ملازماً له إلى أن توفي ، وفوض إليه تدريس المدرسة النظامية بمدينة بغداد فألقى الدروس بها ، فأعجب به أهل العراق وارتفعت عندهم منزلته ، ثم ترك جميع ماكان عليه سنة ٤٨٨ هـ وسلك طريق الزهد والانقطاع ، وله تآليف في عدة فنون ، وتوفي سنة ٥٠٥ للهجرة .

وفيات الأعيان : ٤ / ٢١٦ ، طبقات السبكي : ٤ / ١٠١ ، تبيين كذب المفتري : ٢٩١ ، ٣٠٦ .

☆ ☆ ☆

- ١٦ -

الكَيّا الهرّاسي

أبـو الحسن علي بن محمـد بن علي الطبري المعروف بـالكيـا الهراسي ، الفقيه الشافعي .

ولد سنـة ٤٥٠ هـ ، كان من أهل طبرستـان ، وخرج إلى نيسـابور وتفقـه على إمام الحرمين أبي المعالي الجويني مدة إلى أن برع ، وكان حسن الوجه جهوري الصوت فصيح العبـارة حلو الكـلام ، ثم خرج من نيسـابـور إلى بيهـق ودرس بها مـدة ، ثم خرج إلى العراق وتـولى تـدريس المـدرسـة النظامية ببغداد إلى أن توفي سنة ٥٠٤ هـ .

وفيـات الأعيـان : ٣ / ٢٨٦ ، تبيين كـذب المفتري : ٢٨٨ ، العبر : ٤ / ٨ .



- ١٧ -

ابن البَزَري

أبو القـاسم عمر بن محمـد بن أحمـد بن عكرمـة المعروف بـابن البَزَري الجزري ، الفقيه الشافعي ، إمام جزيرة ابن عمر وفقيهها ومفتيها .

ولـد سنـة ٤٧١ هـ وتفقـه أولاً بـالجـزيرة على الشيـخ أبي الغنـائم محمـد بن الفرج بن منصـور بن إبراهيم بن الحسن السلمي الفـارقي نـزيـل جزيرة ابن عمر ، ثم رحل إلى بغـداد واشتغـل على الكيـا الهراسي وحجـة الإسلام أبي حامد الغزالي وسمع عليه وعلى أخيه أحمـد وأدرك جمـاعـة من العلمـاء واستفـاد منهم ، ورجـع إلى الجـزيرة ودرّس بهـا ، وكان من العلم والدين في محل رفيع ، وكان من أحفظ من بقي في الـدنيـا على مـايقـال

لمذهب الإمام الشافعي ، وانتفع به خلق كثير . توفي سنة ستين وخمسمائة للهجرة .

وفيات الأعيان : ٣ /٤٤٤ ، طبقات السبكي : ٤ / ٢٨٨ ، العبر : ٤ / ١٧١ .

☆ ☆ ☆

- ١٨ -

صلاح الدين والد ابن الصلاح

عبد الرحمن بن عثمان بن موسى ، صلاح الدين .

لم نظفر له بترجمة مفردة ،لكنه ذكر في ترجمة ولده التقي ابن الصلاح ، فقد جاء في الوفيات عن التقي ابنه :

« قرأ الفقه أولاً على والده الصلاح وكان من جلة مشايخ الأكراد المشار إليهم » .

وفي الترجمة ذاتها يقول ابن خلكان عن التقي :

« وتوفي والده الصلاح ليلة الخميس السابع والعشرين من ذي القعدة سنة ثماني عشرة وستمائة بحلب ودفن خارج باب الأربعين في الموضع المعروف بالجبل بتربة الشيخ علي بن محمد الفارسي ، وكان مولده في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة تقديراً لأنه كان لايتحققه ، وتولى بحلب تدريس المدرسة الأسدية المنسوبة إلى أسد الدين شيركوه بن شاذي ، وكان قد دخل بغداد واشتغل بها ، واشتغل أيضاً على شرف الدين بن أبي عصرون » .

وفيات الأعيان : ٣ / ٢٤٣ .

☆ ☆ ☆

- ١٩ -

التقي ابن الصلاح

عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى .

تقي الدين ، أبو عمرو ، الكردي الشهرزوري الموصلي ، المعرف بابن الصلاح الشافعي ، ولد سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وقرأ الفقه والنحو ، وحدث وأفتى وصنف في التفسير والحديث ، وتوفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

وفيات الأعيان : ٣/ ٢٤٣ .

☆ ☆ ☆

- ٢٠ -

محيي الدين النواوي

يحي بن شرف بن مرى بن حسن بن حسين الحزامي الحوراني ، محيي الدين ، أبو زكرياء ، النواوي الدمشقي ،

الحافظ المحدث ، شيخ الإسلام ، ولد في نوى من قرى حوران بسورية سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، وتوفي فيها سنة ست وسبعين وستمائة .

الطبقات للسبكي : ٥ / ١٦٥ ، والشذرات لابن العماد : ٥ / ٣٥٤ .

☆ ☆ ☆

- ٢١ -

ابن النقيب

محمد بن أبي بكر بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد ،شمس الدين ، أبو عبد الله ، الدمشقي المعروف بابن النقيب ، الشافعي .

شيخ الشافعية ، قاضي القضاة ، ولـد سنـة اثنتين وستين وستمائـة وتوفي في ذي القعدة سنة خمس وأربعين وسبعمائة للهجرة بدمشق .

الدرر الكامنة : ٣ / ٣٩٨ ، وطبقات السبكي : ٦ / ٤٤ .

☆ ☆ ☆

ـ ٢٢ ـ

علاء الدين حجي

حجي بن موسى بن أحمد بن سعد ، علاء الدين ، أبو محمـد الحسبـاني السعدي الشافعي .

الإمام الفقيه محدث الشام ، ولد سنـة إحـدى وعشرين وسبعمائـة ، وتوفي بدمشق في صفر سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة للهجرة .

تاريخ ابن قاضي شهبة : ١ / ٤٣ من المطبوع ، والدرر : ٢ / ٦ .

☆ ☆ ☆

ـ ٢٣ ـ

أحمد بن حجي

أحمـد بن حجي بن موسى بن أحمـد بن سعـد ، شهـاب الـدين ، أبو العباس ، السعدي الحسباني الدمشقي ، الشافعي .

فقيه دمشق ومحدثها ، مقرئ ، مؤرخ ، له تصـانيف ، ولـد في المحرم سنـة ٧٥١ هـ ، وتوفي بدمشق سنة ست عشرة وثمانمائة للهجرة .

الضوء اللامع : ١ / ٢٦٩

☆ ☆ ☆

- ٢٤ -

التاج الفزاري

عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع ، تاج الدين ، أبو محمد ، الفزاري البدري ، المصري الأصل الدمشقي . الشهير بالفركاح ، الشافعي .

من علماء الشافعية بدمشق ، ولد في ربيع الأول سنة أربع وعشرين وستمائة وتوفي في جمادى الأولى سنة تسعين وستمائة بدمشق .

طبقات السبكي : ٥ / ٦٠ .

☆ ☆ ☆

- ٢٥ -

البرهان الفزاري

إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع ، برهان الدين الفزاري ، الشافعي الدمشقي .

أصله من صعيد مصر ، نشأ بدمشق وبها تعلم ودرس وحدث ، ولد سنة ستين وستمائة ، وتوفي بدمشق في جمادى الأولى سنة تسع وعشرين وسبعمائة للهجرة .

الدرر الكامنة : ١ / ٣٤ ، وطبقات السبكي : ٦ / ٤٥ .

☆ ☆ ☆

- ٢٦ -

الشمس محمد بن قاضي شهبة

محمد بن عمر بن محمد بن عبد الوهاب ، شمس الدين ، أبو عبد الله ، الأسدي ، المعروف بابن قاضي شهبة الشافعي .

جد التقي أبي بكر بن قاضي شهبة لأبيه ، شيخ الشافعية بدمشق في زمنه ، ومدرس في بعض مدارس دمشق ، ولد في ربيع الأول سنة أربع وتسعين وستمائة ، وتوفي بدمشق في المحرم سنة اثنتين وثمانين وسبعمائة للهجرة .

انظر ترجمته مبسوطة في تاريخ حفيده ابن قاضي شهبة : ١ / ٥٠ ـ ٥٢ من المطبوع .

والدرر : ٤ / ١١٠ .



ـ ٢٧ ـ

ابن خطيب يبرود

محمد بن أحمد بن عبد الرحمن ، شمس الدين ، أبو عبد الله ، الشافعي الشهير بابن خطيب يبرود .

محدث دمشق وفقيهها والقاضي بها ومدرس ببعض مدارسها ، ولد سنة إحدى وسبعمائة ، وتوفي بدمشق في شوال سنة سبع وسبعين وسبعمائة للهجرة .

ترجم له ابن قاضي شهبة ترجمة مبسوطة في تاريخه (الورقة ١٧٢ب ـ ١٧٣ أ) .

وانظر الدرر : ٣ / ٣٢٢ .



ـ ٢٨ ـ

ابن قاضي الزبداني

محمد بن الحسن بن محمد بن عمار ، جمال الدين ، أبو عبد الله ، الحراني ، المعروف بابن قاضي الزبداني ، الشافعي .

مفتي دمشق والقاضي بها ومحدثها وفقيهها ومدرس ببعض مدارسها ، ولد في جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وستمائة ، وتوفي بدمشق في المحرم سنة ست وسبعين وسبعمائة للهجرة .

بسط ابن قاضي شهبة ترجمته في تاريخه (الورقة ١٦٥ أ ـ ١٦٥ ب) .

وانظر الدرر : ٣ / ٤٢٣ .

☆ ☆ ☆

ـ ٢٩ ـ

الشرف ابن الشريشي

محمود بن محمد بن أحمد بن محمد ، شرف الدين أبو الثناء ، البكري الوائلي ، المعروف بابن الشريشي ، الشافعي .

شيخ دمشق ومحدثها ، ومفتيها والقاضي بها ومدرس ببعض مدارسها ، ولد في حمص سنة تسع وعشرين وسبعمائة ، وتوفي بدمشق في صفر سنة خمس وتسعين وسبعمائة للهجرة .

انظر ترجمته مبسوطة في تاريخ ابن قاضي شهبة : ١ / ٤٩٦ ـ ٤٩٨ من المطبوع .

والدرر : ٤ / ٣٣٤ .

☆ ☆ ☆

ـ ٣٠ ـ

الشهاب الزهري

أحمد بن صالح بن أحمد بن خطاب بن ترجم ، شهاب الدين ، أبو العباس ، الزهري ، البقاعي الدمشقي الشافعي .

أحد علماء دمشق في عصره ومفتيها والقاضي بها والمدرس ببعض مدارسها ، ولد سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ، وتوفي بدمشق في المحرم سنة خمس وتسعين وسبعمائة للهجرة .

انظر ترجمته مبسوطة في تاريخ ابن قاضي شهبة : ١ / ٤٨١ ـ ٤٨٢ من المطبوع .

والدرر : ١ / ١٤٠ .



ـ ٣١ ـ

الشرف الغزي

عيسى بن عثمان بن عيسى ، شرف الدين ، أبو الروح ، الغزي الدمشقي الشافعي .

أقضى القضاة ، الإمام ، فقيه دمشق والقاضي بها والمدرس ببعض مدارسها ، لم يذكر تلميذه ابن قاضي شهبة تاريخ مولده ، بل ذكر وفاته في رمضان سنة تسع وتسعين وسبعمائة بدمشق وتوسع في ترجمته .

تاريخ ابن قاضي شهبة : ١ / ٦٣٦ ـ ٦٣٨ من المطبوع ، والدرر : ٣ / ٢٠٥ .



تحقيق لفظ تُبَّت

الأستاذ صبحي البصّام

١ ـ شاع في العصر الحديث في لفظ « تُبَّت » ـ وهي الهضبة الواقعة بين الصين وكشمير من الهند ـ كسر أولها وإسكان ثانيها أو كسره ، فيقال « تِبْت » أو « تِبِت » . هكذا سمعناها من معلّمينا ونحن تلاميذ صغار ، وهكذا جعل يلفظَها مذيعو الأخبار في الأقطار العربية وغيرها ، بل هكذا طفق يلفظها جل أهل الأدب . وإنما جاءنا ذلك من لغات الأعاجم . ويلفظها الأنكليز « تِيْبَيْت ـ TIBET » ؛ وكأننا أخذناها عنهم بعد أن صيّرنا الياء الأولى كسرة والياء الآخرة كسرة أو سكوناً .

٢ ـ والصوابُ « تُبَّت » بضم الأول وتثقيل الثاني وفتحه . وأول من ضبطها صاحب اللسان [باب : تبع] بنقله قول الزجّاج : « ويقال إنّ تُبّت اشتق لهم هذا الاسم من اسم تُبَّع ، ولكن فيه عجمة ». ثم أقرّ صاحب القاموس هذا الضبط بقوله بأنها كسُكّر . على أن الزبيدي أفاد في التاج [باب : تبّت] أنّ الزمخشري ضبطها بكسر الأول وفتح الثاني وتثقيله . وأهملت تُبّت في الجمهرة والتهذيب والصحاح والمحكم مع ورودها في كتب الأدب والتأريخ . ثم إنّ ذكرها في اللسان انما جاء اتفاقاً في تفسير تُبّع .

أ ـ وفي مصداق تثقيل الباء من « تُبَّت » قول ظهير الدين البارزي (الفوات ٦ / ٥٨) :

يـــــالحيـــــة الحِبّ التي زال بهـــــــا تثبّتي
هــل أنت فــوق خــــدّه الـ وردي مســــــك تُبّتِ ؟

ب ـ وقول أبي نصر محمد بن عبد الجبار العتبي (اليتيمة ٤ / ٢٨٧) :

شكرتـك طـول الـدهر غير مقـابـل
نـدى لـك بل جريـاً على طول منّتي
ومن لــك بـــالطر الجــواد بمسكـــه
بـلا سنبـل يرعــاه في أرض تُبَّتِ ؟

هكذا وجدت صدر البيت في اليتيمة ، وطبعتها قديمة يعوزها مزيد عناية في التحقيق ، وإنما أُريـد بـ « الطر » الطرف بـدلالـة « الجواد » بعـده ، وكلا اللفظين محرّف ، بل أجـد أكثر صـدر البيت محرّفـاً ، والصواب فيـه « ومن لك بالظبي المراد لمسكه » ، وبلاد تبّت معروفة بالظباء التي يتخذ منها المسك.جاء في التاج : « وفيها ظباء المسـك التي لا يشبههـا شيء » . وإن جُعل المسك التبّتي متخذاً من الخيل في اليتيمة فقد جُعل متخـذاً من الكلاب في تـأريخ الطبري[1] (٨ / ٣٤٩) وذلـك في قول بعضهم لهـارون الرشيد : « قد جئتك بغـاليـة ليس لأحـد مثلهـا ، أمـا مسكهـا فمن سُرَر الكلاب التبّتيّة العتيقـة ، وأمـا عنبرهـا فمن عنبر بحر عـدن » ، والصواب « الظبـاء » لا « الكلاب » . ومنـه قول المتنبي : « فـإنّ المسـك بعض دم الغزال » .

ج ـ وأيضاً في مصـداق تثقيل البـاء من « تُبَّت » قول دعبل الخزاعي وهو يفخر بقومه من اليمن (الإكليل ٨ / ٢٠٩) :

---

١ ـ بتحقيق محمد أبي الفضل ابراهيم .

وهم كتبــوا الكتـــاب ببـــاب مرو

وهم غرسـوا هنـــاك التُبَّتينـــا

وقوله : التُبَّتين ، بحذف الياء ، كقوله تعالى : ﴿ ولو نزلناه على بعض الأعجمين ﴾ [سورة الشعراء ، آية : ١٩٨] . وقوله : غرسوا التبّتين ، إشارة الى إسكان بعض التبابعة قوماً من اليمن بتبّت قبل زمن الاسكندر المقدوني . وذلك معروف في كتب التأريخ . ذكر أبو حنيفة الدينوري في الأخبار الطوال (ص ٢٨) أن تبّع الأقران لما توجه لغزو الصين اجتاب المفازة حتى بلغ التبّت ، فرآها مكتلئة طاهرة المياه فابتنى بها مدينة فأسكن بها ثلاثين ألف رجل من قومه . وذكر الطبري في تأريخه (١ / ٥٦٧) أن الذين أُسكنوا اثنا عشر ألف فارس ، وقال : « فهم أهل التبّت ، وهم اليوم يزعمون أنهم عرب ، وخلقهم وألوانهم خلق العرب وألوانها » . وممن ذكر شيئاً في ذلك الهمداني في اكليله (٨ / ٢١٣) . فإن صح ما قيل من أن المقيم بتبّت يغلبه سرور لا يُعلم سببه ، ويعتريه ابتسام لا يدرك سرّه[٢] ، وصحّ ما قيل من توطّن أهل اليمن إيّاها ، فظني أنها لصقت بقلوبهم ، وعلقت بنفوسهم ، على نحو أنطقهم بلغة أهليها وأنساهم لغتهم .

د ـ وأيضاً من شواهد تثقيل الباء من تبّت نسبة رجل اليها ذكر اسمه الزبيدي في التاج ، وهو أبو جعفر محمد بن محمد التبّتي .

٣ ـ ولا ينقدح شك في قلبي في أن ضبط اللسان لتُبَّت ثم القاموس بضم الأول وفتح الثاني وتثقيله هو اللغة العليا .

---

٢ ـ ذكر ذلك غير واحد من أهل العلم كالجاحظ في الحيوان (٧ / ٢٣٠) .

أ ـ ذلك بأنّ الأصل في تُبّت كما في معجم أوكسفورد[٣] كلمتان « تُو Tö » أي عالٍ ، و « بُوت BHOT » اسم علم لهضبة . ومعنى « تُوبُوت » : « بوت العالية » . ولدأب العرب في تغيير الاسم عند إعرابه ، أراهم قلبوا الواو من « تو Tö » باء ولذلك نظائر في لغتهم ، وأدغموها في باء « بُوت BHOT » فصارت « تُبُّوت » ، ثم ذهبوا يحذفون الواو ويفتحون الباء اختصاراً وتخفيفاً فكانت « تُبَّت » وكأنها منحوتة من كلمتين . وفي أربعة الشواهد التي ذكرتها على تثقيل الباء ثلاثة شعرية ضبطت التثقيل ضبطاً . إن تثقيل باء تبّت يمنحها عند النطق بها قوة ورنيناً ، ويخفف أثر الوهن والخفوت في صوتي التاءين وهذا التثقيل لم يجهل قدره ، ولا حيف على حقه ، الا بانصرافنا عن ادبنا القديم . أما ضم الحرف الأول من تبّت فأصل بشهادة اللسان والقاموس وأوكسفورد . وشهادة أوكسفورد لها نفوذها ، لأن قوله في أصول الألفاظ يبعد أن يطوره غلط أو يشوبه شطط .

ب ـ أما ضبط الزمخشري إياها بكسر أولها وفتح ثانيها مثقلا ، فأظنّ له وجهاً ، فإن يكن ذلك صحيحاً كان لغة في تبّت أو لغيّة . ذلك بأنّ كسر الحرف الأول من « تبّت » ربما وقع من ميل قسم من العرب الى الكسر ، ككسر بعض القبائل أحرف المضارعة ، نحو قولهم « تِفعل » في « تَفعل » ، وهي اليوم اللغة التي عليها العامة في العراق . وضبط الزمخشري ـ لولا التثقيل فيه ـ يكاد يطابق اللفظ الانكليزي TIBET[٤] .

---

٣ ـ The Oxford Dictionary Of English Etymology .

٤ ـ قلتُ : قول الانكليز « تيبيت » بدل « تُوبُوت » يذكرني مافي لغتنا من أن الواو والياء أختان ، وقد تحل أحداهما محل الأخرى .

ج ـ وأما ضبط شيخ الزبيدي لها بفتح أولها وكسر ثانيها مثقّلاً ، فالرجل متأخّر زماناً ، وضبطه لم يهدني الى أصل ، ولا أعانني على تعليل ، فلا معاج لي عليه .

وقول اللسان ، بل قول الزجّاج ،.. بأن المقول في تُبّت إنّها من تَبّع فزعم قد يكون مبنيّاً على التظني ، لموافقة الحرفين الأولين من تَبّع نظيريها من « تبّت » ولما قيل من وصول تُبّع الى تُبّت . وذلك لا يزحّلني عما صحّ عندي من أن تُبّت تحدّرت الينا من « تُوبُوت » وأنّ معناها « بُوت العالية »[٥] .

لندن ٥ / ١ / ١٩٨٣ م صبحي البصام



٥ ـ أنبّه هاهنا معتذراً أني سهوت في مقالتي « قولهم ما يلي بلا مفعول » في هذه المجلة (مج ٥٦ ج٣) عن عبارة العلامة الدكتور مصطفى جواد رحمه الله في كتابه فلسفة النحو والصرف وفيها يستثني شيئاً من وجوب ذكر المفعول ل « يلي » بقوله (ص ١٣٧) : « ماعدا ولاية الحكم » ، على أنه استثناء ينقضه في الأقل رجز العجاج المذكور في مقالتي ، ثم ان استثناءه لايغير من جوهر مقالتي .

تعقيب موجز

الدكتور شاكر الفحام

في كتب الرحالة وأصحاب المسالك والممالك والجغرافيين العرب أطرافٌ من أخبار بلاد التُّبَّت وصفة موقعها وأراضيها ونتاجها ، ولُمَعٌ يتشقّقُ إليها الحديثُ تتصل بطباع أهليها وسكانها وأصولهم وتاريخهم وملوكهم ومنتمى لغتهم ، وما قام بينهم وبين جيرانهم من علائق المودة والإخاء ، أو ما شجر بينهم من جاحم الحروب والعداء . ولم تَعْرَ كتبُ التاريخ والأدب والمحاضرات والحيوان والنبات وأمثالها من ذكر بلاد التبت والتعرض لخواصها في هوائها ومائها وسهلها وجبلها ، وتعداد عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وأنهارها ، مما لا يخلو من فائدة أو طرفة أو حقيقة تكشف مجهولا وتنير طريقا . ولعل باحثا ذا همة ينهض بجمع ماتشتت في بطون الكتب ، ولَمِّ ما تناثر من أخبار هذا الإقليم وأخبار سواه من الأقاليم ، يضمُّها بين دفتي كتاب مؤلف ، أو يشير الى مواضعها في دليلٍ مُرْشد ، فيقدم للناشئة العربية وللعلماء ذخيرة سنيَّة يئلون اليها ليجدوا فيها بغيتهم على أهون سبيل وأيسر طريق ، قد كُفوا مؤونة التنقير والتنقيب ، وأصبحت النصوص والمادة الأساسية منهم على طرف الثُّمام .

أما الكلمة التي حبّرها الأستاذ صبحي البصام بعنوان (تحقيق لفظ تُبَّت) فقد قصرها على تناول ما جاء بشأن ضبط هذه اللفظة في كتب

اللغة ومعجماتها ، ومما يستتبع ذلك من ذكر شواهد تعزز الرأي الذي ذهب اليه وتؤكده ، أو من تفسير يقود الى حادثة تداولتها كتب التاريخ ، ولم يمضِ في كلمته الى أبعد من هذه الحدود . لقد سعدتُ بقراءات الكلمة ، وكان أن ذكرتني بطائفة من النصوص اللغوية مرت بي في أثناء مطالعاتي ، فرأيت أن أعرضها هنا لتكون ضميمةً الى ماجاء به الأستاذ الفاضل البصّام . ولم أسلك في سردها سبيل الاستقصاء والتتبع فتلك سبيلٌ تحتاج الى تفرغ ونشاط ، وهما مني مناط الثريا ، وانما تناولتُ من هذه النصوص ما دنا وقرب . ووقفتُ عند الجانب اللغوي لا أجاوزه الى سواه من نقول ، إلا فيما لابدَّ منه مما يتطلبه فهمُ النصّ اللغوي . عسى أن تكون كلمة الأستاذ البصام وتعقيبي الموجز حافزاً ومحرضاً لناشىءٍ باحثٍ قد أُوتي القوة والجَلَد ، ورُزِق الصبر والدأب وحب العلم والتفاني في سبيله ، ليمضيَ في جمع أشتات هذه النصوص الموزعة في كتب اللغة ومعجماتها .

- إن استعراض هذه النصوص يوحي لقارئها أول مايوحي أن كلمة التُّبَّت تردُ بمعنى الإقليم تارة ، وبمعنى سكان هذا الاقليم تارة أخرى . وتلك سبيلٌ سلكها العرب على قلة في جملة من أسماء البقاع ، يطلقون على السكان اسم الإقليم والبلد ، وقد نبّه اليها العلماء . تحدث ياقوت الحموي عن مدينة كابل (معجم البلدان ـ كابل) ثم أتى بشواهد من الشعر على عادته ، وقدّم لشاهد منها فقال : « وقال الأعشى ، وسمّى أهل كابُل كابُلاً :

ولقد شربتُ الخمر ترْ ... كضُ حولنا تُرْكٌ وكابُلْ »

واليك ماعنَّ بالبال وسمح به الخاطر من نصوصٍ لغوية تناولت لفظ (تُبَّت) .

١ ـ جاء في كتاب العين المنسوب للخليل بن أحمد الفراهيدي (ط بغداد ١٩٨١) ٢ : ٧٩ « تُبَّع : اسم ملك من ملوك اليمن ، وكان مؤمنا . ويقال : تُبَّت ، اشتُقَّ لهم هذا الاسم من تُبَّع ، ولكن فيه عجمة . ويقال : هم من اليمن ، وهم وضائعُ تُبَّع بتلك البلاد » .

٢ ـ وقال المسعودي في مروج الذهب (بيروت ١٩٦٥ م) ١ : ١٨٦ ـ ١٨٨ « وبلادُ التُّبَّتِ مملكة متميزة من بلاد الصين ، والغالب عليهم حِمْيَرُ ، رتَّبهم بعضُ التبابعة .... وهذا البلد سُمِّي بمن ثُبِّتَ فيه ورُتِّب به من رجال حِمْيَر فقيل : ثُبَّت ، لثبوتهم فيه ، وقيل : لمعانٍ غير ذلك ، والأشهر ماوصفنا . وقد افتخر دعبل بن عليّ الخزاعيّ بذلك في قصيدته التي يناقض فيها الكميت ، ويفخر بقحطان على نزار فقال :

وهم كتبوا الكتاب بباب مرو ... وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سمَّوْا سَمَرقنداً بشمر ... وهم غرسوا هناك التُّبَّتِينا

.... وبلادُ التُّبَّتِ متاخمةٌ لبلاد الصين وأرضها من احدى جهاتها .... وقد كانوا في قديم الزمان يسمُّون ملوكهم تُبَّعاً اتباعاً لاسم تُبَّع ملك اليمن ، ثم إن الدهر ضرب ضَرَبانَه ، فتغيرت لغاتهم عن الحِمْيَرية وحالت الى لغات تلك البلاد بمن جاورهم من الأمم ، حتى قد سمَّوا ملوكهم بخاقان .... » .

٣ ـ وقال الأزهريُّ في التهذيب (ط القاهرة) ٢ : ٢٨٤ : « قلتُ : وأما تُبَّعٌ الملكُ الذي ذكره الله في كتابه فقال : (وقومُ تُبَّعٍ كلٌّ كذَّبَ الرسلَ) [سورة ق ، آية ١٤] ، فقد روينا عن النبي ﷺ أنه قال : ما أدري أتُبَّعٌ كان لعيناً أم لا . وقال الليث [في كتاب العين] : كان تُبَّعٌ ملكاً من الملوك ، وكان مؤمناً . وكان فيهم تبابعة . قال [الليث] :

ويقال : إن تُبَّت اشتُقّ لهم هذا الاسم من تُبَّع ولكن فيه عجمة ولُكْنة ، ويقال : هم اليوم من وضائع تُبّع بتلك البلاد » .

٤ ـ وقال نشوانُ بن سعيد الحميري في شمس العلوم ١ : ٢١٤ (باب التاء والباء وما بعدهما) : « الزيادة : فُعَّل ، بضم الفاء وفتح العين مشدّدة . (ت) التُّبَّتُ : اسم بلادٍ يُجْلب منها المسكُ ، وهي دون الصين ، فيها قومٌ من قبائل اليمن ، زيُّهم زيُّ العرب ، ولهم ملكٌ منهم قائم بنفسه . يقال : إن الذي نقلهم الى هنالك الملك شمر يرعش بن أبرهة ذي المنار ، له ولهم حديث . ويقال : نقلهم ابنُ ابنه تبّع الأكبر بن تبع الأقرن بن شمر يرعش . قال دعبل بن عليّ الخزاعي في قصيدته الدامغة في ملوك حمير :

وهم كتبوا الكتابَ بباب مروٍ وهم غرسوا هناك التُّبَّتِينا »

٥ ـ وجاء في معجم البلدان لياقوت الحموي (تبت) : « تبت ، بالضم (أي بضم أوله) ، وكان الزمخشريُّ يقوله بكسر ثانيه ، وبعضٌ يقوله بفتح ثانيه ، ورواه أبو بكر محمد بن موسى [الحازمي ، له كتاب ماختلف وائتلف من أسماء البقاع] بفتح أوله وضمّ ثانيه . [والباء] مشدّد في الروايات كلها . وهو بلد بأرض الترك .... وانما سُمّيت تُبَّت بمن ثُبّتَ فيه ورُتّب من رجال حِمْيَر ، ثم بُدّلت الثاءُ تاءً ، لأن الثاء ليست في لغة العجم . وكان من حديث ذلك أن تُبَّعاً الأقرن سار من اليمن .... حتى أتى بلاداً واسعة كثيرة المياه والكلأ ، فابتنى هناك مدينة عظيمة وأسكن فيها ثلاثين الفاً من أصحابه ممن لم يستطع السير معه الى الصين وسماها ثُبَّت . وقد افتخر دعبل بن علي الخزاعي بذلك في قصيدته التي عارض بها الكميت فقال :

وهم كتبوا الكتاب بباب مَرْوٍ وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سمَّوْا سمرقنداً قديماً وهم غرسوا هناك التُّبَّتِينا

وأهلُها ، فيما زعم بعضُهم ، على زيّ العرب الى هذه الغاية ، ولهم فروسيةٌ وبأسٌ شديدٌ ... وكانوا قديماً يسمُّون كل من ملك عليهم تُبَّعاً ، اقتداءً بأولهم ، ثم ضرب الدهرُ ضَرْبَه فتغيرت هيئتُهم ولغتهم الى ما يجاورهم من الترك ، فسمَّوا ملوكهم بخاقان .... ، ولتُبَّت مدنٌ كثيرة ، وينسبون مِسْكَ كل مدينة اليها .... »

٦ ـ وقال الصغاني في التكملة والذيل والصلة (تبت) : « وتُبُّت ، بضمتين ، والباء مشدَّدة : أرضٌ يُنسب اليها المسكُ الذكيّ » .

٧ ـ وجاء ابن منظور صاحب لسان العرب (وكتابه انما هو جمع وتأليف لخمسة كتب من أمهات كتب اللغة هي التهذيب للأزهري والصحاح للجوهري والمحكم لابن سيده وحواشي ابن بري على الصحاح والنهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير) فنقل عبارة الأزهري في التهذيب قال (اللسان ـ تبع) : « قال الأزهري : وأما تُبَّعٌ الملك الذي ذكره الله عزَّ وجل في كتابه فقال : (وقومُ تُبَّعٍ كلٌّ كذَّب الرسل) [سورة ق ، آية ١٤] فقد رُوي عن النبي ﷺ أنه قال : ما أدري أتُبَّعٌ كان لعيناً أم لا . قال [الأزهري قال الليث] ويقال : إن تُبَّت اشتُقَّ لهم هذا الاسم من اسم تُبَّع ، ولكن فيه عُجْمة ، ويقال : هم اليوم من وضائع تُبَّع بتلك البلاد » .

٨ ـ وقال الحميري في الروض المعطار : ١٣٠ ـ ١٣١ (تبت) : « تُبَّت : في بلاد الترك ، وهي مملكة متميزة من بلاد الصين ، والغالب عليهم حِمْيَر ، رتَّبهم بعضُ التبابعة .... والمشهور أنه تُبَّت ، بالتاء

المثناة ، وقال المسعودي [في مروج الذهب] : سُمِيّ هذا البلد بمن ثُبِّت فيه ورُتِّب له من رجال حِمْيَر فقيل : ثُبَّت (أي بالثاء المثلثة في أوله) لثبوتهم . وقد افتخر دعبل بن علي الخزاعي بذلك في قصيدته التي يناقض فيها الكميت ويفخر بقحطان على نزار :

وهم كتبوا الكتاب بباب مروٍ وباب الصين كانوا الكاتبينا
وهم سمَّوا سمرقنداً بشمرٍ وهم غرسوا هناك التُّبَّتينا

وبلاد التبت متاخمة لبلاد الصين وأرضها من احدى جهاتها ، ولأرض الهند وخراسان ومفاوز الترك .... وكانوا في قديم الزمان يسمُّون ملوكهم تُبَّعاً بتُبَّع ملك اليمن ، ثم ان لغاتهم تغيرت عن الحِمْيَرية وحالت الى لغة تلك البلاد بمن جاورهم من الأمم .... » .

٩ ـ وقال الفيروزاباذي في القاموس المحيط (تبت) : « تُبَّت ، كسُكَّر : بلادٌ بالمشرق ، ينسب اليها المسكُ الأذفر » .

١٠ ـ وقال مرتَضَى الزَّبِيديّ في التاج (تبت) : « تُبَّت ، كسُكَّر ، هكذا ضبطه غير واحد ، وكان الزمخشريُّ يقول بالكسر (اي بضم أوله وكسر ثانيه) ، ورُوِيَ بفتح أوله وكسر ثانيه ، [وباؤه] مشدّد في الجميع ، نقله شيخنا . وقد أهمله الجوهري .... وذكر صاحب اللسان في تركيب ت ب ع أن تُبَّت اشتق لهم هذا الاسم من اسم تُبَّع ، ولكن فيه عجمة ، ويقال : هم اليوم من وضائع تُبَّع بتلك البلاد . يُنسب اليها المسك الأذفر وهو أفضل من الصينيّ لخاصية مراعيها .... » .

١١ ـ بيتا ظهير الدين البارزي اللذان أوردهما الأستاذ البصّام واستمدهما من فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ، قد جاءا ايضاً في الوافي بالوفيات للصفدي (٦ : ١٨٠) ، وجاءت رواية البيت الثاني فيه :

هـل أنت فـوق خـدّه الـ ورديّ مِسْـكٌ تنبتي ؟

ثم علّق الصفدي على البيت بقولـه : « قلتُ : كان الأصل أن يقول : تنبتين ، ولكنه حذف النون على لغة من قال :

أبيتُ أسْرِي وتبيتي تـدلكي
وجهـك بـالعنبر والمِسْـك الـذّكي

والصحيح ان الأرض التي ينسب اليها المسك يقال لها : ارض التبت ، وهي بلاد الترك التي بها غزال المسك ، ليس فيها نون البتة ، وانما هي بتاءين ثالث الحروف ، الأولى مضمومة ، وبينهما باء ثاني الحروف مفتوحة ، على وزن عُمَر » . وضبطُ الصفدي : تبت ، على وزن عمر ، ضبطٌ يحتمله وزن البيت ، فهو من مجزوء الرجز ، دخل ضربَه الطيُّ (وهو حذف الرابع الساكن من الجزء) .

١٢ ـ وأما قول دعبل الخزاعيّ الذي رواه الأستاذ البصّام :

وهم كتبوا الكتاب بباب مروٍ وهم غرسوا هناك التُّبَّتينا

فهذه روايته في الاكليل (٨ : ٢٠٩) وشمس العلوم (١ : ٢١٤) وخلاصة السيرة الجامعة : ٩٠ ، وهو ملفق من بيتين في رواية المسعودي (مروج الذهب ١ : ١٨٨) ، وياقوت الحموي (معجم البلدان ـ تبت ، سمرقند) ، والحميري (الروض المعطار ـ تبت) . وانظر شعر دعبل بن عليّ الخزاعي صنعة الدكتور عبد الكريم الأشتر (دمشق ـ مجمع اللغة العربية بدمشق) : ١٩٣ ، ١٩٥ .

شاكر الفحام

التعريف والنقد

كتاب جديد في الفلك

الأستاذ المهندس وجيه السمان

بعد كتابتي لمقالي السابق عن مصطلحات الفلك الحديث ، اطلعني صديق لي على موسوعة علمية مصورة أصدرتها حديثاً باللغة العربية الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان في طرابلس ، عاصمة الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الإشتراكية . وهي مقتبسة من موسوعة انكليزية اسمها The joy of knouledge Eneycloperedia طبعت باللغة الانكليزية عام ١٩٧٦ وسميت الموسوعة العربية : بهجة المعرفة . وهي في عشر مجلدات طبعت في ايطاليا طبعاً أنيقاً جداً وأخرجت إخراجاً ممتازاً فيه كثير من الصور الملونة ، على يد الشركة العامة للنشر والتوزيع والإعلان .

وهي تنقسم إلى مجموعتين كل واحدة منهما في خمس مجلدات ، وتبحث في المواضع الآتية :

المجموعة الأولى :

١ ـ العلم .

٢ ـ الكون .

٣ ـ الأرض .

٤ ـ الحياة .

٥ ـ الأداة والآلة .

المجموعة الثانية :

١ ـ هذا الإنسان .

٢ ـ الإنسان والمجتمع .

٣ ـ ٤ ـ ٥ ـ مسيرة الحضارة .

وأحب أن أتكلم الآن عن المجلد الثاني من المجموعة الأولى ، الذي عنوانه : الكون . فهو في الواقع كتاب حديث في الفلك يرجع تاريخ طبعته الإنكليزية إلى عام ١٩٧٦ والطبعة العربية تحمل تاريخ ٣٠ / ١ /١٩٨٠ . وان مادفعني إلى اختيار هذا المجلد للكلام عنه قبل غيره هو رغبتي في الحاق هذا البحث بمقالي السابق الذي خصصته لمصطلحات الفلك الحديث .

ينقسم هذا الكتاب إلى سبعة أقسام :

١ ـ تقنات علم الفلك (٢٠ صفحة) ويبحث في الأبعاد الفلكية والمراقب والمراصد الكبرى وفي الفلك غير المنظور . أقول : إن الشائع هو قولك تِقْنيات لاتِقنات ، لأنها تؤخذ من تِقن وهو الماهر الحاذق ، وتقني وهو ماينسب إلى التِقن .

٢ ـ النظام الشمسي (١٠٣ صفحات) ويبحث في تطور هذا النظام وفي مكوناته من سيارات وأقمار وكويكبات ومذنبات وشهب ونيازك . ويستأثر بقسم كبير لدراسة الشمس . ويورد كثيراً من الصور التي التقطتها مركبات الفضاء لعطارد والزهرة والأرض والمريخ والمشتري ، وهنا تقف الصور لأن المركبتين فوياجور ١ و ٢ وصلتا إلى زحل بعد تاريخ طبع النسخة الإنكليزية ، إذ حدث ذلك في عامي ١٩٨٠ و ١٩٨١ .

٣ ـ النجوم (٣٦ صفحة) ويبحث في أنواع النجوم وفي تطورها وفي

النجوم غير المنتظمة وفي العناقيد النجمية (وأقول هنا ان كلمة العناقيد ترجمة لـ :Clusters ليست ناجحة جداً ، لأن العنقود له شكل خاص وللكلمة الإنكليزية معنى آخر أكثر موافقة وهو التجمع أو المجموعة ، ويسميه الفرنسيون Amas .

٤ ـ المجرات (٢٠ صفحة) .

٥ ـ خرائط النجوم (٢٨ صفحة) .

٦ ـ الإنسان في الفضاء (٢٦ صفحة) ويبحث فيا أنجز من ريادة الفضاء .

٧ ـ متفرقات كالبحث في وجود عوالم أخرى مسكونة غير الأرض .

يلي ذلك معجم عربي انكليزي بالمصطلحات الواردة في الكتاب وعددها ٨٦٧ مصطلحاً وينتهي الكتاب بمجموعة صور الكواكب الرئيسة المعروفة قديماً ، كما ظهرت في كتاب الفلكي أبي الحسن الرازي المعروف بالصوفي (المتوفى سنة ٣٧٦ هـ ـ ٩٨٦ م) .

يبلغ عدد صفحات الكتاب ٣٩٥ صفحة وهو مطبوع طبعاً متقناً على ورق سميك ومجلد تجليداً متقناً . ويعد أحدث كتاب في الفلك طبع بالعربية حتى الآن . وإن وجود الأجزاء العشرة في مكتبة الإنسان زينة جميلة إضافة إلى مافيها من فائدة كبيرة .

أعود إلى هذا المجلد الثاني فأقول انه لما كانت طبعته الإنكليزية تحمل تاريخ ١٩٧٦ ، فإن الظن الغالب هو أن المعلومات التي فيه يرجع عهدها إلى ماقبل ذلك بعام على الأقل ، أي إلى ١٩٧٥ ولذلك فإن ماحدث في الفلك من مكتشفات بعد هذا التاريخ غير وارد فيه .

وهذه مشكلة كبرى من مشاكل الكتب العلمية في أيامنا هذه . فكلما

كان العلم الذي يعالجه الكتـاب ذا تطور سريع كالفلـك الحـديث أو علوم الفضاء أو الألكترونيات مثلاً ، احتاج هذا الكتاب إلى تجديد كلما أعيد طبعه (ضمن مدة خمسة أعوام) وقد أصبح من المتفق عليه الآن أن أكثر الكتب العلمية كالطبية ينبغي تجديدها كل خمسة أعوام على أبعد تقدير وإلا فإنها لاتعود تمثل بحق مرحلة التقدم التي وصل إليها ذلك العلم . وإذا أراد الإنسان مراجعة آخر المراحل التي وصل إليها علم من العلوم فإنه قلما يجدها في الكتب (إلا ماظهر منها في تلك السنة أو التي قبلها) وعليه أن يطلبها في المجلات والدوريات المتخصصة .

لمعالجة هذه المشكلة عمدت الإدارات المشرفة على إصدار الموسوعات إلى إصدار ملاحق لها الفينة بعد الفينة تدرج فيها المكتشفات والمكتسبات العلمية والتقنية الجديدة حتى تضفي على الموسوعة ثوباً من الجدة يضمن لها موافقة زمنها ، إلى أن يصدر لها ملحق جديد وهكذا .

وفقاً لهذه القاعدة تقريباً تعد هذه الموسوعة موسوعة حديثة ويعد هذا المجلد الثاني منها جامعاً للمعلومات الفلكية الحديثة . وهو موجه ـ كما تقول المقدمة ـ « إلى القارئ المدرب الذي تلقى تعليماً منظماً يعادل على الأقل مرحلة التعليم الإعدادي . فقراءة موضوعات الموسوعة من دون إلمام بأوليات المعرفة قد لاتكون أمراً مشوقاً » .

إن جعل الحد الأدنى لثقافة القارئ الذي يمكن أن يشوقه الكتاب والذي يمكن أن يستفيد منه بالتعليم الإعدادي فيه تفاؤل كبير جداً من قبل من خططوا لهذه الموسوعة ، وقد أثار دهشتي إلى أقصى حد عندما تصفحت ماورد في هذا المجلد من معلومات فلكية مبنية على الفيزياء والكيمياء والنظريات الذرية والميكانيك وعلى الفلك ذاته . إن المعلومات

المبسوطة فيه وإن كانت مبسطة فإنها قد لخصت وأعطيت نتائجها بصورة مكثفة ، لذلك فإن استيعابها لايتيسر إلا لمن عنده أساس متين وثقافة في الرياضيات والفيزياء والكيمياء لاتقل عن الشهادة الثانوية العلمية أو السنة الأولى الجامعية . لذلك فإنني أرجو أن يكثر المثقفون من قراء هذه الموسوعة حتى يتمكنوا من فهم مافيها . ولاأقف عند هذه النقطة لأنني أعدها ثانوية ، وقد يكون بين هواة العلوم عدد كبير ممن لايحملون الشهادة الثانوية . ومن المعلوم انه كلما سهل عرض المواضيع التي توردها الموسوعة وتجنبت القراء المتخصصين انحطت سويتها ولم تعد تفي بالغرض المرجو منها .

ملاحظات عاجلة على كتاب الفلك :

لم تتيسر لي مطالعة هذا الكتاب بدقة لأن ذلك يستغرق وقتاً طويلاً (خلافاً لما يظن) ولكن لفتت نظري أثناء تصفحه ملاحظات كثيرة منها اللغوية ومنها العائدة إلى الترجمة ومنها العلمية .

الملاحظات اللغوية :

لاحظت أن المشرف الذي كتب المقدمة ورئيس قسم التحرير الذي شرح خطة التحرير قد استعمل أسلوباً هو إلى الصحافة والإذاعة أقرب منه إلى الأسلوب الأدبي العلمي . ومن المعلوم أن المقدمة لابد أن تكتب بلغة رصينة يتجنب فيها الأسلوب الصحفي الذي يعرض أخباراً تنشر اليوم وتقرأ ثم لايعود إلى مراجعتها أحد . (وأورد فيما يلي مقاطع من المقدمة) قال : **بالنسبة** إلى هذه النقطة ـ فمنهج التحرير نفسه في **تغطية** مواد الموسوعة ـ **لاتغطي** كثيراً مما يهمنا نحن ـ **بالنسبة** لهذه النقطة ـ المجموعة الأولى **موجهة لتغطية** ـ مقابل أن يكتفي **بتغطية**

شبه عامة . فنرى ان كاتب المقدمة قد استعمل هاتين الكلمتين : **بالنسبة و تغطية** وكلاهما من التعابير المولدة الجديدة التي درجت على ألسن الناس ونراها في الصحف والمجلات ونسمعها في الإذاعة والتلفزيون وكلاهما خطأ ، ومن الناس من يبدأ جمله عند الكلام بقوله دائماً : بالنسبة ، أما التغطية فيكثر استعمالها في الإذاعة والتلفزة عند الكلام عن الصحفي الذي يتولى مهمة المشاركة في مؤتمر أو ندوة أو ماشابه ذلك ويقدم عن هذا تقريراً يومياً مصوراً أو صوتياً أو مكتوباً . وهي بلا ريب ترجمة حرفية لكلمة To cover وفي العربية مايقوم في هذا الباب مقام التغطية فيمكن أن تقول : معالجة ، تزويد ، المام ، أخبار ، وأوفاه حقه من الرعاية والاهتمام الخ ... وبدلاً من أن نقول بالنسبة يمكن أن نقول : ماكان من أمر كذا ، أو فيما يخص كذا أو يتعلق بكذا ، أو من شأن كذا ، الخ ...

ننتقل الآن إلى خطة التحرير (ص ١٤) وهي تحمل توقيع رئيس قسم التحرير ، فنجد فيها هذه العبارات :

« الواقع ان **مثل هذا** الزعم ليس خيالياً فحسب » ، والأولى ان يقال إن هذا الزعم وأمثاله ...

« هذا المنهج في **تغطية** جميع وحدات الموضوع من عدة زوايا » (ص ١٥) والأولى أن يقال : التوفية أو الموافاة .

« كيف تبحث ؟ الخطوة الأولى أن تحدد لنفسك المجلد الذي **يتعامل مع** موضوعك » (ص ١٦) يخيل إليّ أن قوله يتعامل هو ترجمة حرفية لـ : To deal with . وخير من ذلك ان يقول : الذي يبحث في موضوعك ، أو يطرق موضوعك أو يعالج موضوعك ، أو الذي له علاقة بموضوعك أو مساس بموضوعك . الخ ...

تتردد هذه الكلمات في سائر الكتاب ، ويشاهد فيه أحياناً تقديم خبر كان على اسمها أو تقديم المفعول على الفاعل : « لما كانت معروفة مدة دوران الأرض حول الشمس » (ص ٣٣) . « معروف الآن أن قطر مجرتنا » (ص ٣٥) ، وقد يكون ذلك أحياناً بسبب مقتضيات الترجمة .

ملاحظات على الترجمة :

ان الحكم الصحيح العادل على الترجمة يقتضي وجود الأصل الانكليزي أمامي ، ولكنه ليس موجوداً ، لذلك أكتفي بالملاحظات الآتية ويتعلق أكثرها بالمصطلحات المستعملة :

١ ـ جاء في الصفحة ٢٢ ذكر الفلك الإشعاعي ويقصد به بلا ريب Radio Astronomy . ان استعمال كلمة الإشعاع هنا مقابل كلمة Radio غير مناسب لان الإشعاع يشمل جميع الأمواج الكهربائية المغنطيسية من الأمواج الهرتزية بأنواعها إلى ماتحت الأحمر ، فالضوء المرئي ففوق البنفسجي فالإشعاع السيني فأشعة غاما . وأما مايقصد بـ Radio waves فيستحسن ان يترجم بالأمواج الراديوية وهي تسمى أيضاً بالأمواج الهرتزية نسبة إلى العالم الذي تكلم عنها وولدها عملياً وقد تكرر الكلام في الكتاب عن هذه الأمواج ، فورد في الصفحة ٢٢ قوله الفلك الإشعاعي كما قلت ، ثم في الصفحة ٢٤ ورد ذكر المراقب الراديوية (حيث استعمل المصطلح الصحيح) وعاد ذكر الفلك الإشعاعي في الصفحة ٢٧ ، وفي الصفحة ٤٤ (في بحث الفلك غير المنظور) ورد ذكر الاشعاعات الكهرمغنطيسية وسائر الإشعاعات الأخرى . فما يسميه المترجم بالإشعاعي هو جاء في الأصل باسم Radio . وتستعمل هذه الإشعاعات أو هذه الموجات في الراديو والتلفزة والاتصالات اللاسلكية وهنالك فلك خاص يعتمد عليها نشأ بعد الحرب العالمية الثانية واتسع نطاقه بانشاء

المراصد الراديوية الضخمة التي تتلقى هذه الأمواج من الشمس ومن المجرة ومن خارج المجرة . وقد رأيت من ترجم الأمواج الراديوية (في موسوعة أخرى غير هذه) بالأمواج اللاسلكية : جرياً على التسمية القديمة للراديو : Wireless بالانكليزية و Sans fil بالفرنسية .

وجاء في معجم لاروس ان الفلك الراديوي علم قد أسس على رصد الكون في نطاق الأمواج الكهربائية المغناطيسية التي تتراوح أطوالها بين بضعة ملمترات وبين ٢٠ متراً .

٢ ـ ورد ذكر طبقات الجو العليا المتأينة بإشعاع الشمس (وخاصة بالأشعة فوق البنفسجية) وتنعكس على هذه الطبقات أمواج الراديو ، فوردت ترجمتها بأنها الطبقة **الثقيلة** ، والحقيقة انها تنسب إلى العالم الانكليزي Heviside واسمه هذا يوحي بالثقل ، ولكنه اسم عالم وينسب إليه قسم من هذه الطبقات فيقال طبقات هفيسايد كما يقال طبقة Kenelly وطبقة Appleton .

٣ ـ وردت في الصفحة ٢٥ عبارة : انهيار الجاذبية ، ويفهم منها ان الجاذبية تنهار والحقيقة هي ان مادة النجم الغازية تكون في حالة توازن بين الجاذبية الثقلية التي تجذبها نحو مركز النجم وبين قوى التمدد الناجمة عن التفاعلات النووية في قلبه ، والتي تسعى في تفجير النجم نحو الخارج ، فإذا تغلبت قوة الجاذبية على قوة الانفلات انهارت مادة النجم نحو مركزه بفعل الجذب ، وليس هذا انهياراً للجاذبية .

٤ ـ ترجمت كلمة Field تارة بالحقل (في أول الكتاب) وتارة بالمجال : مثال ذلك قوله حقل مغنطيسي في عطارد (ص ٧٩) ، خلو القمر من حقل مغنطيسي (ص ٦٠) ، حقل الأرض المغنطيسي (ص ٨٦) ثم

جاء : في الصفحة ٨٩ قوله ليس للمريخ مجال مغنطيسي واستمر على ذلك .

٥ - ترجم مصطلح Temperature في المعجم الذي في آخر الكتاب بالحرارة ، في حين ان المصطلح العربي المتفق عليه بالإجماع في وقتنا الحاضر هو درجة الحرارة . وان كلمة حرارة تقابل Heat أو Chaleur وهنالك فرق كبير بين معنى المصطلحين فلا يمكن المزج بينهما . وتابع المعجم مسيرته فترجم Critical Temperature بالحرارة الحرجة وفسرها بأنها درجة الحرارة التي لا يمكن لغاز عند درجة أعلى منها أن يتحول إلى سائل بواسطة الضغط وحده مهما كان . وفي هذا تصرف في المصطلحات غير جائز أبداً ، لأنه يعني هنا اعتبار الحرارة (أي كمية الحرارة) ودرجة الحرارة شيئاً واحداً ، أو أنه يعتبر مفهوم الحرارة ودرجة الحرارة شيئاً واحداً .

٦ - اصطلح على استعمال رمز : كلم للكيلومتر وسم للسنتيمتر والرمز الدولي المتفق عليه لهما هو km للكيلومتر أي كم و cm للسنتيمتر أي سم . مثلما ان المللمتر يرمز إليه بـ mm أي مم ولا مجال للقول بأن كم قد تلتبس بالكم والكمية ، فالكلم قد يلتبس بالكلام والكلم .

٧ - ورد في معجم المصطلحات (الذي في آخر الكتاب) انه معجم المصطلحات الفنية . وهو من إعداد الدكتور خليل الجر عميد كلية التربية في الجامعة اللبنانية . وكلمة فن تعني Art وكان ينبغي ان يقول المصطلحات العلمية أو التقنية .

٨ - ورد في هذا المعجم تعريف لكلمة Convection بأنها الحمل الحراري أو التصعد . والمعروف والمقرر هو أن التصعد أو التصعيد هو تحويل الصلب إلى بخار دون المرور بحالة السائل . ويسمى Sublimation . ويسمى

بالعربية أيضاً بالتسامي . وأعتقد ان الدافع إلى تسمية الحمل الحراري بالتصعد هو ان ظاهرة الحمل تحصل في الإناء المملوء ماءً والموضوع على النار في اتجاه الصعود .

٩ - ترجم مصطلح Magnetic declination بالحدور المغنطيسي ، والمصطلح عليه هو الانحراف المغنطيسي . وهو في مكان ما ، الزاوية الثنائية الواقعة بين مستوى الزوال الجغرافي وبين مستوى الزوال المغنطيسي المارين في تلك النقطة ويقال ان الانحراف شرقي أو غربي حسب وضع الإبرة المغنطيسية بالنسبة إلى مستوى الزوال الجغرافي .

ثم استعمل مصطلح الانحراف لكل من Aberration و Variation وسمي Declination (في علم الفلك) بالانحراف الزاوي .

وقد جاء في المعجم الفلكي لأمين المعلوف :

Aberration of light = تغير في مكان جرم سماوي حادث من حركة الأرض في فلكها . وكنت أود أن أسميه زوغان النور أو زيغانه ، ولكن الفلكيين العرب قالوا : انحراف النور (فانديك ونلينو) وانحدار النور (نلينو) .

وجاء أيضاً :

Declination = الميل وهو بعد جرم عن خط الاستواء شمالاً أو جنوباً .

وجاء في المعجم الفلكي لمنصور جرداق : Aberration = الانحراف ، الانحدار ، الزيغان .

Declination = الميل (مع عين التعريف الذي أورده المعلوف) .

وجاء في معجم المصطلحات الفلكية لجامعة الدول العربية ، الذي طبع في المغرب عام ١٩٧٧ :

Aberration = زيغ ، Declination = الميل (بدون شرح) .

فيبدو لنا ان هذين المصطلحين لم يأخذا بعد تسميتهما النهائية ولم يتم الإجماع عليهما .

١٠ ـ سمي النجم Alcor بالخوّار ، في حين ان اسمه الدارج والمعروف هو السهى (أو السها) ويقول المعلوف ان التسمية الانكليزية آتية من خوّار العربية ، فقالوا في وصفه : كوكب خوّار أي ضعيف . ويقول الشدياق مايشبه ذلك ، ويذكر ان من أسمائه الصيدق والصيدوق .

١١ ـ الألبيدو = Albedo : وهو نسبة الضوء المنعكس على سطح غير مصقول إلى الضوء الساقط عليه . ويقول معجم لاروس ان أصل الكلمة من اللاتينية : Blanc = Albus . ويقول المعلوف : ان الكلمة ليست عربية ولكنها شبيهة بالعربية ، ويسميها : البياض وكذلك يسميها الشدياق كما يسميها النوار أيضاً . ويسميها المعجم الفلكي لجامعة الدول العربية بالعاكسية . وعلى كل حال فلا مانع من تسميتها بالبياض لأن ذلك يفيد معناها تماماً ، ولأنه خير من إضافة الـ إلى البيدو حتى تصبح الألبيدو = الـ ـ الـ ـ بيدو !

١٢ ـ Albedometer يسميه المترجم : الالبيدو متر ، ويفضل ان يسمى : مقياس البياض .

١٣ ـ جاء في معجم المصطلحات : البلسار = Pulsar : نجم نتروني أصغر من الأقزام البيض وأكثر منها كثافة ، يتكون في قلب سديم ناجم عن انفجار متجدد أعظم (أي مايسمى : Supernova) .

أقول : ان هذا النوع من النجوم هو من أواخر المكتشفات الحديثة ، اكتشف أول نموذج له عام ١٩٦٧ على يد جماعة من الفلكيين البريطانيين وهو يبث إشارات راديوية تتوالى بشكل نبضات ذات دور ثابت تماماً وبقي خبر اكتشافه مكتوماً حتى اكتشفت الجماعة عينها ثلاثة منابع من

النوع نفسه ، فأعلنوا عن اكتشافهم في شباط من عام ١٩٦٨ .

ان اسم هذا النوع من النجوم هو النجوم النابضة بسبب الإشارات الراديوية التي تبثها ، وقد ظن بعض العلماء في أول الأمر ان هذا البث آت من نجوم بعيدة بقصد الاتصال بما يمكن ان يكون في الكون من مخلوقات . ولما كانت هذه الاشارات بمثابة نبضات فقد سمي النجم Pulsar أي النابض ، وهذه هي التسمية الصحيحة له . على حين ان المترجم قد فضل اعطاء اسم النابض إلى نوع النجوم المتغيرة التي تسمى : Variables ، ودور تغيرها طويل ولذلك فهو ليس نبضاً .

فقد جاء في الصفحة ١٧٦ عنوان هو : النجوم النابضة . وعُرّفت بانها متغيرات يتضاءل ضياؤها مع الوقت نتيجة لأدوار من التمدد والتقلص تمر فيها . وذكر منها النجم دلتا قيفاوس الذي له دور تغير يبلغ ٥,٣ أيام ، وذكر أيضاً المتغيرة الجنوبية كبّا الطاووس دورها ٩,١ أيام وزيتا التوأمين دورها ١٠,٢ أيام . الخ ... لقد سماها كل الذين كتبوا في الفلك الحديث بالمتغيرات .

فهذه التغيرات الدورية في الضياء ليست نبضاً حتى يسمي مصادرها بالنجوم النابضة كالتي اسمها Pulsars ودور نبضها ثانية أو مايقارب الثانية .

جاء في لسان العرب : نبض العرق ينبض نبضاً ونبضاناً : تحرك وضرب . والنابض العصب والمنابض مضارب القلب ونبضت الامعاء تنبض : اضطربت ... الخ .

وقد اشتهر بين النجوم المتغيرة نجم دلتا قيفاوس ، فاصبحت النجوم المتغيرة تسمى بالقيفاوية نسبة إلى قيفاوس وسماها المترجم القيفاوسية وهو

لفظ مستثقل . جاء في آخر كتاب النجوم في مسالكها (ترجمة عبد السلام الكرداني) Cepheid variables = المتغيرات القيفاوية ، وهو لفظ مقبول .

١٤ ـ ترجم Super Nova بالمتجدد الأعظم وهي ترجمة حرفية تبقى صالحة حتى يوضع لها مصطلح نهائي يتفق عليه . وكانوا يسمون الـ Nova بالنجم الجديد أو الوقتي . هكذا فعل المعلوف والشدياق ومعجم الجامعة العربية .

١٥ ـ ترجم مصطلح Oscillation بالترجح والمصطلح المستعمل هو اما التذبذب أو الاهتزاز أو النوسان .

١٦ ـ ترجم Accumulator بالمركم والحاشدة ، والمصطلح الأول هو المستعمل .

١٧ ـ ورد في معجم آخر الكتاب Hygrometer و Hydrograph ترجما على الترتيب بالمرطاب والمرطاب الآلي . وهذا الجهاز الأخير ليس آلياً ولكنه جهاز راسم أو مسجل . وقد استعمل في الكتاب لأجهزة القياس (وهي التي تنتهي أسماؤها بـ Meter) كلمة مقياس . فقال : مقياس الاستقطاب ومقياس الفلطية ومقياس الارتفاع . كما استعمل لأجهزة الكشف (وهي التي تنتهي أسماؤها بـ Scope) كلمة مكشاف فقال عن Spectroscope : مكشاف الطيف ، وعن Polariscope مكشاف الاستقطاب ، وبقيت أجهزة التسجيل ينبغي ان يستعمل لها اسماً يبتدأ برسام أو راسم أو مسجل فيقول عن المرطاب : مقياس الرطوبة وعن Hydrograph مسجل الرطوبة . وبذلك تكون القواعد الثلاث قد روعيت .

١٨ ـ ترجم Impedance بالمقاومة الاطارية . والمعروف لها مقابلان هما : الممانعة والمعاوقة فلا حاجة إلى إضافة مصطلح جديد لايفهمه أحد

ولا يفيد المعنى المطلوب .

١٩ ـ المرقب أو التلسكوب = Telescope . ويسمى في سورية : الراصدة وما دام هذا الجهاز منصوباً في المرصد الفلكي فان تسميته بالراصدة جائزة أكثر من غيرها .

٢٠ ـ ورد عند الكلام عن أنواع المراقب وتعداد انواعها ذكر نوع أخير سمي في الكتاب بتلسكوب كودي (هكذا) مما يوحي بان كودي هذا هو صانع أو مخترع هذا المرقب وجاء ذكر بؤرة كودي ونظام كودي ومرقب كودي (ص ٣٦ ـ ٤٠) فكأن كودي عالم فلكي استنبط هذا النوع من المراقب مثل نيوتن وكاسغران وهرشل . وقد فتشت عن كودي هذا كثيراً في كتب الفلك بل وفي قسم البصريات من كتب الفيزياء (وخاصة في بحوث الآلات البصرية) ولكنني لم أجد له أثراً ، بل عثرت على ماكنت اتوقعه من ان كلمة كودي هذه هي Coudé وتعني بالفرنسية ماله مرفق او كوع (مكوّع) . فهنالك راصدات لها مرآة خاصة تأتي في آخر طريق الضوء الآتي من النجم وتعكس الحزمة الضوئية إلى خارج اسطوانة الراصدة بشكل مستعرض (أي ذي كوع) حتى تخرج هذه الحزمة جانبياً من الاسطوانة من فتحة خاصة بها ، حيث يسهل فحصها أو تصويرها أو اسقاطها على راسم الطيف ، الخ ... فهذا النوع من الراصدات يسمى بالفرنسية Télescope Coudé وتسمى بؤرته الأخيرة التي تتجمع فيها الأشعة خارج اسطوانة الراصدة Foyer Coudé . وقد اخترعها Nasmyth في القرن التاسع عشر .

ويؤيد قولي هذا الوصف الآتي الوارد في الصفحة ٣٧ من الكتاب الذي اتكلم عنه إذ يقول : « هنالك نموذج للعاكس أحدث من النماذج السابقة هو مرقب كودي الذي يحتوي على مرآة ثانوية ومرآة إضافية

تدور على المحور القطبي للمرقب . الفائدة الكبرى من ذلك هي عدم الاضطرار إلى تحريك التجهيزات الثقيلة والدقيقة بعد تركيبها . اكثر العاكسات الحديثة تعتمد بؤرة كودي (ا هـ) فهذه التسمية قد أضافت إلى أسماء العلماء من أمثال نيوتن اسم زميل لاوجود له هو كودي .

٢١ - ورد في الكتاب ذكر الأقزام البيضاء والأقزام السوداء والعمالقة الحمراء ، والفجوات السوداء ، والصواب ان تكون : البيض والسود والحمر والسود .

٢٢ - ترجم مصطلح Black hole بالفجوة السوداء . والفجوة هي الفرجة بين الشيئين ومااتسع من الأرض . ومنه : بينك وبين القبلة فجوة . والفجوة أيضاً ساحة الدار ، الخ ... والمقصود هنا هو الثقب لأنه يبتلع كل شيء يقع في نطاق جاذبيته حتى الضوء . وقد ورد في اعلى الصفحة ١٧٠ من الكتاب قوله : « هذه هي الفجوة السوداء . وهي منطقة تعمل بمثابة مركز للتجارب التثاقلي . ولم أفهم على م تعود كلمة التثاقلي (وهي مذكرة) اعلى المركز وهو مذكر ام على التجارب وهي مؤنثة . ولعل فيها خطأ مطبعياً .

٢٣ - ورد في الصفحة ٨٣ حساب لدرجة الحرارة بمقياس فهرنهايت هكذا : ٣٥٠ س = ١٠٠٠ ف والصواب ان الدرجة ف يجب ان تكون ٣٥٠×١,٨+٣٢=٦٦٢ ف

٢٤ - ورد في الصفحة ٩٥ ذكر مقياس الطيف السيني الفلوري ولكن لم يرد ذكره في المعجم ولم نستطع التعرف على ماهيته .

٢٥ - جاء في الصفحة ١١٦ ان المشتري يبعد عن الأرض ٦٢٩ مليون كيلومتر ، والحقيقة ان ابعاد الكواكب السيارة جميعها عن الأرض تتغير باستمرار بسبب دورانها حول الشمس ولذلك فإنها تمر بنهاية عظمى

عندما تكون الأرض والكواكب متقابلين بالنسبة إلى الشمس وتمر بنهاية صغرى عندما يكونان على خط واحد وفي ناحية واحدة بالنسبة إلى الشمس .

هذه خلاصة ماعثرت عليه من ملاحظات عند تصفحي لهذا الكتاب القيم ، وربما كان ثمة ملاحظات غيرها لاتظهر إلا بعد دراسة بطيئة أكثر تفحصاً وتدقيقاً . وعلى كل حال فإني أرجو ان يطبع الكتاب والموسوعة كلها طبعة جديدة تصحح فيها الأخطاء حتى تتم الفائدة المرجوة منه لشدة حاجة القارئ العربي إلى هذا النوع من المراجع العلمية المبسطة .

وجيه السمان



ديوان أبي الفتح البستيّ

الدكتور شاكر الفحام

- ١ -

أبو الفتح عليّ بن محمد (أو أحمد) البستيُّ ، من شعراء القرن الرابع الهجريّ وكتّابه[١] . ولد بمدينة بُسْت (وهي بضم الباء وسكون السين)[٢] فعرف بها وشهر بنسبته اليها . وتقع بُسْت بين سجستان وغزنين (غزنة) وهراة ، على ضفة نهر هندمند (هلمند)[٣] . وصفها الجغرافيون والرحالة العرب فعدّدوا مزاياها ، وتحدثوا عن خصب أراضيها وكثرة خيراتها وسعة متنزهاتها وبساتينها . وموقعُها اليوم في الجمهورية الأفغانية الى الغرب من مدينة قندهار[٤] منحرفة بجنوب ، وهي أقل شأناً ومكانة مما كانت عليه في عصور العربية والاسلام الزاهرة[٥] .

ويذكر أبو الفتح البستيُّ في شعره أنه ينتمي الى الغطاريف من قريش ، فآباؤه يتحدرون من أرومة عبد شمس بن عبد مناف السادة النجب ، وأعمامه إخوتُهم الأمجاد من هاشم بن عبد مناف آباء الخلائف ، أما أخواله فيمانون من بني عبد المدان السَّراة الأشراف ، بيت مذحج وأخوال أبي العباس السفاح :

أنا العبدُ ترفعني نسبتي ... الى عبد شمس قريع الزمان
وعمي شمسُ العلا هاشمٌ ... وخالي من رهط عبد المدان[٦]

ـ ترجم القدماءُ لأبي الفتح البستيّ في كتبهم[٧] ، واختاروا من أشعاره ورسائله[٨] ، وموجزُ ما قالوه في سيرته أنه نشأ في مدينة بُسْت[٩] ، وتأدب على علمائها ، وأكثر الأخذ عن علامة عصره أبي حاتم محمد بن حبان البستي[١٠] الذي كان قد خرج من نيسابور سنة أربعين وثلاث مئة لينصرف الى وطنه بست يدرّس ويفيد بعلومه حتى توفي ببلدته سنة ٣٥٤ هـ ، وسمع أبو الفتح من أصحاب علي بن عبد العزيز وأقرانه[١١] ، ودَرَس « وسمع الكثير » ومهر في العلوم التي عرفها عصره ، ونبغ في الكتابة والشعر حتى قالوا في حقه : « هو أديب زمانه » « وهو أوحد عصره في الفضل والعلم والشعر والكتابة » و « كان شاعراً مجيداً يقصد التطابق والتجانس في شعره » ، « ورأيته يغرف في الأدب من البحر ، وكأنما يُوحَى اليه في النظم والنثر ، مع ضربه في سائر العلوم بالسهم الفائز ، وأخذه منها بالحظ الوافر » . وقد تجلّت في كتابته وفي منظومه آثار ثقافات عصره التي لقفها ووعاها : منطقاً وفقهاً وتفسيراً ونحواً وتنجيماً وفلسفة وحكمة . وذكروا من مؤلفاته : شرح مختصر الجويني في الفروع (فروع الشافعية)[١٢] .

زار أبو الفتح مدينة نيسابور الشهيرة غير مرة ، وكانت غاصّةً بعلمائها وفقهائها ، فقرأ وأفاد حتى أقروا له بالفضل[١٣] . ومن كبار العلماء الذين قرؤوا على أبي الفتح ورووا عنه أبو عبد الله الحاكم النيسابوري وابو عثمان الصابوني والحسين بن علي البرديمي[١٤] . وأحبَّ ابو الفتح نيسابور التي أحبته وأثنى على أهل الفضل فيها :

بنيسابور ساداتٌ كرامٌ ترى أحلامَهم أحلامَ عادِ
اذا بدؤوا بخيرٍ تمَّمُوه وعادوا بعده أحلى معاد[١٥]

وردَّد أبو الفتح مدح نيسابور والاشادة برجالها الكرام :

لله نيسابور من حلَّه ما مثلها دارٌ ولا حلَّه
للخير والمير بها كثرةٌ والشرُّ والضير بها قِلَّه[١٦]

لقي أبو الفتح أبا منصور الثعالبيَّ صاحب يتيمة الدهر في قدماته الثلاث نيسابور تجمعهما لحمةُ الأدب التي هي أقوى من قرابة النسب[١٧] . وتغنّى ابو الفتح بصداقة الثعالبي ، ومما قاله فيه :

قلبي مقيم بنيسابور عند أخٍ ما مثله حين تُستقرى البلادُ أخُ
له صحائف أخلاقٍ مهذبةٍ منها العلا والنهى والمجد تنتسخُ[١٨]

وكان من أصدقاء أبي الفتح البستي بلديُّه الامام ابو سليمان حمد بن محمد الخطابي البستيّ صاحب غريب الحديث[١٩] ، والأديب الكاتب مؤرخ الدولة الغزنوية أبو نصر العتبي صاحب اليميني ، وقد مدحه ابو الفتح وبالغ في الثناء عليه[٢٠] . ونعم ابو الفتح بصداقة اخوانه وخلصانه ، كان يأسرهم بشمائله ومناقبه ، ويبهرهم ببراعته وبلاغته ، ولعل أبا روح ظفر بن عبد الله الهروي قد عبرّ فأحسن التعبير عن مشاعر الاصدقاء المحبين المحيطين بأبي الفتح حين قال :

بأبي وأمي مَنْ شمائلهُ ريحُ الشمال تنفَّست سحرا
واذا امتطى قلماً أناملُه سَحَرَ العقولَ به وما سحرا[٢١]

أُولع أبو الفتح بالبديع في شعره ، وأَوْلَى الجناسَ عنايةً خاصة ، واستفرغ فيه جهده ، حتى إنه أبدع منه ألواناً عرف بها ، وحاكاه فيها شعراء عصره ، ينهجون نهجه ويقتفون اثره ، وقد أدى هذا التلاقي

والتوافق أن تختلط جملةٌ من أشعارهم تنسبها عدةٌ من الكتب لأبي الفتح ، وتنسبها كتب أخرى الى سواه من شعراء عصره . وقد أشاء النقاد والبلاغيون بطريقة ابي الفتح في الصنعة والتجنيس البديع ، ويروي لنا الثعالبي السبب الداعي الذي حرك ابا الفتح البستي لنهج طريقته في التجنيس قال : « سمعتُ أبا الفتح يقول : لما أنشدني شعبة [بن عبد الملك البستي] قوله :

فديتُ مَنْ زارني على حَذَرِ من الأعادي وقلبُه يَجِبُ
فلو خلعتُ الدنيا عليه لما قضيتُ من حقه الذي يجبُ

استحسنته وانا إذ ذاك في زمان الصبا ، فأخذتُ نفسي بسلوك طريقته في المتشابه[٢٢] ، حتى قلت ما قلت[٢٣] » .

بدأ أبو الفتح حياته مؤدبا[٢٤] ، ثم ارتقت به الحال فأصبح كاتباً لباي توز صاحب بست ، ولما آلت بست الى ملك أبي منصور سبكتكين سيد غزنة ، وكان ذلك في حدود سنة ٣٦٦ هـ ضمَّه اليه وأدناه[٢٥] ، وظلَّ البستيُّ في صحبته ، يشيد بفتوحاته ومآثره « وصار ينظم بأقلامه منثور الآثار عن حسامه ، وينسج بعباراته وشائع فتوحه ومقاماته »[٢٦] ، حتى مضى سبكتكين لسبيله سنة ٣٨٧ هـ ، ونهض بأعباء الملك بعده ابنه محمود بن سبكتكين ، بعد نزاع قصير بين الأخوين محمود واسماعيل ابني سبكتكين ، فانضمَّ اليه البستيُّ « وكان كاتب السلطان محمود مدة » ، « وكتب له عدة فتوح »[٢٧] . ثم أُقصي الشاعرُ الكاتب الأديب ليقضي بقية أيامه نائياً غريباً في ديار الترك ، لم تشفع له خدماته ، وماضيات أيامه ، ولم ينفعه استعطافه السلطان ضارعاً اليه متذللا :

ولقد جمعتُ من الذنوب فنونَها فاجمع من العفو الكريم فنونَه[٢٨]

وتلتوي عباراتُ مترجمي أبي الفتح في بيان سبب هذا الإقصاء ودواعيه ، ومتى تمَّ ، تأتمُّ كلها بعبارة العتبيّ الغامضة في كتاب اليمينيّ إذ قال يصف مادهاه أيام السلطان[٢٩] محمود بن سبكتكين : « الى أن زحزحه القضاء عن خدمته ، ونبذه الى ديار الترك من غير قصده وإرادته ، فمات بها غريبا ، ولم يجد من مساعدة الزمان نصيبا »[٣٠] . أيكون البستيُّ قد تورَّط فأقحم نفسه في النزاع الناشب بين السلطان محمود الغزنوي وايلك خان ، ومال بهواه الى الترك القادمين من الشرق يبتغي الحظوة لديهم ؟ لانملك من الأدلة ما يكشف لنا قناع هذه الفترة الغامضة من تاريخ حياته ، وأوضح ما نلقاه في هذا الصدد كلمة البيهقي : « ثم اتفق له مفارقة خراسان مع الخاقانية ، وتوفي بما وراء النهر »[٣١] . بل إن في ديوان أبي الفتح أبياتاً تشي برضاه في بادئ الأمر عن هذا الانتقال الى ما وراء النهر ، قبل ان يدركه الندم على ما فَرَطَ منه ، ولات حين مندم :

للناسِ في أُخْراهُمُ جَنَّةٌ ... وجنَّةُ الدنيا سَمَرْقَنْدُ
يامَنْ يساوي أرضَ بَلْخٍ بها ... هل يستوي الحنظَلُ والقَنْدُ[٣٢]

ولكن متى تمت هذه النقلة الى ديار الترك ؟ لا نجد إشارة الى ذلك في كتب المتقدمين الذين ترجموا لأبي الفتح وعُنُوا بسرد أخباره ، على أننا نستطيع أن نرجح أن ذلك قد تمَّ بعد سنة ٣٩٥ هـ ، فقد ذكر الذاكرون أن محموداً الغزنوي غزا مدينة بهاطية من أعمال الهند ، وهي وراء المولتان سنة ٣٩٥ هـ ، واستولى عليها ، فلما عاد الى غزنة لقي في عوده شدة شديدة من الأمطار وكثرتها وزيادة الأنهار ، فقال أبو الفتح البستي في ذلك :

ألا أبلغ السلطان عني نصيحةً ... يُشَيِّعُها ودٌّ ورأيٌ محنَّكُ

تجاوزتَ أوجَ الشمسِ عزاً ورفعةً وذلّلتَ قسراً كلَّ مَنْ قد تملكوا
فما حركاتٌ متعباتٌ تُديمها تأنَّ فأوجُ الشمس لا يتحرَّكُ[٣٣]

ومثلُ هذا الترجيح تعزّزه أحداثُ التاريخ ، فالخلاف بين محمود الغزنوي سيد خراسان وايلك خان سيد بلاد ما وراء النهر قد ذرَّ قرنُه عام ٣٩٦ هـ ، حين عبر عسكر ايلك خان الى خراسان ، وكانت حروب ومنازعات استمرت عامي ٣٩٦ هـ و ٣٩٧ هـ خُتم النصر فيها ليمين الدولة محمود الغزنوي ، وسلمت له خراسان ، وأكثر الشعراءُ تهنئته بهذا الفتح[٣٤] . فلعل أبا الفتح ، لأسباب نجهلها ، آثر الانحياز إلى فريق أيلك خان وكان يظن أنه الفائز المنتصر ، فلما نكص ايلك خان على عقبيه عاد معه الى بلاد ما وراء النهر ليلقى الغربة ، ويتجرع غصص فراق الأحبة ويذوق مرارة البعد عن الأوطان .

وظلّ أبو الفتح في منفاه بالبلد البعيد النازح ، لا ينتفع بعيشه ، ولا يسلو أحبته ، يبكي غربته ويشكو تشرده ، ويذكر بالأسى مرابع صباه ومعاهد شبيبته ، قد فقد أصدقاءه وعارفيه ، ينادي بأرفع صوته فلا يجد المسعف ولا يلقى المستجيب . وعانى ابو الفتح ما عانى ، وأقام مفرداً كئيباً يتحسَّرُ على ما كان فيه من نعمة ، ويأسى على ما آل اليه من شقاء فيتمتم :

كنتُ في نعمةٍ وظلٍّ رخاءٍ ونسيم من النعيم رخاءِ
فاتبعتُ الهوى وخالفتُ رأيي واتباعُ الهوى وبيءُ الهواءِ

ويقول :

أراح اللهُ قلبي من زمانٍ مَحَتْ يدُه سروري بالإساءه

فـإن حَمِـدَ الكريمُ صبـاحَ يـومٍ وأنّى ذاك لم يَحْمَـدْ مَسَـاءَه[٣٥]

وطـال شقـاء الغريب النـازح يؤرقـه الحنين ويرمضـه الشوقُ حتى وافتـه منيته في بخارى (أو أوزكند) سنة ٤٠٠ هـ (ويزحزحها بعض مترجميه الى سنة ٤٠١ هـ أو سنة ٤٠٢ هـ) . قال المنيني شارح اليميني : « وقبره بها معروف »[٣٦] .

- لم يذكر أحد من مترجمي ابي الفتح سنَّه حين وفاتـه ، ولم نجد في شعره إلا إشارات عامة لا تنبئ باليقين القاطع من عمره ، من مثل قولـه وقد بلغ الخمسين :

خمسـون عـامـاً كنتُ أمَّلتُهـا كانت أمـامي ثم خلَّفتُهـا
كنز حيـاةٍ لي أنفقتُـه على تصـاريفَ تصرَّفتُها
لـو كان عمري مِئَـةً هـدَّني تـذكُّري أنّي تنصَّفْتُها[٣٧]

ومثل قوله وقد وَخَطَه الشيبُ :

يـاشيبتي دومي ولا تترحلي وتيقَّني أني بـوصلـك مـولـعُ
قـد كنتُ أجزعُ من حلولـك مرةً والآن من خوف الترحل أجزعُ[٣٨]

لعل خير ما أختم به هذه الترجمة الموجزة كلمةُ عمران بن موسى الطولقي في أبي الفتـح البستي ، وكان معجباً بطريقتـه في التجنيس ، فـأشاد بـه ورفع من قدره ، وتغنى ببلده بست التي أنجبته ، قال :

اذا قيـل : أيُّ الأرض في النـاس زينـةً
أجبنـا وقلنـا : أبهـجُ الأرض بُسْتُهـا
فلـو أنني أدركتُ يـومـاً عميـدَهـا لزمتُ يدَ البستيّ دهراً وبُسْتُها[٣٩]

- ٢ -

ديوان أبي الفتح :

يقول عبد الغافر في ترجمة أبي الفتح البستي : « وديوانه مشهور معروف » ويقول السمعاني متحدثاً عن أبي الفتح : « وشعره مدوّنٌ مشهور »[٤٠] ، ويقول ابن الجوزي : « وقد انتقيتُ من جميع ديوانه أبياتاً مستحسنة فرتبتُها على حروف المعجم »[٤١] ، ويقول ابن خلكان : « ورأيتُ في أول ديوانه أنه ابو الفتح علي بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز الكاتب الشاعر »[٤٢] ، ويقول ابن كثير : « وله ديوان جيد قويّ »[٤٣] ، ويقول صاحب اللباب : « صدر الأفاضل والكتّاب أبو الفتح البستي صاحب التحسين والبلاغة .... من الشعراء ذوي اللسانين ، وله ديوانان أحدهما بالعربية والثاني بالفارسية »[٤٤] . ولم يحدثنا أحد عمن نهض بجمع ديوان أبي الفتح وترتيبه[٤٥] . وتدلّ اختيارات الصفدي في الوافي بالوفيات أنه ينتقي من ديوان لأبي الفتح مرتب على حروف المعجم .

- وقد مثل ديوان أبي الفتح البستي في العصر الحاضر مطبوعاً مرتين :

المرة الأولى - وتمت في بيروت بمطبعة ثمرات الفنون غرة شهر رمضان سنة ١٢٩٤ هـ (١٨٧٧ م) ، فجاء الديوان في خمس وثمانين صفحة ، وقد نسقت قوافيه على ترتيب حروف المعجم ، مع اضطراب يسير في قوافي الميم والنون .

المرة الثانية - وتمت في بيروت ايضاً بمطبعة دار الأندلس (كانون الثاني ١٩٨٠ م) ، وقد نسقت قوافي الديوان على ترتيب حروف المعجم ،

وشفعه محققه الدكتور محمد مرسي الخولي بلحقٍ ضمَّ الزيادات التي عثر عليها متناثرة في كتب الأدب والتراجم والمحاضرات ، فجاء في ثلاثٍ وستين ومئة صفحة (ص : ٢١٥ ـ ٣٧٧) ، وكان الديوان جزءاً من كتابٍ أصدره المحقق بعنوان (ابو الفتح البستي ، حياته وشعره) وهو الرسالة التي تقدم بها الأستاذ الخولي لنيل درجة الماجستير (التبريز) في الآداب . ولعله يحسن ان نوازن بين الطبعتين ونحن نقوّم عمل الأستاذ الخولي ، فتلك الموازنة جزء من التقويم الذي قصدنا إليه .

ديوان البستي بطبعته الأولى :

أشرف على تصحيح الديوان إبراهيم بن علي الأحدب الطرابلسي الذي اجتهد وجهد لإصابة الصواب ، كما جاء في كلمة الختام . وقد احتفى المصحح بديوان أبي الفتح شيخ بست فنظم أبياتاً ثمانية أرَّخ في آخرها لسنة صدور الديوان على عادتهم في ذلك العصر :

فلهذا نادى يراعي أرّخْ إن شعر البستيّ وافٍ بطبعِ

(إن = ٥١ ، شعر = ٥٧٠ ، البستي = ٥٠٣ ، وافٍ = ٨٧ ، بطبع = ٨٣) ، (٥١ + ٥٧٠ + ٥٠٣ + ٨٧ + ٨٣ = ١٢٩٤ هـ) .

وابراهيم بن علي الأحدب الطرابلسي (١٢٤٠ ـ ١٣٠٨ هـ) أديب شاعر ، له تآليف حسان ، وثلاثة دواوين شعرية[٤٦] . ولكنه لم يعلّق على ديوان أبي الفتح البستي الذي أشرف على طبعه بشيء ، ولم يذكر شيئاً من أنباء المخطوطة التي اعتمدها ، واكتفى بأن قال في المقدمة (ص : ٢ ـ ٣) : « أما بعد ، فلما كان ديوان الأديب الكاتب أبي الفتح علي بن محمد البستي[٤٧] صاحب الطريقة الأنيقة في صناعة التجنيس

البديع ديواناً عزيز الوجود ، حتى كأنه مفقود ، وقد اشتمل على نكت لطيفة ، ونوادر شريفة ، ومعانٍ غريبة ، ومقاصِد عجيبة ، رغبنا في طبعه ، هديةً لفريق الأدب ، الذين يَنْسِلُون الى اقتناص أوابده من كل حَدَب ، ليُقْتَفَى أثره في تلك الصناعة ، ويَعلم ماله فيها من البلاغة والبراعة . وقد ذكره الثعالبي في يتيمته ، وبالغ في الثناء عليه .... وقد وجدنا ديوانه مرتباً على حروف المعجم ، لكن بدون ديباجة فطبعناه كما وجدناه » . وقد بيَّن الدكتور محمد مرسي الخولي في دراسته أن المخطوطة التي طبع عنها الديوان طبعته الأولى ببيروت موجودةً اليوم في جامعة برنستون بالولايات المتحدة الامريكية ، وكانت ملكاً لأسرة البارودي ببيروت ، فتسللت الى جامعة برنستون عام ١٩٢٥[٤٨]

ـ أكثر ديوان أبي الفتح نُتَفٌ ومقطعات وأبيات يتيمة ، وتقلُّ فيه القصائد[٤٩] . وبلغ مجموع ذلك كله (٣٩٩)[٥٠] ، مقدار أبياتها كلها نحو (١١٤١) بيت .

وبدا للأدباء أن الديوان لا يجمع شعر البستي كله . يقول الزركلي في ترجمة البستي : « له ديوان شعر مطبوع ، صغير ، فيه بعض شعره ، وفي كتب الأدب كثير من نظمه غير مدوَّن »[٥١] . وكان لابدّ من محاولة جادة لطبع الديوان طبعة ثانية تجمع شعر الشاعر كلَّه أو جُلَّه .

ديوان البستي بطبعته الثانية :

وهذه الطبعة كانت جزءاً متماً لدراسة الشاعر التي نهض بعبئها الدكتور محمد مُرسي الخولي (١٩٣٠ ـ ١٩٨٢ م) أفاض الله عليه سحائب رضوانه[٥٢] ، وقد اعتمد في طبع الديوان نسختين خطيتين : احداهما نسخة برنستون التي رجح أنها الأصل لطبعة بيروت الأولى لتماثلهما ، والثانية

نسخة احمد الثالث باصطنبول ، والتي وجدها أكمل من الاولى فاعتمدها أصلاً ، ثم ضمّ الى الديوان لحقاً جمع فيه المتناثر من شعر البستي في كتب الأدب . وقد بدا لي أن أُحصي زيادات نسخة الديوان المتخذة أصلاً (نسخة احمد الثالث) على سابقتها (نسخة برنستون) فوجدتها (١٥٢) بيت موزعة على القوافي(٥٣) (الباء / أحد عشر بيتاً ، التاء / عشرة أبيات ، الثاء / بيتان ، الحاء / بيتان ، السين / ثلاثة أبيات ، الفاء / ثلاثة أبيات ، الكاف / بيت واحد ، اللام / أربعة أبيات ، الميم / أربعة أبيات ، النون / واحد وستون بيتا ، الهاء / خمسة وثلاثون بيتا ، الياء / ستة عشر بيتا) ، وهذا القدر من الأبيات (١٥٢) هو هو الذي أشار اليه الأستاذ المحقق الدكتور الخولي بقوله : « ولقد بلغت الإضافات في النسخة الكاملة [يعني نسخة احمد الثالث] خمسين مقطوعة عدتها مائة واثنان وخمسون بيتا »(٥٤) . وبديه أن تكون عدة أبيات الديوان في نسخة أحمد الثالث (١١٤١ + ١٥٢ = ١٢٩٣ بيت) ، ولكن الذي يفاجئك أن الديوان الذي حققه الدكتور الخولي معتمداً فيه نسخة أحمد الثالث لا يضم إلا (١٢٧٢ بيت) ، فهو يقل (٢١) بيتاً عما قدرنا له . وسببُ ذلك فيما يبدو لي يعود الى المطبعة ، فقد أُسقطت عدة أبيات ونتف ومقطعات مما ضمّه الديوان بطبعته الأولى ، وقد رأيتُ أن أورد ما سقط ليثبته في مواضعه من كان بحوزته الديوان الجديد ، بعد أن أصبح الديوان بطبعته الأولى عزيز المنال نادر الوجود .

وقال (ديوان أبي الفتح البستي : ١٩) :

قامت تريد الرواح وهنا ... فقلتُ : خلّي روحي وروحي
ولا تعوجي من بعد ولي ... لتنشئي ذا ريح وروح

فـإن أتـاك النـاعي بيـومي كـدأب مـوسى نـوحي ونـوحِ
وحققي بعـد مـوت بعـدي كل فصيـح معـاً فصيحي

قد فصل في هذا البيت [يعني البيت الأخير] بين المضاف والمضاف اليه بقوله : بعدي ، ثم فيه تقديم وتأخير ، والأصل : وحققي بعد موت كل فصيح بعدي اهـ[55] .

وقال (ديوان ابي الفتح البستي : ٢٢) :

إن المـودَّة حـدُّهـا من غير نقص أو زيـاده
عقـدٌ من الآمـال والـ آجـال تنظمـه القـلاده

وقال (ديوان أبي الفتح البستي : ٢٦) :

رأيتُ النـاس من يحسن اليهم ويـأمن مكرهم فهـو السعيـدُ
وذاك لأن شرهم قريبٌ وخيرهم ، اذا اختبروا ، بعيـدُ
اذا بـدؤوا بظلم تمَّمُـوه ولم يرضـوا بـه حتى يعيـدوا
وإمـا أومضـوا يـومـاً بـوعـدٍ فـوعـدُهُمُ اذا امتحنـوا وعيـدُ

وقال (ديوان أبي الفتح البستي : ٣٣) :

يـا من تبجح بـالـدنيا وزخرفها كن من صروف لياليها على حَذَرِ
ولا يغرّك عيشٌ إن صفـا وعفـا فـالمرءُ من غرر الأيـام في غرر
إن الـزمـان كما جربت خلقتـه مقسَّم الأمر بين الصفـوِ والكَـدَرِ

وهذه المقطوعة رواها الأستاذ الخولي ولكن سقط منها البيت الثالث (ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢٥٦) ، وكذا الحال في المقطوعة (ديوان ابي الفتح البستي : ٣٨) :

قل للـذي غرّه عـزٌّ وسـاعـده   فيما يحـاولُـه نقضٌ وإمرارُ
لا تفتخر بغنىً أمطيت كاهلـه   فإن اصلـك يـا فَخّـارُ فَخّـارُ
هـذا ولكن من الغـدار يـألفـه   يكون وهـو من الإقبـال إدبـارُ[56]

فقد سقط منها البيت الثالث ايضا (ابو الفتح البستي ، حياتـه وشعره : ٢٦٢) .

وقال (ديوان ابي الفتح البستي : ٣٩) :

وليـلٍ كأصـداغ الحبيب قطعتـه   بـوردٍ كخـديـه وجـام عُقـار
وأنجمـه تبـدو كأعشـار عسجـدٍ   تضمنـه في الجـو جـامـعُ قـارِي

وقال (ديوان أبي الفتح البستي : ٤٩) :

ثاني الحروف من اسم من أنا عبده   جـذرٌ لأولـه بغير خـلافِ
وكـذاك ثـالثُهـا لضعف أخيرهـا   جـذر وهـذا في الـدلالـة كافي[57]

وقال (ديوان أبي الفتح البستي : ٨١ ـ ٨٢) :

اسم الـذي أنـا طـائعـاً أفـديـه   خـافٍ ولكن فطنتي تُبـديـه
مقـدار ثـالثـه اذا حصلتـه   مضروب حـاشيتيـه في ثـانيـه

وقال (ديوان أبي الفتح البستي : ٨٤) :

لا تجـزعنّ لـدارٍ أقفرت وخلت   فليس في طبعهـا إلا أواريُّ
فـالعزُّ والمال والأهلون قـاطبـة   والعمر في هـذه الـدنيـا عواريُّ
وفي النطـاف التي يسخـو الـزمـانُ بهـا
لمن تبصَّر رشـدا وارعـوى ريُّ

ومما يرجح عندي أن المطبعة قـد أفسـدت على الأستـاذ الخولي بعض

صنيعه ما تراه من اختلاط بيتين مكسوري الروي ببيتين مرفوعي الروي دون فاصل (ص ٣٠٧) ، او أن يأتي بكلمة (قال) ويذكر بحر البيتين ، ويخرجها ، ثم لايأتي بها (ص ٣٢٠ هـ ١) ، أو يأتي ببيت ويسقط أخاه ، ثم تجد في الهامش من الشروح ما ينبئ بالبيت المفقود (ص ٣٤٠ ، الرقم ٣٠) ، أو تجد الأبيات دون مقدمتها (ص ٣٦٤ ، الرقم ١٠٥) ، أو تجد التعليق في غير موضعه (ص ٢٩٣ هـ ١ ، ص ٢٩٥ هـ ٢) . وبسبب من هذا كله نجد أن الخطأ يمور في الديوان فيفسد المعنى حيناً ، ويكسر الوزن تارة كقوله (ص ٢٤٤)

لكل امرئ منا نفوسٌ ثلاثة ... يُعارضُ بعضاً بعضُها بالمقاصِدِ

فقد أخلَّ الطابعُ بترتيب الكلمات في الشطر الثاني فأفسد الوزن ، وقوله (ص ٢٤٥) :

وإن أردتَ أماناً من غوائله ... فلا تعرّفه من أبنائه أحدا

فقد حرّفت المطبعة (أماناً) لتصبح (إماماً) . وقوله (ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣) :

قلتُ إذ مات ناصر الدين والدنـ ... ـيا حَبَاهُ إلاهُه بالكرامَهْ

فقد صحفت (حباه) وهي بباء موحدة تحتية الى (حياه) بياء مثناة تحتية مشددة ، فأخلّت بوزن البيت ، وقوله (ص : ٣٤١) :

سبحان من سخّر الأقوام بعضهم

بالبعض حتى استوى التدبيرُ واطّردا

فقد سقطت كلمة (بالبعض) من أول العجز فأوجبت الخلل في البيت . وهكذا تطالعك الأغلاط أنّى توجهت ، والشواهدُ في ذلك لا حصر لها

ولا عَدّ (فكأنني بدل فكأني ، فإنني بدل فإني ، مكبب بدل مُكبّ ، ونزل السقاةُ دنانهم فكأنما نزلت لنا بدل بَزَل السقاةُ دِنانَهم فكأنما بُزِلَتْ لنا ، سبحانه خالق بدل سبحانَ خالقِ ، ما عُمّرت فيه بدل ما عمّرت في ، مفنون (بنونين) بدل مفتون ، بالتاء والنون ، اسم مفعول مشتق من فتن ، .....) (ص : ٢٢٢ ، ٢٢٤ ، ٢٩٥ ، ٣٠٧ ، ٣٣٣ ، ٣٧٤) .

فاذا أضفت الى ذلك عبث الطباعة بالأرقام المسرودة لم يبق لك أن تطمئن الى رقم حتى تعود محققا ومصححا . إذا رَجَعَك المحقق (ص ٢٢٥) الى شرح المنيني على اليميني (٢ / ٨) وجدت أن الصواب هو (٢ / ١٧) ، واذا أحالك (ص ٢٦٦) الى تاريخ العتبي (١ / ١١٥) كان عليك أن تبذل الجهد لتعلم ان الرقم الصحيح هو (١ / ١٥٥) ، وكذا الأمر اذا وقفك (ص ٣٠٢) على تاريخ العتبي (١ / ٢٥٦) فأنت مضطر أن تصحح ذلك لتجعله (١ / ٢٦٠) ، وهكذا دواليك . وثالثة الأثافي الخطأ في الضبط الذي استفاض في الديوان ، يصبح به المرفوع منصوباً أو مجرورا ، ويغدو المنصوب مرفوعا أو مجرورا وهكذا . إنها جناية المطبعة العربية لا يكاد ينجو من براثنها ناج .

أما النهج الذي اتبعه الدكتور الخولي في تحقيق الديوان فقد بيّنه بقوله : « اعتمدت في تحقيق الديوان على نسخة أحمد الثالث الكاملة ، وأشرتُ اليها في التعليقات بالرمز (أ) ، مع الاستئناس بالنسخة الأخرى [نسخة برنستون] وأشرتُ اليها بالرمز (س) ، أما المطبوعة فلم أرمز إليها بشيء ، وقد بينتُ الفروق دائماً بين هذه النسخ الثلاث في هامش الصفحات . ثم نظرتُ بعد ذلك في كتب الأدب المختلفة منذ القرن الرابع الذي عاش فيه البستي حتى القرن الحادي عشر الهجري ، فجمعتُ منها

ماعثرتُ عليه من شعر البستي ، وقد كان من أهم هذه الكتب كتب أبي منصور الثعالبي معاصره وصديقه ، فلم أترك منها مخطوطاً أو مطبوعاً إلا اطلعت عليه . ثم كتب الموسوعات والمجاميع الأدبية والمختارات . وقد أمدتني هذه كلها بقدر كبير من شعر البستي ، فوثقت منها ما كان موجوداً بالديوان ، ووضعت بعضها في أماكنه من المقطوعات الناقصة منه بين معقوفين ، ثم أفردتُ الزائد على ذلك في ملحق خاص في آخر الديوان »[٥٨] .

ويضمُّ الملحق الذي أشار اليه الخولي نحو مئة وخمس واربعين مقطوعة عدتها تقرب من أربع مئةِ بيتٍ لم ترد في نسخ الديوان[٥٩] .

ـ خرّج الدكتور الخولي أبيات الديوان في مصادر التراث وبيّن ما ترجّحت نسبته في هذه المصادر بين البستيّ وسواه من شعراء عصره . وما أكثر ما اختلطت أشعار البستيّ بأشعار أصحابه ممن نهجوا نهجه في التجنيس ولا سيا أبو الفضل الميكالي . وقد عاد المحقق الى نحوٍ من خمسين مصدراً ما بين مطبوع ومخطوط يستعينها في التخريج ، وفي تبيان تلك الأبيات المشتركة النسبة بين البستي وغيره من الشعراء في كتب الأدب[٦٠] . وبديه أن كتب التراث التي ضمَّت شعر البستي لاعدَّ لها لسعة الخزانة العربية ، فلا يقوى أحد مهما علت همته أن يحيط بها ، أو يتتبع أشعار البستي المنثورة فيها . ومن هنا فاني أرى أن أولّ ما يجب أن يُعنى به جامعُ شعر البستيِّ أن يستقصي ما ورد من أشعاره في الكتب التي تدنو من عصر الشاعر ، فيجعل همَّه ووكده تتبع المصادر الأولى ، ويبذل جهده للاحاطة بها في نطاق المستطاع الممكن ، دون أن يغضّ الطرف عما جاء في الكتب الأخرى التي في طوقه وقدرته أن يعود اليها ، يضم الى ذلك

التعرف الى الكتب التي تفردت برواية أبيات للشاعر ، لا تعضدها في ذلك كتب أخرى ، فهذه لها مكانتها وقيمتها في جمع الشعر وتدوينه .

وقد وفّر الدكتور الخولي لعمله أسباب النجاح « ثم نظرت بعد ذلك في كتب الأدب المختلفة منذ القرن الرابع .... » ، وأسرع فأقول إن ما اطلع عليه الدكتور الخولي من الكتب لجمع أشعار البستي ليس بالقليل ، ولكن ما فاته الاطلاع عليه من الكتب ليس بالشيء القليل ايضا ، فالخزانة العربية أكبر من أن يحاط بها ، (ومن أدمن قرع الباب فتح له) . لا أحب ان أكلف الدكتور الخولي شططا ، فقد تعب وتتبع وقدّم ثمرة جهوده وجنى كدّه ، وهو نتاج طيب يستحقّ عليه كل تقدير . ولكن لاحت لي في أثناء تصفحي الديوان أمور وددت لو خلا منها :

ـ أولها : أن المحقق تعهد أن يضم الى المقطوعات الناقصة ما يجده من تتمات ، فيلحقها بها مضمومة بين معقوفين « .... ووضعتُ بعضها في أماكنه من المقطوعات الناقصة فيه بين معقوفين ... » ولكنه لم يقو على الوفاء بما وعد ، فقد أورد الديوان قصيدة أبي الفتح في الاعتبار بوفاة ناصر الدين سبكتكين ، وذكر المحقق ورودها في تاريخ العتبي ، ثم نسي أن يورد بين حاصرتين بيتها الأخير الذي تفرد اليميني بروايته :

[كذلك يفعل بالشامتين ويفنيهم الدهرُ جيلاً فجيلا][٦١]

ـ ثانيها : أخذ المحقق نفسه بشرح ما غمض وإيضاح ما غُمَّ والتذكير بأحداث التاريخ وملابساتها[٦٢] ، ولكنه لم يوفق للصواب دائما . ومن أمثلة ذلك :

قوله (ص ٣٠٥) ان الخليفة القادر بالله (الذي تولى الخلافة

مـا بين ٣٨١ ـ ٤٢٢ هـ) قـد خلع على الأمير محمود بن سبكتكين لقب سيف الـدولـة حين انتصر على الخـارجين على الـدولـة السـامـانيـة سنـة ٣٨٣ هـ ، وقد جعل مرجعه في ذلـك تـاريخ العتبي . وتعود الى تـاريخ العتبي لتجده يفصح إفصاحاً مـا بعـده إفصـاح ان الامير الرضـا نوح بن منصور الساماني هو الـذي لقب الأمير سبكتكين بنـاصر الـدولـة ، ولقب ولده محموداً بسيف الدولـة . أمـا الخليفـة القـادر بـالله فقـد لقب محمود بن سبكتكين بيمين الدولة وأمين الملـة (اليميني ١ : ١٩٣ ، ٣١٧ ، الكامل لابن الأثير ٩ : ٤٢) . بـل ان المحقـق نفسـه كان قـد ذكر في مفتتـح كتـابـه (ص ١٤ ـ ١٥) أن نوح بن منصور هو الذي لقب محموداً بسيف الدولة .

وقوله (ص ٧٦ ، ٢٢٠) : الفارياب بلـدة ببلخ ، وهو أمر غريب ، فالفارياب بلد ، وبلخ بلد ، فـالفـاريـاب مـدينـة مشهورة بخراسـان من أعمـال جوزجـان قرب مـدينـة بلخ ، بينهما ست مراحل ، ولا يعقـل ان تكون مدينة الفارياب داخل مدينـة بلخ (معجم البلـدان ـ فـاريـاب ، بلدان الخلافة الشرقية : ٤٦٧ ، ٤٦٨) .

وقولـه (ص ٢٥٣) ان الكمر مفرده أكمر ، وهو تفسير غريب لم يقل بـه أحـد . فـالكمر (محركـة) جمـع مفرده كمرة بهـاء (القـامـوس المحيط ـ كمر) .

وقولـه (ص ٢٦٦) أن ابن سيجور هـو أبـو علي الحسن بن محمـد بن ابراهيم بن سيجـور ، وتعـود الى تـاريـخ العتبي (١ : ٥٠) والى الفتـح الـوهبي (١ : ٢٦٧) ، فتجـد أنـه أبـو علي محمـد بن محمـد بن ابراهيم بن سيجور .

- ثالثها : يبدو أن الجذاذات والأوراق قد ازدحمت على المحقق فاضطربت تعليقاته واختلطت ، وأخذ يضع الشيء في غير موضعه ، ويثبت مالا حقيقة له . من ذلك :

قوله (ص ٢٣١ هـ ٥) إن هذه المقطوعة وما بعدها من المقطوعات (ومجموع ذلك خمس مقطوعات) قد سقطت من المطبوعة ونسخة برنستون ، وتعود الى الديوان بطبعته الاولى (ص ١٣ - ١٤) لتجد أن ثنتين من هذه المقطوعات قد ثبتتا فيه .

وقوله (ص ٢٦٢ هـ ٣) ان الأبيات في المنتظم ، وتعود الى المنتظم لابن الجوزي فلا تجد شيئا . والبيتان المذكوران قد جاءا في يتيمة الدهر للثعالبي (٤ : ٣٢٦) ، وأسقط المحقق أخاهما البيت الثالث كما ذكرنا آنفا .

- ومثل هذا الاضطراب والخلط قد تفشّى في الكتاب كله دراسة وديوانا . يذكر مثلاً نسب البستي (ص ٣٩) ومرجعه فيه وفيات الأعيان ، وتعود لتتحقق فتجد أن ما ساقه من نسب مستمد من طبقات الشافعية للسبكي ووفيات الأعيان معاً ، قد مزج المحقق بينهما على غير علم منه .

وينقل (ص ٣٥٦) ترجمة الداوودي عن العتبي ، وتعود لتتبين أن الترجمة مأخوذة عن يتيمة الدهر للثعالبي (٤ : ٣٤٥)

ويخطئ في تخريج الروايات فينسب (ص ٣٤٤ هـ ٢) لتحفة الوزراء بعض ما جاء في العتبي ، وينسب (ص ٣٥٩ هـ ٢) لليتيمة بعض ما جاء في العتبي .

ويورد (ص ٣٢٤ ـ ٣٢٥) القصيدة التي مطلعها :

البين بيَّن أشجـــاني وأشجـــاني وبـلَّ بـالــدمـع أرداني وأرداني

ويذكر أنها لم ترد في المطبوعـة ، وكان يحسن ان يكون اكثر دقـة فيـذكر ان المطبـوعـة الاولى قـد اوردت منهـا (ص ٨١) بيتيهـا الأول والثـاني فقط .

ويخرّج بيتين (ص ٢٧٢ هـ ٦) في وفيـات الأعيـان ، وتعـود الى الوفيات فلا تجد لهما أثرا .

رابعهـا : التزم المحقــق أن يـــذكر اسم البحر في رأس كل قصيـــدة ومقطوعة ونتفة وبيت يتيم ، وهو أمر حسنٌ لابأس به . ولكن يفاجئـك المحقّق بخطئه حيناً في تسمية البحر . من ذلك قول البستي (ص ٢٧٦) :

رأي الإمـــــام أبي حنيفـــــة رأيٌ مســـالكُـــه لطيفَـــهْ

لكنَّ رأي الشـــــــافعيِّ (م) نتــــائــجُ السُّنَنِ الحنيفَـــهْ

فقد جعله المحقق من مخلع البسيط ، وانما هو من مجزوء الكامل .

كذلك فقد اضطرب عليـه الأمر حين جعل شطري بيت واحـدٍ من بحرين مختلفين ، وهو قولُ البستيّ (ص ١٩٤ ، ٢١٩) :

لم تر عيني كاتبـــــاً مثلــــــه لكل شيءٍ شــــأى وشـــــاءَ

فالشطر الأول من-السريع ، والثاني من مخلّع البسيط ، ولعل الصواب مـا جاء في طبعة الديوان الأولى (ص ٥) :

لم تر عيني كاتبـــــاً مثلــــــه لكل شيءٍ شــــاء وشّـــــاءَ

وهي رواية الوافي بالوفيات ، والأنيس في غرر التجنيس للثعالبي (ص ٤١٤) .

وأورد المحقق (ص ٢٦٩) قول أبي الفتح :

لاتَعْصِيَنْ شمسَ العـــلا قـــابــوســـا
فمن عصى قـــابـــوسَ لاقى بـــوســـا

فجعله من البسيط ، والصواب أنه من مشطور السريع أو مشطور الرجز ، أو من تامها والبيت مصرَّع .

وأورد (ص ٢٨٦) قولَ أبي الفتح :

مـــاذا عليـــه لـــو أبـــاح ريقـــه
لقلب صبٍّ يشتكي حريقـــه

وجعله سهواً من مجزوء الرجز .

وأورد (ص ٢٨٨ ـ ٢٨٩) بيتين جعلهما من السريع :

قـــل لمنى قلبيَ إسماعيـــلا أَنْعِمْ بنعم ودع لإسماعي لا
أشعلت حشاي بالجوى تشعيلا فارددْ رمقي فإنَّ صبري عِيلا

وليس البيتان من السريع ، والأول منهما قد حرّفه الناسخ ، ولعلَّ صوابه ما جاء في كتاب الأنيس في غرر التجنيس للثعالبي (ص ٤٥٣) :

قـــولا لمنى قلبيَ إسماعيـــلا أَنعِمْ بنَعَمْ أَطَلْتَ إسماعي لا

وقد علّق الأستاذ هلال ناجي محقق الأنيس بأن هذا البيت بهذه الرواية قد جاء ايضا في كتاب لمح الملح للحظيري (الورقة ١٥٢) . فاذا صحّ ذلك ، وأرجو ان يكون صحيحاً بعون الله وتوفيقه ، فإن البيتين رباعية (دو بيت)[٦٣] .

وذكر المحقق قول أبي الفتح (ص ٣٥١ رقم ٦٩) :

لايَسُوأنْك إن برا نيَ دَهْرٌ فلم يَرِشْ

فجعله من المجتث ، والصواب أنه من مجزوء الخفيف .

وأورد (ص ٣٦٠ رقم ٩٤) :

ما قضى الله كائنٌ لا محالَهْ والشَّقِيُّ الذميمُ من لام حالَهْ

فجعله من الرجز وهو من الخفيف

ـ خامسها : خرّج المحقّق أبيات الديوان ، وملحق الديوان في المصادر والمراجع التي اجتمعت له ، ولكنه لم يستوف كل ماجاء من أشعار البستي في هذه المصادر ، فأخلَّ بما كان تعهَّد به[٦٤] ، وخالف عن سُنّة التخريج التي تُلزمه باستيفاء جميع ماجاء في المصادر التي اعتمدها ورجع اليها ونقل عنها . والأمثلةُ في هذا الباب كثيرة كثيرة .

لم يخرّج بيتي أبي الفتح (ص ٢٣١) :

إذا دهى خطبٌ فآراؤه تُغْني عن الجيش وتسريبه

وهما في تحفة الوزراء (ص ٦٤) منسوبان لأبي الفتح ، وهما في زهر الآداب (٢ : ٢١٥) منسوبان الى أبي الفضل الميكالي .

أهمل (ص ٢٤١ هـ ٢ ، ص ٢٨٠ هـ ٣) التخريج في زهر الآداب (١ : ١٦٩ ، ١٨٥) .

ولم يخرج البيتين (ص ٢٦٨ هـ ٧) في زهر الآداب وهو من مصادره (ورد البيتان في زهر الآداب ٢ : ٢١٥ ، منسوبين الى أبي الفضل الميكالي) .

ذكر (ص ٢٦٩ هـ ١) أن البيت نسب في تـاريـخ العتبي الى أبي الفضـل الميكالي ، ونسي أن يضم الى ذلـك كتـاب زهر الآداب (٢ : ٧٧) .

ذكر (ص ٢٧٥ هـ ١) أن الأبيـات وردت في خـاص الخـاص (ص ٣٣) وتجاهل ورودها في خاص الخاص نفسه (ص ١٥٥) .

لم يخرج (ص ٢٧٩ هـ ٤ ، ص ٢٨٢ هـ ٥) في يتيمـة الـدهر (٤ : ٣٢٣ ، ٣٢٤) .

أهمـل (ص ٣٠١ هـ ١) أن يخرج البيتين في وفيـات الأعيـان (٦ : ٢٧٢ - ٢٧٣) .

لم يخرج بيتي أبي الفتح (ص ٣١١) :

إذا نَسِيَ النـاسُ إخـوانَهم وخـان المـودَّة خـوَّانُـهـا

وهما في يتيمة الدهر (٤ : ٣٢٠) .

أورد النتفة ٥٢ (ص ٣٤٧) ولم يخرّج بيتها الثاني في تحفة الوزراء وهو من مصادره (ورد البيت في التحفة : ٤٤ ، غير منسوب) .

لم يخرّج المقطوعة ٨٨ (ص ٣٥٨) في زهر الآداب (٤ : ٢٢) .

اورد النتفة ١٠٣ (ص ٣٦٣) ولم يذكر أنها وردت في خاص الخاص (ص ٦٢) .

- ثم هو لا يـدقّق في التخريج ، فـاذا ورد قول أبي الفتـح البستي في اليميني وفي شرحـه الفتح الوهبي ذكر المحقـق الشرح وتنـاسى الأصـل وهـو الأهمّ والمقدّم في الذكر لأنه من أقـدم المصـادر (ص ٢٢٥ ، ٢٥٥ ، ٣٦٤ ، ٣٧٤) .

ويرد بيتا أبي الفتح البستي في الفتح الوهبي دون اليميني فيسهو المحقق ويخرجهما (ص ٢٧١ هـ ٤) في اليميني ، وكـذلـك بيت أبي الفتح (ص ٢٣٦ هـ ٤) خرجه المحقق في اليميني وهو في الفتح الوهبي وتناسى تخريجه في زهر الآداب (١ : ٣١٥) .

ولئن التزم المنيني أن يعيد في كتاب الفتح الوهبي كل ما جاء في اليميني لأنه شرحه « شرحاً على طريقة الحلّ ، يكون جميعُ المتن فيه مدرجا »[٦٥] ، إني كنت أرجو للمحقق الدكتور الخولي (ولا أُلزمه) ألا يُسقط الفتح حين تعداد المراجع في التخريج ليكون أوضح للناشئة . وليته فعل .

وكان من آثار اهمال استقصاء شعر البستي في المصادر أن فات المحقق شعر لم يرد في الديوان فلم يتح له ضمُّه الى الملحق الذي أفرده في آخر الديوان .

ـ ورد في خاص الخاص (ص ١١٨) بيتان على الراء لم يذكرهما المحقق في قافية الراء (ص ٣٤٤ ـ ٣٥٠) .

ـ وورد في يتيمة الدهر (٤ : ٢٤٩) أبيات على القاف لم يذكرها المحقق في قافية القاف (ص ٣٥٧) ، ولكنه ذكرها في أثناء الدراسة (ص ٧٧) .

ـ وجاء في اليتيمة (٤ ـ ٢٤٨ ـ ٢٤٩) أبيات على اللام لم يذكرها المحقق في قافية اللام (ص ٣٥٩ ـ ٣٦٤) ولكنه ذكرها أيضا في أثناء الدراسة التي افتتح بها الكتاب (ص ٧٧) .

ـ وجاء في اليتيمة (٤ : ٣٢٢) والأنيس في غرر التجنيس

(ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤) ومعاهد التنصيص (٣ :٢٢٢) ثلاثة أبيات على اللام لم يذكرها المحقق في قافية اللام .

ـ وجاء في الأنيس في غرر التجنيس ، وهو من مصادرْ المحقق (ص ٤١٤ ، ٤٣٥ ، ٤٥٤ ـ ٤٥٥ ، ٤٥٩ ، ٤٦٢ ، ٤٦٦ ، ٤٧١ ، ٤٧٦) بيتان على النون ، وثلاثة أبيات على الطاء ، وبيتان على الباء ، وبيتان آخران على النون ، وبيتان على العين ، وبيت على الهاء ، وبيتان على اللام ، وبيتان على الراء ، لم تُذْكر في قوافيها في الملحق .

ـ ولقد بدا لي أن أتتبع مصدراً من مصادر المحقق التي اعتمدها فأتبين نسبة ما خرّجه من أبياته . فاخترتُ كتاب الأنيس في غرر التجنيس للثعالبي ، وهو كتاب قد حققه حديثاً الأستاذ هلال ناجي ونشره في مجلة المجمع العلمي العراقي (مج ٣٣ ج ١ ، ص : ٣٦٩ـ ٤٠١ مقدمة المحقق ، ثم النص ، ص : ٤٠٣ ـ ٤٨٠) . وكان الدكتور الخولي قد اعتمد مخطوطة من مخطوطاته لم يبين رقمها والخزانة المحفوظة فيها . وقد ظهر لي بعد التتبع أن الدكتور الخولي أهمل التخريج في كتاب الانيس في غرر التجنيس في نحو خمسٍ وسبعين مرة ، وأنه استقى منه ست مرات ، خمس منها لم يشر الثعالبي فيها إلى صاحب الأبيات ، وليس لدى الدكتور الخولي مصدر آخر يئل اليه غير الأنيس في غرر التجنيس ، فكيف تأتى له أن يثبت أن هذه الأبيات للبستي ؟ لاأدري ، إلا أن تكون المخطوطة التي استمدّ منها ، ولم يذكر شيئاً عنها ، تخالف المخطوطة المنشورة ببغداد .

ـ سادسها : لا يُعنى المحقق بتصحيح المصحّف والمحرّف من الأبيات ، من مثل قول البستي في الاعتذار (ص ٣٧٣) :

ولقد جمعتُ من العيوب فنونَها فاجمع من العفو الكريم فنونَهُ

فقد صحفت العيوب الى العيون في وفيات الأعيان ، فنقلها المحقق كما جاءت .

ـ كذلك فإنه يورد الرواية الملحونة لا يقف ليصححها كقول أبي الفتح (ص ٢٢٧) :

يا عائبَ الحبرِ والأقلام ما قدحت   زنادُ قولِك الا الافك والكذب

والبيت من مقطوعة مكسورة الرويّ ، والرواية الصحيحة جاءت في طبعة الديوان الأولى (ص ١١) :

ياعائبَ الحبرِ والأقلامِ ما قدحت   زنادُ قولِك غيرَ الإفكِ والكذبِ

ـ ومثل قول أبي الفتح في العتاب (ص ٢٣٥) :

نسخ المودَّة لا بأخرى مثلها   نسخ العتاب بسُنَّةٍ لم تثبُتِ

فالعتاب في البيت محرفة عن الكتاب (القرآن الكريم) ، وطالما أفاد ابو الفتح في أشعاره من مصطلح الفقهاء في كتبهم ومن مصطلح سواهم من أرباب العلوم الأخرى ، حتى أصبح ذلك سمةً بارزة من سمات شعره .

ـ ومثل قوله في الحكمة (ص ٢٣٦) :

فلا تعدنَّ حديثاً إنْ طبعهم   موكَّلٌ بمعاداة المعادات

وصحته : (فلا تُعِيدَنْ حديثاً) بنون التوكيد الخفيفة .

ـ ومثل قوله (ص ٣٤٥ رقم ٤٦) :

كم مذنبٍ قد ضاقني   فقرنته صفحاً وغفرا

نقل المحقق البيت كما جاء في المنتظم (٧ : ٧٣) ، ويبدو لي أن

التصحيف قد زحف الى كلمتين فيه ، صحتهما فيما أرجح (ضافني فقريته) ، ضافني بالفاء بدل القاف ، ومعنى ضافني : نزل بي وصار لي ضيفا ، وقريته ، من القِرَى . يقال : قرى الضيفَ يقريه قِرىً وقَراءً : أضافه .

- سابعها : التكرار ، يترجم المحقق لبعض رجالات العصر في موضع ، ثم يتناسى ذلك فيترجم له مرة ثانية ، أو ثانية وثالثة . فقد ترجم لسبكتكين في مطلع كتابه (ص ١٤ ـ ١٦) ثم ترجم له بايجاز في هامش (ص ٢٨٧) ، ثم عاد فترجم له في هامش ص (٢٩٠) .

وترجم للعتبي في هامش (ص ٢٨١) ثم عاد فترجم له في هامش (ص ٢٩١) ، وكان قد ترجم له ترجمة قصيرة في مطلع كتابه (ص ٣٣) .

وترجم لأبي روح ظفر بن عبد الله الهروي (ص ٧٦) ثم ترجم له في هامش (ص٢٨١) ، وحين أراد (ص ٣٥٠ هـ ٢ ، ص ٣٧٧ هـ ١) أن يحيل على موطن ترجمته أخطأت المطبعة في الإحالة .

وترجم لأبي سليمان الخطابي (ص ٧١ ـ ٧٣) ثم ترجم له في هامش (ص ٣١٠) وحين أحال عليه (ص ٣١٢ هـ ٣) خانته المطبعة .

- ثامنها : اختلطت أبيات البستيّ بأبيات عصرييه من الشعراء الذين نهجوا نهجه في التجنيس أو قلّدوه ، فلم يُغْفِلْ ذلك المحقق ، وخرّج في حواشيه شطراً طيباً منه . لكنه ، الى ذلك ، قَبِلَ أن يُورد في كتابه كلَّ ما نسب الى البستيّ في الكتب ، وإن كان ظاهر البطلان ، دون أن يشير او يعلّق بكلمة . من ذلك أنه قَبِل ما جاء في المنتحل منسوباً الى البستي (ص ٣٦٩ رقم ١٢٦) :

وكنتَ كذئب السَّوْءِ لما رأى دماً بصاحبه يوماً أحال على الدمِ

وهو من مقلّدات شعر الفرزدق (طبقات فحول الشعراء لابن سلام ١ : ٣٦٢) .

وأورد بيتين للبستي (ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣ رقم ٣٨) استمداداً مما جاء في تحفة الوزراء (ص ٦٥) دون أن يذكر أن هذين البيتين قد وردا ضمن قصيدة دالية طويلة قالها أبو سعيد الرستميّ في مديح الصاحب بن عباد (يتيمة الدهر للثعالبي ٣ : ٣٠٧) .

ـ تاسعها : لم يُعْنَ المحقق بصنع فهارس يختم بها الديوان تكون مفاتيح تهدي المطالع . كان لابدَّ من فهرس للقوافي مرتّب ترتيباً يسهل على مراجعه الاهتداء الى بغيته ، فأكثرُ شعرِ أبي الفتح أبياتٌ مُفْردة ونتفٌ ومقطعاتٌ وتقلُّ فيه القصائد ، مما يعسر فيه على الباحث الوصولُ الى بغيته دون فهرس هادٍ ميسَّر منسوق على القوافي ، مرتب على البحور ، وحركات الرويّ ، وفقاً لما جرى عليه مفهرسو الشعر واطمأنوا اليه[٦٦] . كذلك لابد من فهرس للأعلام الذين عرض لهم ابو الفتح في شعره . وكان يحسن بالمحقق أن يختم الديوان بثبت يضمُّ المراجع والمصادر التي استعان بها في تحقيقه .



وبعد فإن التحقيق الذي قام به الدكتور مُرسي الخولي خطوةٌ جادّة ذلَّل بها كثيراً من العقبات التي كانت تعرض للباحث في شعر أبي الفتح البستيّ ، وما دفعني لتسطير ما سطَّرتُ إلا الرغبة في خدمة العربية والتراث نتعاون جميعا لنجلو عن وجهها المشرق الوضاء . وما أظن ما سردت من مآخذ إلا هنات هيّنات في جنب ما كابده الأستاذ المحقق حتى ضمن لعمله ما اراده له من النجاح . ولقد فتح الدكتور الخولي البابَ

على مصراعيه لتحقيقٍ أوْفى ، وجَمْعٍ أشمل لما تبدَّد من شعر البستيّ ، ينهض به باحث دائب صبور ، يمضي خطوة أفسح ، فيوسّع مراجعه ومصادره وينوّعها ، ويتهدَّى الى كنوزٍ من شعر البستيّ لم تنشر بُعد ، ولا يتجاهل كتباً من كتب البلاغة والنقد ذات شأن ، تعين الدارس الباحث في كشف آثار ابي الفتح في صنعة الخالفين من الشعراء . ولعل استيفاء التخريج في مصادر القرنين الرابع والخامس الهجريين مما يكشف عن قيمة أبي الفتح في عصره وبعيد عصره ، ومما يفيد في توثيق شعره ، وترجيح نسبة ما اختلط من شعره بأشعار عصرييه . إن ضمَّ المتناثر وجمع المتفرق المتبقي من شعر أبي الفتح البستي في سلك ديوانه أمرٌ ضروريٌّ يحسن التصدي له وإنجازه . وما زلتُ أذكر أني كنت عرضتُ في الماضي لمخطوطة كتاب الدلائل المحفوظة في دار الكتب الظاهرية ووصفتها ، وذكرتُ أن الناسخ قد زَيَّن صفحة العنوان بثلاثة أبيات من شعر أبي الفتح البستي :

يقولون كم تَشْقَى بدرسٍ تُديمه ... وتمعنُ فيه دائباً كل إمعانِ
فقلتُ : ذروني ، انما انا كادحٌ ... لأكمل ذاتي أو لأجبر نقصاني
اذا لم يكن نقصانُ عمري زيادةً ... لِعِلْمي فاني والبهيمة سيَّانِ

ثم علّقتُ في الحاشية بأن الأبيات الثلاثة لم ترد في الديوان (ط بيروت ١٢٩٤ هـ)(٦٧) ، وعدتُ اليوم الى طبعة الديوان الثانية التي حققها الدكتور الخولي فلم أجد الأبيات .

أتمنى ان يكون الديوان في طبعته القادمة أكثر إحاطة ، وأوفى استيعابا ، ينظم في سلكه أشعار أبي الفتح التي تبددت في بطون الكتب المختلفة .

التعليقات

● أردتُ بهذه التعليقات الناشئةَ العربيةَ المحبةَ لأمتها وتراثها ، أفتح لها مغاليق الخزائن العربية النفيسة ، وأدلُّها على المصادر والمراجع ، وآخذ بيدها حتى تمضي في طريق ملحوب . إنها معقد الأمل ومناط الرجاء أن تؤدي أمانة الأجداد فتنشر لهم تراثهم محققاً على خير مايكون التحقيق .

(١) عرفت مصر في المئة الرابعة شاعراً من شعراء الفسطاط هو أبو الفتح بن البيني ، وقد تصحف اسمه في يتيمة الدهر للثعالبي ، وفي العمدة لابن رشيق فأصبح أبا الفتح البستي .
انظر المغرب في حلى المغرب لابن سعيد / قسم مصر ١ : ٢٧٢ ، يتيمة الدهر للثعالبي ١ : ٤٢٩ ـ ٤٣٠ ، العمدة لابن رشيق ١ : ٢٦٣ .

(٢) هي عند المسعودي : بُسْط بالطاء تارة ، وبُسْت بالتاء تارة (مروج الذهب ١ : ١٩٧ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢ : ٢٥١ ، ٣ : ٣٣٧ ، ٥ : ١٠٨ ، ١٤٢) .

(٣) هو عند المسعودي : هرمند بالراء المهملة ، وهو نهر بلاد سجستان ، ونهر بسط .
انظر كتاب مروج الذهب (بيروت ١٩٦٥ م) ١ : ٢٤٦ ، وكتاب التنبيه والاشراف (القاهرة ١٩٣٨ م) : ٥٠ .

(٤) يرى المنيني شارح اليميني أن قندهار هي قصدار (ويقال قزدار) القديمة (الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي للشيخ المنيني ١ : ٧٢) ، ولعله وهم فيما ذهب إليه . انظر معجم البلدان لياقوت الحموي (قُزْدار ، قُصْدار ، قُنْدهار) ، وكتاب بلدان الخلافة الشرقية لمؤلفه كي لسترنج (الترجمة العربية) : ٣٦٨ ، ٣٧٠ .

(٥) الأنساب للسمعاني (البستي) ، والاكمال لابن ماكولا ١ : ٤٣١ ، ومعجم البلدان لياقوت (بست ، هندمند) ، ووفيات الأعيان ٢ : ٢١٥ ، ودائرة المعارف لبطرس البستاني (بست) ٥ : ٤١٣ ، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ٣ : ٦٢٥ ـ ٦٢٦ ، وبلدان الخلافة الشرقية لمؤلفه كي لسترنج (الترجمة العربية) : ٢٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٨٣ ، ٣٨٤ ، ٣٨٥ ، ٣٨٦ ، ودائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية باللغة الفرنسية) ١ : ١٣٨٤ ـ ١٣٨٥ ، وقد عدَّد كاتبُ المقالة سورديل تومين في ختامها أبرز المصادر التي يحسن العودة إليها في دراسة مدينة بست . ويتردد الدكتور الخولي ، من غير ماسببٍ مقبولٍ ، في تحديد موقع بست فيقول : « بست تقع في بلاد الأفغان الحالية أو قريباً منها » (أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٤٠) .

(٦) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره ، للدكتور محمد مرسي الخولي (بيروت ١٩٨٠ م) : ٣٢٣ ، ولم أجد سنداً يؤيد ماذهب إليه فوك من أن أبا الفتح البستي من أرومة فارسية (دائرة المعارف الإسلامية ـ الطبعة الثانية باللغة الفرنسية ١ : ١٣٨٨) .

(٧) من المصادر والمراجع التي ترجمت لأبي الفتح البستي وروت أخباره والتي ضمَّ جملةً صالحةً منها مقتطفاتٍ من أشعاره ومتخيراتٍ من رسائله وأقواله :

- تاريخ اليميني للعتبي ، وشرحه الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي للشيخ المنيني (القاهرة ١٢٨٦ هـ) ١ : ٦٧ ـ ٧٢ .

- يتيمة الدهر للثعالبي (القاهرة ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م) ٤ : ٣٠٢ ـ ٣٣٤ .

- تتمة صوان الحكمة (وطبع في دمشق بعنوان تاريخ حكماء الإسلام) للبيهقي (لاهور ١٣٥١ هـ ـ ١٩٣٥ م) : ٢٤ ـ ٣٧ .

- السياق لعبد الغافر (مصورة) : لوح ٦١ .

- الأنساب للسمعاني (بيروت ١٩٨٠ م) ٢ : ٢٠٨ ، ٢١٠ / البستي .

- المنتظم لابن الجوزي (حيدر اباد الدكن ١٣٥٨ هـ) ٧ : ٧٢ ـ ٧٣ / سنة ٣٦٣ هـ .

- الكامل لابن الأثير (القاهرة ١٣٠١ هـ) ٩ : ٩١ / سنة ٤٠٠ هـ .

- معجم البلدان لياقوت الحموي (بست) .

- وفيات الأعيان لابن خلكان (بيروت ١٩٦٨ ـ ١٩٧٢ م) ٣ : ٣٧٦ ـ ٣٧٨ .

- الوافي بالوفيات للصفدي (مصورة خزانة مجمع اللغة العربية بدمشق) مج ٢٢ لوح ٦٣ ـ ٦٥ .

- العبر للذهبي (الكويت ١٩٦١ م) ٣ : ٧٥ ـ ٧٦ .

- المشتبه في الرجال للذهبي (القاهرة ١٩٦٢ م) ١ : ٧٢ .

- توضيح المشتبه لابن ناصر الدين (مخطوطة دار الكتب الظاهرية) مج ١ ، ق ٥٦ أ .

- تبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر العسقلاني (القاهرة ١٩٦٤ م) ١ : ١٤٩ .

- طبقات الشافعية الكبرى للسبكي (القاهرة ١٣٢٤ هـ) ٤ : ٤ ـ ٦ .

- طبقات الشافعية للأسنوي (القاهرة ١٣٩٠ هـ) ١ : ٢٢١ ـ ٢٢٣ .

- مرآة الجنان لليافعي (حيدر اباد الدكن ١٣٣٨) ٢ : ٤٥٣ .

- روضات الجنات للخوانساري (قمّ ١٣٩٢ هـ) ٥ : ٢٣٦ ـ ٢٣٧ .

- المختصر من أخبار البشر لأبي الفداء (القاهرة ١٣٢٥ هـ) ٢ : ١٣٩ / سنة ٤٠٠ هـ .

- البداية والنهاية لابن كثير (سنة ٣٦٣ هـ ، سنة ٤٠١ هـ) ١١ : ٢٧٨ ، ٣٤٥ .

- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (سنة ٣٦٣ هـ ، سنة ٤٠١ هـ) ٤ : ١٠٦ ، ٢٢٨ ـ ٢٢٩ .

- حياة الحيوان الكبرى للدميري (القاهرة) ١ : ٢٥٤ ـ ٢٥٧ .

- مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده (حيدر اباد دكن الهند ١٣٢٨ هـ) ١ : ٢٢٩ ـ ٢٣٠ .

- معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسي (القاهرة ١٩٤٧ م) ٣ : ٢١٢ ـ ٢٢٣ .

- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (سنة ٤٠٠ هـ) ٣ : ١٥٩ ـ ١٦٠ .

- كشف الظنون لحاجي خليفة (ط استانبول) ١ : ٧٧٢ ، ٢ : ١٣٣٦ ، ١٦٢٦ .

- هدية العارفين لاسماعيل البغدادي (ط استانبول) ١ : ٦٨٥ .

- دائرة المعارف لبطرس البستاني (ط ١٢٩٤ هـ / ١٨٧٧ م) ٢ : ٢٩٢ ـ ٢٩٦ .

- دائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ٣ : ٦٢٩ ـ ٦٣٠ .

- دائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي ٢ : ١٨٦ .

- معجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس ١ : ٥٦٤ .

- الأعلام للزركلي (ط ٣) ٥ : ١٤٤ ، (ط ٤) ٤ : ٣٢٦ .

- تاريخ الأدب العربي لبركلمن ١ : ٢٩١ ـ ٢٩٢ ، الذيل ١ : ٤٤٥ ، (الترجمة العربية) ٥ : ٢٣ ـ ٢٥ .

- معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (دمشق ١٩٥٩ م) ٧ : ١٨٦ .

- دائرة المعارف بادارة فؤاد أفرام البستاني (بيروت ١٩٦٤ م) ٥ : ٢٢ ـ ٢٤ .

- دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية باللغة الفرنسية) ١ : ١٣٨٨ ـ ١٣٨٩ .

- أبو الفتح البستي ، حياته وشعره للدكتور محمد مرسي الخولي (بيروت ١٩٨٠ م) .

- أبو الفتح البستي لمحمد الخولي (مجلة العربي بالكويت / تشرين الثاني ١٩٧١ م ، العدد ١٥٦ ، ص : ١٤٣ ـ ١٤٧) .
- أبو الفتح علي بن محمد البستي لدرية الخطيب ولطفي الصقال (مجلة التراث العربي بدمشق / تشرين الأول ١٩٨٢ ، العدد ٩ ، ص : ١٦٥ ـ ١٧٧) .
- وله ترجمة صغيرة في الموسوعة العربية الميسرة : ٣٧١ ، وأصغر منها في المنجد (الأعلام) : ١٣٢ ،

وانظر بقية المراجع في تتمة صوان الحكمة للبيهقي ، وطبقات الشافعية للأسنوي وتاريخ الأدب العربي لبركلمن ، ودائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الثانية باللغة الفرنسية) ومقالة مجلة التراث العربي .

(٨) سير بك في التعليق رقم (٦٠) أبرز المصادر التي تخيرت من أشعار أبي الفتح البستي .

(٩) لم يذكر أحدٌ سنة ولادة أبي الفتح البستي ، ولكن قراءته على أبي حاتم محمد بن حبان البستي المتوفّى عام ٣٥٤ هـ ترجح ألا تتجاوز ولادته العقد الرابع من القرن الرابع .

(١٠) تجد ترجمة أبي حاتم محمد بن حبان البستي في معجم البلدان لياقوت الحموي (بست) ، والأنساب للسمعاني (البستي) ٢ : ٢٠٩ ـ ٢١٠ ، واللباب لابن الأثير (البستي) ١ : ١٥١ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٣ : ٩٢٠ ـ ٩٢٤ ، ولسان الميزان ٥ : ١١٢ ـ ١١٥ ، وانظر بقية مصادره في معجم المطبوعات العربية والمعربة ليوسف اليان سركيس ١ : ٥٦٣ ـ ٥٦٤ ، والأعلام للزركلي ٦ : ٧٨ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٩ : ١٧٣ ـ ١٧٤ .

(١١) الأنساب للسمعاني ٢ : ٢١٠ ، طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤ : ٤ ، معجم البلدان لياقوت (بست / ط ليبزيغ ١٨٦٦ م) ١ : ٦١٢ ، الوافي بالوفيات للصفدي مج ٢٢ لوح ٦٣ ، النجوم الزاهرة ٤ : ٢٢٨ ، وعليٌّ بن عبد العزيز من تلاميذ أبي عبيد القاسم بن سلام ، تجد ترجمته في طبقات الزبيدي (ط ٢) : ٢٠٧ ، ومعجم الأدباء ١٤ : ١١ ـ ١٤ ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ٢ : ٦٢٢ ـ ٦٢٣ ، وانظر بقية مصادره في إنباه الرواة للقفطي ٢ : ٢٩٢ ، وكتاب الأعلام للزركلي (ط ٤) ٤ : ٣٠٠ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ٧ : ١٢٤ .

(١٢) اليميني على هامش الفتح الوهبي ٢ : ٧٠ ـ ٧١ ، يتيمة الدهر للثعالبي ٤ : ٣٠٢ ، الأنساب للسمعاني ٢ : ٢١٠ ، المنتظم لابن الجوزي ٧ : ٧٢ ، طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٤ ، طبقات الشافعية للأسنوي ١ : ٢٢١ ـ ٢٢٢ ، معاهد التنصيص ٣ : ٢١٣ ، كشف الظنون ٢ : ١٦٢٦ ، هدية العارفين ١ : ٦٨٥ .

(١٣) الأنساب للسمعاني ٢ : ٢١٠ ، طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٤ .

(١٤) طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٤ ، معجم البلدان (بست) ، وتجد ترجمة الحاكم النيسابوري (محمد بن عبد الله) ومراجعها في طبقات الشافعية ٣ : ٦٤ ـ ٧٢ ، وفي الأعلام للزركلي ٦ : ٢٢٧ ، وتجد ترجمة أبي عثمان الصابوني (اسماعيل بن عبد الرحمن) في طبقات الشافعية ٣ : ١١٧ ـ ١٢٩ .

(١٥) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢٤٨ ، الأنيس في غرر التجنيس : ٤١٦ (مجلة المجمع العلمي العراقي ، مج ٣٣ ، ج ١) .

(١٦) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٣٦٢ ، يتيمة الدهر ٤ : ٣٢٥ .

(١٧) يتيمة الدهر ٤ : ٣٠٢ ، معاهد التنصيص ٣ : ٢١٣ .

(١٨) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢٤١ ، يتيمة الدهر ٤ : ٣٢٠ ، زهر الآداب ١ : ١٦٩ ، وانظر في اليتيمة (٤ : ٣٢٠) وكتاب أبو الفتح البستي ، حياته وشعره (ص : ٢٧٥ ، ٣١١) أبياتاً أخرى مدح بها البستيُّ صديقه الثعالبي .

(١٩) طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٤ ، يتيمة الدهر ٤ : ٣٣٥ ، وتجد ترجمة أبي سليمان الخطابي ومراجعها في مقدمة كتاب غريب الحديث للخطابي (دمشق ١٩٨٢ م) ١ : ٨ ـ ٤٥ ، ومجلة معهد المخطوطات (الكويت) مج ٢٦ ، ج ٢ ، ص : ٧٢٥ ـ ٧٢٩ ، والأعلام للزركلي ٢ : ٢٧٣ .

(٢٠) يتيمة الدهر للثعالبي ٤ : ٣٢٠ ـ ٣٢١ ، أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢٩١ ، وتجد ترجمة العتبي (محمد بن عبد الجبار) في يتيمة الدهر للثعالبي ٤ : ٣٩٧ ـ ٤٠٦ ، والأعلام للزركلي (ط ٤) ٦ : ١٨٤ ـ ١٨٥ ، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ١٠ : ١٢٦ ، وقد عرض الدكتور الخولي في دراسته لذكر طائفة من أصدقاء الشاعر ومحبيه (أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٧٠ ـ ٨٢) .

(٢١) خاص الخاص للثعالبي : ١٦٩ ، يتيمة الدهر ٤ : ٣٤٨ ، الأنيس في غرر التجنيس : ٤١٥ ، وانظر ترجمة أبي روح ظفر بن عبد الله الهروي في يتيمة الدهر ٤ : ٣٤٧ ـ ٣٤٨ .

(٢٢) ويقول الثعالبي في ترجمة أبي الفتح : « أبو الفتح علي بن محمد الكاتب البستي صاحب الطريقة الأنيقة في التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه »

(يتيمة الدهر ٤ : ٣٠٢) . وقد عُني علماء البلاغة المتأخرون ببيان مختلف أنواع التجنيس ، فقسموا الجناس خمسة أقسام ، أولها : الجناس التام : وهو أن يتفق اللفظان في أنواع الحروف وفي أعدادها وفي هيآتها وفي ترتيبها ، فإن كان اللفظان من نوع واحد من أنواع الكلمة : اسمين أو فعلين أو حرفين سمي الجناس مماثلاً ، وإن كان اللفظان من نوعين من أنواع الكلمة : اسم وفعل ، أو اسم وحرف ، أو فعل وحرف سمي الجناس مستوفى . ثم قسم البلاغيون الجناس التام تقسيماً آخر ، وهو انه إن كان أحد لفظيه مركباً والآخر مفرداً سمي جناس التركيب ، فان اتفق اللفظان المفرد والمركب في الخطّ خُصَّ هذا النوع من جناس التركيب باسم المتشابه لاتفاق اللفظين في الكتابة كقول أبي الفتح البستي :

إذا ملك لم يكن ذا هبه فدعه فدولته ذاهبه

وإن لم يتفق اللفظان المفرد والمركب في الخط خُصّ هذا النوع من جناس التركيب باسم المفروق لافتراق اللفظين في صورة الكتابة ، كقول أبي الفتح البستي :

كلكم قد أخذ الجا مَ ولا جامَ لنا
ما الذي ضرَّ مدير الـ ـجام لو جاملنا

(تهذيب الإيضاح للأستاذ عز الدين التنوخي ١ : ٢٣٨ ـ ٢٤١ ، شروح التلخيص : مختصر السعد ومواهب الفتاح وعروس الأفراح ٤ : ٤١٢ ـ ٤١٩) .

(٢٣) يتيمة الدهر ٤ : ٣٣٧ ، وقد تحدث الدكتور الخولي عن طريقة أبي الفتح البديعية (أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ١٦١ ـ ١٩٦) .

(٢٤) تتمة اليتيمة للثعالبي ٢ : ٢٠ .

(٢٥) اليميني على هامش الفتح الوهبي ١ : ٦٤ ـ ٧١ ، يتيمة الدهر للثعالبي ٤ : ٣٠٢ ـ ٣٠٤ ، الكامل لابن الأثير ٨ : ٢٧٢ ، طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ١٤ ، معاهد التنصيص ٣ : ٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٢٦) اليميني على هامش الفتح الوهبي ١ : ٧١ ، يتيمة الدهر للثعالبي ٤ : ٣٠٤ ، معاهد التنصيص ٣ : ٢١٤ ، قال المنيني شارح اليميني (الفتح الوهبي ١ : ٧١) : « الوشائع : جمع وشيعة وهي لفيفة من غزل . وفي التركيب [ينسج بعباراته وشائع فتوحه ومقاماته] استعارةً بالكناية وتخييلٌ وترشيح » .

(٢٧) اليميني على هامش الفتح الوهبي ١ : ٧١ ، يتيمة الدهر للثعالبي ٤ : ٣٠٤ ، تتمة صوان الحكمة للبيهقي : ٣٥ ، معاهد التنصيص ٣ : ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٢٨) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٣٧٣ ، وفيات الأعيان ٣ : ٣٧٧ ـ ٣٧٨ ، شذرات الذهب ٣ : ١٦٠ .

(٢٩) جاء في طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ١٣ « إن مصطلح الدول أن السلطان مَنْ مَلَكَ إقليمين فصاعدا ، فإن كان لايملك إلا إقليماً واحداً سمي بالملك ، وإن اقتصر على مدينة واحدة لا يسمى لا بالملك ولا بالسلطان بل بأمير البلد وصاحبها ... » .

(٣٠) اليميني على هامش الفتح الوهبي ١ : ٧١ ـ ٧٢ ، يتيمة الدهر للثعالبي ٤ : ٣٠٤ ، معاهد التنصيص ٣ : ٢١٥ .

(٣١) تتمة صوان الحكمة : ٣٥ ـ ٣٦ ، والخاقانية : ملوك الترك . قال ابن نظيف الحموي في التاريخ المنصوري (موسكو ١٩٦٠) : ١٤ « وقد كان للترك ملوك يقال لهم الخاقانية ، وللديلم ملوك يقال لهم الكيانية ، وللأنباط ملوك يقال لهم النماردة ، وللروم ملوك يقال لهم القياصرة ، وللفرس ملوك يقال لهم الأكاسرة ، وللأقباط ملوك يقال لهم الفراعنة » . وروى المسعوديُّ من قصيدة (مروج الذهب ١ : ١٩٠) :

في الفرس كسرى وفي الرومِ القياصرُ والـ ـحبشِ النجاشيُّ والأتراكِ خاقانُ

(٣٢) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٣٤٢ ، معجم البلدان لياقوت الحموي (سمرقند) .

الحنظل : الشجر المرُّ . القند (بفتح القاف وسكون النون) : عسل قصب السكّر اذا جُمّد .

ـ وسمرقند : بلد معروف مشهور في بلاد ماوراء النهر ، وهو قصبة الصُغْد (معجم البلدان لياقوت الحموي ـ سمرقند) . واقليم الصغد يقع مابين سيحون وجيحون وفيه المدينتان الجليلتان : سمرقند وبخارى ، وهما على نهر الصغد . وكان نهر جيحون في القديم الحدّ الفاصل بين الأقوام الناطقة بالفارسية والأقوام الناطقة بالتركية ، وتسمى البلاد التي وراءه : ماوراء النهر . ومن الأدقّ أن يُعَدّ الصغد اسماً للرساتيق المحيطة بسمرقند ، وكان من الخصب واليسار والازدهار ماجعل الجغرافيين والرحالة العرب يعدُّونه واحداً من جنات الدنيا الأربع . وقد فصّل كي لسترنج القول في سمرقند وموقعها وصُغْدها (الفتح الوهبي ٢ : ٢١٦ ، ٢٢٠ ، بلدان الخلافة الشرقية / الترجمة العربية ٢٢ ، ٤٧٦ ، ٥٠٣ ، ٥٠٦ ـ ٥٠٨) . وسمرقند اليوم في جمهورية اوزبكستان إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتي .

ـ وبلخ : مدينة مشهورة من أجلّ مدن خراسان وأذكرها وأكثرها خيراً وأوسعها غلة (معجم البلدان ـ بلخ ، الفتح الوهبي ٢ : ٢١٦) ، وكان اقليم خراسان في أيام العرب ينقسم إلى أربعة أرباع ، نسب كل ربع إلى إحدى المدن الأربع الكبرى التي كانت في أوقات مختلفة

عواصم للاقليم منفردة حينا ، ومجتمعة حينا ، وهذه المدن هي : نيسابور ومرو وهراة وبلخ ، وقد فصل كي لسترانج القول في بلخ ومكانتها وربضها (بلدان الخلافة الشرقية / الترجمة العربية : ٢١ ، ٤٢٤ ، ٤٦٢ ـ ٤٦٤) . وكان يقال : أخرجت بلخ أربعة من الأفراد : أبا القاسم الكعبي في علم الكلام ، وأبا زيد البلخي في البلاغة والتأليف ، وسهل بن الحسن في شعر الفارسية ، ومحمد بن موسى في شعر العربية (يتيمة الدهر ٤ : ٨٥ ـ ٨٦) . وبلخ اليوم في شمالي جمهورية افغانستان .

ـ يفضّل أبو الفتح البستي في بيتيه ديار الترك التي يحكمها ايلك خان (ورمز إليها بسمرقند) على ديار خراسان التي يحكمها محمود الغزنوي (ورمز إليها ببلخ) .

(٣٣) اليميني على هامش الفتح الوهبي ٢ : ٦٦ ـ ٧١ ، الكامل لابن الأثير ٩ : ٧٧ ، تاريخ أبي الفداء (القاهرة ١٣٢٥ هـ) ٢ : ١٣٧ ، أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٣٥٨ ـ ٣٥٩ .

وجاء لفظ (بهاطية) في رسالة لبديع الزمان الهمذاني (بهاضية) بالضاد المعجمة ، انظر رسائل ابي الفضل بديع الزمان (القاهرة ١٩٢٨ م) : ١٢ .

(٣٤) اليميني على هامش الفتح الوهبي ٢ : ٧٦ ـ ٩٤ ، ٢١٥ ـ ٢١٩ ، الكامل لابن الأثير ٩ : ٧٨ ـ ٨٠ .

(٣٥) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٣٣٣ ، يتيمة الدهر ٤ : ٣٢٧ ، ٣٣٠ .

(٣٦) اليميني على هامش الفتح الوهبي ١ : ٧١ ـ ٧٢ ، الفتح الوهبي ١ : ٧٢ ، يتيمة الدهر ٤ : ٣٠٤ ، وفيات الأعيان لابن خلكان ٣ : ٣٧٨ ، طبقات الشافعية للسبكي ٤ : ٤ ، الأنساب للسمعاني ٢ : ٢١٠ ، المشتبه للذهبي ١ : ٧٢ ، توضيح المشتبه لابن ناصر الدين مج ١ ق ٥٦ أ ، شذرات الذهب ٣ : ١٥٩ ، هدية العارفين ١ : ٦٨٥ .

ـ وبخارى : مدينة من أعظم مدن ماوراء النهر وأجلّها ، وكانت قاعدة ملك السامانية حتى طفئت شعلة دولة آل سامان بما وراء النهر وأطراف خراسان سنة ٣٨٩ هـ (معجم البلدان ـ بخارى ، اليميني على هامش الفتح الوهبي ١ : ٣١٨ ـ ٣٢٠ ، ٣٤٧ ـ ٣٥٠) . وكانت بخارى واختها سمرقند قصبتي اقليم الصغد ، أجل أقاليم ماوراء النهر الخمسة ، وقد ذكر بخارى وأبان عن مكانتها كي لسترانج في كتابه بلدان الخلافة الشرقية (الترجمة العربية) : ٢٢ ، ٤٧٦ ، ٥٠٣ ـ ٥٠٦ ، وتقع بخارى اليوم في جمهورية اوزبكستان .

ـ وأُوزكند (بضم الهمزة وسكون الواو والزاي) ، ويقال : أُوزجند ، بلد بما وراء النهر من نواحي فرغانة (معجم البلدان ـ اوزكند) ، وكانت قاعدة ملك ايلك خان (الفتح الوهبي ١ : ٧٢ ، ٣٢٠ ، ٣٤٥) ، ويقول كي لسترنج : إن مدينة اوزكند هي آخر مدن فرغانة

شرقا . وفرغانة اقليم في أعلى نهر سيحون (عرف في الآزمنة الأخيرة بخانية خوقند ، ثم أعادت إليه حكومة الاتحاد السوفييتي اسمه القديم : فرغانة) (بلدان الخلافة الشرقية / الترجمة العربية : ٤٧٧ ، ٥١٨ ، ٥٢٠ ، ٥٢٢ ، ٥٣١) .

(٣٧) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٤٣ ، ٢٢٣ .

(٣٨) أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٤٣ ، ٢٧٢ ـ ٢٧٣ ، يتيمة الدهر ٤ : ٣٢٩ .

(٣٩) معجم البلدان (بست) .

(٤٠) السياق لعبد الغافر (مصورة) : لوح ٦١ ، الأنساب للسمعاني ٢ : ٢١٠ .

(٤١) المنتظم لابن الجوزي ٧ : ٧٢ .

(٤٢) وفيات الأعيان ٣ : ٣٧٨ ، ونسبُ أبي الفتح البستي الذي أورده ابن خلكان نقلاً من أول ديوانه جاء مماثلاً لما ذكره ياقوت في معجم البلدان (بست) قال : « وأبو الفتح علي بن محمد ويقال ابن أحمد بن الحسن بن محمد بن عبد العزيز البستي الشاعر الكاتب صاحب التجنيس » . أما السبكي في طبقات الشافعية ٤ : ٤ فقد خالف بعض المخالفة في سرد الأسماء قال : « علي بن محمد ، وقيل علي بن أحمد ، ثم قيل : اسم جده حسين بن يوسف بن عبد العزيز . وقيل : الحسن » .

(٤٣) البداية والنهاية ١١ : ٢٧٨ .

(٤٤) دمية القصر للباخرزي (تح محمد التونجي) ١ : ٣٢٤ هـ ١ ، ٣ : ١٧٤٥ ، ويقول بركلمن : « وقد نظم [البستي] بلغته الفارسية إلى جانب العربية » (تاريخ الأدب العربي / الترجمة العربية ٥ : ٢٣) . وروى الثعالبي في الأنيس في غرر التجنيس : ٤٧٩ ، بيتاً للبستي ملمعاً . والتَّلميعُ : جنس من التجنيس مركّب من الفارسية والعربية .

(٤٥) ذكر الصفدي والكتبي وابن قاضي شهبة ان للثعالبي كتاباً بعنوان « الطرف من شعر البستي » ، انظر مجلة المجمع العلمي العراقي مج ٣٣ ج ١ : ٣٩٣ (كانون الثاني ١٩٨٢ م) .

(٤٦) تجد ترجمة ابراهيم بن علي الأحدب ومراجعها في كتاب الأعلام للزركلي ١ : ٥٥

(٤٧) جاء اسم الشاعر ونسبه على غلاف الديوان المطبوع باسقاط اسم أبيه : « ديوان البليغ المنشىء الكاتب الأديب أبي الفتح علي بن الحسين بن عبد العزيز البستي » . وجاء في مطلع طبعة الديوان الثانية : « قال ابو الفتح علي بن محمد بن الحسين بن عبد العزيز البستيّ

الكاتب » (ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢١٧) . وانظر فهرس المخطوطات المصورة (القاهرة ١٩٥٤) ١ : ٤٥٥ ، رقم ٢٧٦ .

(٤٨) ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢١١ ـ ٢١٢ ، وقد بيّن الدكتور الخولي ايضاً أن مخطوطة الديوان التي ذكر بركلمن أنها في دار الكتب الظاهرية بدمشق ليست إلا النسخة المطبوعة ببيروت ، أهداها الى الظاهرية السيد عبد القادر القباني ، وكان قد أخطأ طابعو سجلّ المكتبة العمومية (دار الكتب الظاهرية الآن) ، وكان سجلا يضمُّ الكتب المخطوطة والمطبوعة معاً ، فأثبتوا أن الكتاب المذكور مخطوط بدل ان يثبتوا أنه مطبوع ، فتابعهم بركلمن في الخطأ . انظر : تاريخ الأدب العربي لبركلمن (الترجمة العربية) ٥ : ٢٤ ، سجل المكتبة العمومية بدمشق (طبع بمطبعة الجمعية الخيرية بدمشق الشام ١٢٩٩) : ٩٢ رقم ٣٨ ، أبو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢١١ ـ ٢١٢ .

(٤٩) للعروضيين أقوال في أسماء الجملة من الأبيات . يقول ابن رشيق : « اذا بلغت الأبيات سبعة فهي قصيدة .... ومن الناس من لا يعدّ القصيدة الا ما بلغ العشرة وجاوزها ولو ببيت واحد ، ويستحسنون أن تكون القصيدة وترا ، وأن يتجاوز بها العقد أو توقف دونه .... » (العمدة ١ : ١٦٤) . وقال الدمنهوري : « ومقدار القصيدة سبعة أبيات فما فوقها ، ومقدار القطعة ثلاثة أبيات فما فوقها الى السبعة ، وهذا مارجحه ابن واصل فيهما . وقيل : أقل القصيدة ثلاثة أبيات ، وقيل عشرة ، وقيل أحد عشر ، وقيل ستة عشر ، وقيل عشرون . والقطعة مادون القصيدة على كل قول فيها » (حاشية الدمنهوري على متن الكافي : ٨٣) . وعدّد الصبان الأقوال المذكورة في القصيدة ورجح مارجحه ابن واصل (شرح الصبان على منظومته : ٢٥) ، ورووا عن الفراء أن العرب تسمي البيت الواحد يتيما ، والبيتين والثلاثة نُتفة (شرح الصبان : ٢٥ ، حاشية الدمنهوري : ٨٣) . وفي عبارة الثعالبي مايشعر أن النُتفة عنده قد تزيد على ثلاثة أبيات (يتيمة الدهر ٤ : ١٠٧ ، ١٢٨ ، ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ، ١٩٣ ، ٣١٠ ، ٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ، ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٤٠٧ ، ٤٢١ ، ٤٣٦) .

(٥٠) جاء في ديوان أبي الفتح البستي (ص : ٥١ ـ ٥٢) بيتان وبيت ، والثلاثة هي مقطوعة في الديوان الجديد (ابو الفتح البستي ، حياته وشعره للدكتور محمد مرسي الخولي : ٢٨١) ، كذلك جاء في الديوان (ص : ٦٤ ، ٦٥) نتفتان على قافية اللام ، ولكنهما وردتا مقطوعة واحدة في الديوان الذي حققه الدكتور الخولي (ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢٩٧ ـ ٢٩٨ . وروى الديوان بطبعتيه بيتين في قافية الدال (ط١) : ٢٢ ، (ط٢) : ٢٤٤ ، ثم كررهما في قافية الميم (ط١) : ٦٨ ، (ط٢) : ٣٠٢ ، وقد اشار الدكتور الخولي الى هذا التكرار . وروى الديوان في قافية الراء (ط٢) : ٢٥٤ ، أربعة أبيات ، ثم أعادها في قافية الياء (ط٢) : ٣٢٩ .

(٥١) الأعلام ٤ : ٣٢٦ .

(٥٢) تجد نبذة عن الدكتور محمد مرسي الخولي في مجلة عالم الكتب مج ٣ ، ع ٢ (تموز ١٩٨٢ م) : ٣٠٣ .

(٥٣) هناك مقطوعة سقطت من نسخة أحمد الثالث فاستدركها المحقق من ديوان أبي الفتح بطبعته الأولى (ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢٨٦ ـ ٢٨٧) .

(٥٤) ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢١٠ .

(٥٥) في البيت الثاني من المقطوعة نظر .

(٥٦) لعل في البيت تحريفا .

(٥٧) أوجب ابن رشيق في (باب أحكام القوافي في الخط) أن تحذف ياء كافٍ في الخط ولا تثبت اذا كانت وصلاً للقافية . قال : « .... فأما ما يكون منوّنا نحو قاضٍ وغازٍ ، أو مجزوماً نحو لم يقضِ ولم يغزُ فلا يجوز ان يثبت فيهما الياء والواو على المسامحة ، لانهما سقطا بالتنوين والعامل .... » (العمدة ٢ : ٢٩٢ ـ ٢٩٣) .

(٥٨) ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢١٣ ، وتجد وصف نسختي ديوان أبي الفتح البستي المخطوطتين : نسخة برنستون ونسخة أحمد الثالث في (ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢١١ ـ ٢١٣) ، كما تجد وصف نسخة أحمد الثالث المخطوطة في فهرس المخطوطات المصورة (القاهرة ١٩٥٤ م) ١ : ٤٥٥ رقم ٢٧٦ .

(٥٩) ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢١٠ ، وقد رقم الدكتور الخولي المقطعات التي أضافها فبلغ بها ثلاثاً وخمسين ومئة مقطعة ، أما عدة أبياتها فسبعة وستون وثلاث مئة بيت ، لابد أن نسقط منها النتفة (رقم ٤٥ ص ٣٤٥) لأنها جاءت في أصل الديوان (ص ٢٥٢) .

(٦٠) المؤلفات المخطوطة والمطبوعة التي عاد اليها الدكتور الخولي لتخريج أشعار البستي هي : الآداب ، أسرار البلاغة ، أجناس التجنيس ، الاقتباس من القرآن ، الأمثال ، الايجاز والاعجاز (الاعجاز والايجاز) ، البداية والنهاية ، برد الأكباد في الاعداد ، بلوغ الأرب للسجاعي ، بهجة المجالس ، تحرير التحبير ، تحسين القبيح وتقبيح الحسن ، التحفة البهية ، تحفة الوزراء ، التمثيل والمحاضرة ، ثمار القلوب ، حماسة الظرفاء ، حياة الحيوان ، خاص الخاص ، روضات الجنات ، زهر الآداب ، سلافة العصر ، شفاء الغليل ، طبقات الشافعية للسبكي ، طراز المجالس ، الطرائف ، غرر التجنيس ، الفتح الوهبي ، كنايات الثعالبي ، كنايات الجرجاني ، اللآلىء والدرر ، لسان الميزان ، لطائف المعارف ، اللطف واللطائف ، مجاني الأدب ، مجمع الأمثال ، مجموع شعري مخطوط بجامعة تونس ، معاهد التنصيص ، المنتحل ، المنتظم ، من غاب عنه المطرب ، نثر النظم ، النجوم الزاهرة ، نهاية الأرب ، الوافي بالوفيات ، وفيات الأعيان ، يتيمة الدهر ، اليميني .

(٦١) ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢٩٠ .

(٦٢) ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢١٣ ـ ٢١٤ .

(٦٣) سأفرد كلمة خاصة أتحدث فيها عن الدوبيت (الرباعي) وأوزانه .

(٦٤) ابو الفتح البستي ، حياته وشعره : ٢١٣ .

(٦٥) الفتح الوهبي ١ : ٣ .

(٦٦) انظر الطريقة التي ارتضاها الاستاذ احمد راتب النفاخ في فهرسة شواهد سيبويه (فهرس شواهد سيبويه : ٧ ـ ٨) .

(٦٧) مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، مج ٥١ ، ص ٢٣٤ .

شاكر الفحام



الفراسة عند العرب

القسم الرابع

الأستاذ عبد الكريم زهور عدي

الفراسة عند الجاحظ (ـ ٢٥٥)

قد يكون من الضروري والمفيد أن أستقدم الكلام في الفراسة عند الجاحظ ببضع ملاحظات :

الأولى أن من يتقدم إلى الجاحظ يبتغي دراسة جانب من جوانب أدبه تتلقاه صعوبتان : أولاهما اتساع علمه المستخرج من الكتب وغنى تجربته المستخلصة من الحياة والناس . وثانيتهما طريقته في التأليف إذ يختلط عنده كل شيء بكل شيء . فيجد لذلك من يريد أن يدرس جانباً منه أن عليه أن يدرس مؤلفاته جميعاً أو أن يستعرضها على الأقل بشيء كثير من الأناة .

الثانية أن ما ورد في كتابات الجاحظ مما يدخل في الفراسة لم ينصّ دائماً أنه داخل فيها . ولست أرى بأساً في ذلك . فما كتبه أبقراط مثلاً والأطباء من بعده من يونان وعرب مما يدخل في الفراسة لم ينصّوا هم أيضاً أنه منها ولكنه كان منها وعُدَّ منها وأدخل في علم الفراسة .

الثالثة أن كثيراً من الأقوال في الفراسة الواردة في مؤلفاته ليست له بل هو ينقلها عن غيره . وما من بأس ههنا أيضاً . فإذ لم ينكرها أو

ينقدها فقد أصبحت من معلوماته ، ويمكن إلا في حالات خاصة أن تُعد أقوالاً له قد ارتضاها .

ثم إن الحوادث والأقوال والآراء في الفراسة جاءت منثورة في كتبه ورسائله ، فكان لا بد من جمعها وترتيبها وتبويبها ، وقد فعلت متبعاً في التصنيف خطة تشبه إلى حد ما خطة الفخر الرازي في كتابه « علم الفراسة » :

الفراسة وحدودها

وردت كلمات « فراسة وتفرس ومتفرس .. » كثيراً في كتابات الجاحظ ، ولكن مدلولاتها كانت تختلف سعة وضيقاً من موضع إلى موضع فيها :

فقد استعملها بمعنى الكشف عن الطباع الثابتة ، وهو في الحقيقة الموضوع الأصلي والمركزي لعلم الفراسة :

قال :[٨٦] « فلما حزتُ المؤانسة .. أردت خبرة المشاهدة ، **فبلوت أخلاقك وامتحنت شيمك وعجمت مذاهبك على حين غفلاتك وفي الأوقات التي يقل فيها تحفظك ، أراعي حركاتك وأراقب مخارج أمرك ونهيك** ، فأرى من استصغارك لعظيم النعم التي تنعم بها واستكثارك لقليل الشكر من شاكريك ، ما أعرف به وبما قد بلوت من غيرك وما قد شهدت لي به التجارب ، **أن ذلك منك طبع غير تكلف .. »**

وقال :[٨٧] « وأنا أظن أن الذنب مقسوم بينك وبين وكلائك . فارجع إلى نفسك فلعلك أن ترى أنك إنما أتيت من قبل الفراسة ...

ذلك حيلة منه ودهاء قدمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطد لها من قبول القول في سائر ما يرد عليه من الكتب ... ويجعل ما تقدم له من الرجوع عن قوله عندما تبين له خلاف ما قال أوثق أسباب عدالته وأحكم عرى نصفته ...

« وإنما البلية في غيبة حذّاق المغتابين الذين يسمعون فيضحكون ولا يتكلمون ... وأحذق منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ويدعون الله بالصلاح للمقول فيه . فهم قد أسكتوا القائل المغتاب ودعوا للمقول فيه وأوكدوا قول القائل .. »

وتوسع الجاحظ بمعنى الفراسة إلى حدود أبعد حتى أصبحت تدل على التبصر في الأمور وتفهم المواقف واستقراء الحوادث والكشف عما وراءها :

ذكر عن خالد بن برمك أنه[٩١] « بينا هو على سطح من سطوح القرى مع قحطبة (بن شبيب الطائي صاحب أبي مسلم) وهم يتغدون ، وذلك في بعض منازلهم حين فصلوا من خراسان إلى الجبل ... وبين قحطبة وبين الأعداء مسيرة أيام وليال ... وذلك حين نزلوا وبهم كلال السير ، وحين علّقوا على دوابهم ونصبوا قدورهم وقرّبوا سُفَرهم ... فنظر خالد إلى الصحراء فرأى أقاطيع الظباء قد أقبلت من جهة الصحارى حتى كادت تخالط العسكر . فقال لقحطبة : أيها الأمير ناد في الناس : ياخيل الله اركبي ، فإن العدو قد حث إليك السير وعامة أصحابك لن يسرجوا ويلجموا قبل أن يروا سرعان الخيل . فقام قحطبة مذعوراً فلما لم ير شيئاً يروعه ولم ير غباراً قال لخالد : ماهذا الرأي ؟ قال : أيها الأمير لا تتشاغل بي وبكلامي وناد في الناس ، أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت حتى خالطت الناس ؟ إن وراءها جمعاً عظيماً ... فوالله ما ألجموا

وأسرجوا حتى رأوا ساطع الغبار ، ولا تلبّسوا وتسلحوا حتى رأوا الطليعة ، فما التأموا حتى استوى أصحاب قحطبة على ظهور خيولهم . ولولا نظرة خالد بن برمك وفراسته لقد كان ذلك الجيش العظيم اصطلم » .

ويدعو الجاحظ أنواع الفراسة الثلاثة هذه « العلم بالغائب » ويعرفه التعريف التالي[٩٢] : « **فأما العلم بما غاب مما لا يدركه أحد بعيان ، مثل سرائر القلوب وما أشبهها ، فإنما يدرك علمها بآثار أفاعيلها وبالغالب من أمورها ... وأول العلم بكل غائب الظنون ، والظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل ، فكلما زاد الدليل قوي الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوك عن القلوب ...** »

وقال :[٩٣] « وقال أوس بن حجر :

مليح نجيح أخو مأزق نقاب يحدث بالغائب »

ولكن الجاحظ يدخل في الفراسة أيضاً « الفراسة في الحيوان » . ففي مواضع كثيرة من كتاب « الحيوان » ومن كتبه الأخرى يسرد الصفات التي يجب أن تتوفر في الأنواع المختلفة من الحيوان ليكون الحيوان أقوى قوة أو أسرع عدواً أو أهدى إلى غاية أو أصبر على المشاق أو أجمل شكلا الخ .. ويذكر أحياناً الطرق والأساليب التي تعرف بها هذه الصفات :

قال :[٩٤] « قال (أفليمون صاحب الفراسة) : جماع الفراسة (في الحمام) لا يخرج من أربعة أوجه : أولها التقطيع والثاني المجسّة والثالث الشمائل والرابع الحركة :

« فالتقطيع : ... الخ »

وقـال :[٩٥] « الأصمعي قـال : قـال ابن أقيصر☆ : خير الخيـل إذا استدبرته جنا وإذا استقبلته أقعى وإذا استعرضته استوى وإذا مشى ردى وإذا ردى دحا .

« ونظر ابن أقيصر إلى خيل عبد الرحمن بن أم الحكم فـأشـار إلى فرس منها فقال : تجيء هـذه سـابقـة ، قـالوا : وكيف ذلـك ؟ قـال : رأيتهـا مشت فكتفت وخبَّت فوجفت وعدت فنسفت »

فما مكان تلك العلوم العشرة أو الأحد عشر الملحقـة بعلم الفراسـة من علم الفراسة عند الجاحظ ؟

جاء في كتاب الحيوان تحت عنوان « باب آخر يـدّعونـه للفـأر »[٩٦] « وهو الذي ينظر فيه أصحاب الفراسة في قرض الفأر كما ينظر بعضهم في الخيلان وفي الأكتاف وفي أسرار الكف : ويزعمون .. »

وفي كتابات الجاحظ ، التي بين الأيدي ، نصوص يرد فيها ذكر هذه العلوم الملحقـة[٩٧] ، مـا عـدا علمي الريـافـة والاختـلاج ، ولكنهـا قليلـة ومقتضبة ومحدودة الدلالة وليس فيها ما يـدل على أن الجـاحـظ كان يرى فيها علوماً قريبة من علم الفراسة بله أن تكون ملحقـة بـه ـ إلا القيـافـة فقد قرنها بالفراسة في مواضع كثيرة فـاعترف بـذلـك بـالعروة الوثقى التي تربط بين هذين العلمين .

☆ ابن أقيصر أحد بني أسد بن خزيمة بصير بالخيل ـ جنا : أكب ، في أمـالي القـالي : « ويستحب من الفرس أن يكون إذا استدبرته كالمنكب » ـ في أمالي القالي : « الرديـان : أن يرجم الأرض رجماً بين المشي الشديـد والعدو ، وإذا رمى بيـديـه رمياً لا يرفع سنبكـه عن الأرض قيل : مرّ يـدحـو دحـواً » ـ كتفت : ارتفعت فروع أكتـافهـا ـ الـوجيف : ضرب من السير فيـه بعض السرعـة ـ النسوف من الخيل : الواسع الخطو (منقول عن حواشي المحقـق على « البيان والتبيين »)

الأمصار والبلدان

الجاحظ يرى أن البيئة ذات تأثير حاسم على طبائع قطانها من ناس وحيوان ، فتطبعهم جسدياً ونفسياً بطابعها الخاص :

يقول :[٩٨] « **ونسيت ، أبقاك الله ، عمل البلدان وتصرف الأزمان وآثارهما في الصور والأخلاق وفي الشمائل والآداب وفي اللغات والشهوات وفي الهمم والهيآت وفي المكاسب والصناعات .. »**

والبيئة الطبيعية إنما هي الشمس وحرارتها والأهوية والمياه والتربة :

قال :[٩٩] « فالسواد والبياض إنما هما من قبل خلقة البلدة وما طبع الله عليه الماء والتربة ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها ولينها .. »

وقال ، وهو يتحدث عن المسخ إمكانه وامتناعه ، ناقلاً قول من يرى إمكانه نتيجة فساد يطرأ على البيئة :[١٠٠] « .. **لا ننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام** كما عمل ذلك في طباع الزنج وطباع الصقالبة .. »

وقد كرر الجاحظ في كتاباته ذكر بلاد الترك وحرة بني سُليم مثلاً لقوة تأثير المصر لا على سكانه الأصليين فقط ولكن على الطارئين عليه من الناس أيضاً وعلى دوابه وطيره وهوامه وكل شيء فيه :

قال :[١٠١] « وإنما خصوا (الترك) بالحنين من بين جميع العجم لأن في تركيبهم وأخلاط طبائعهم من تركيب بلدهم وتربتهم ومشاكلة مياههم

ومناسبة إخوانهم ماليس مع أحد سواهم .. وأنت لا تغلط في التركي ولا تحتاج فيه إلى قيافة ولا إلى فراسة ولا إلى مساءلة . ونساؤهم كرجالهم ، ودوابهم تركية مثلهم .

« وهكذا طبع الله تلك البلدة وقسم لتلك التربة . وجميع دور الدنيا و (من ؟) نشوها إلى منتهى قواها ومدة أجلها جارية على عللها وعلى مقدار أسبابها وعلى قدر ما خصها الله تعالى به وأبانها وجعل فيها ...

« وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسان لا تفصل بين من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فرغانة ، ولا ترى بينهم فرقاً في السبال الصهب والجلود القشرة والأقفاء العظيمة والأكسية الفرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النابتة » .

وقال(١٠٢) « إن في العرب قبائل سوداً كبني سليم بن منصور . وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود . وإنهم ليتخذون المماليك للرعي والسقاء والمهنة والخدمة من الأشبانيين ومن الروم نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبطن حتى تنقلهم الحرة إلى ألوان بني سليم . ولقد بلغ من أمر تلك الحرة أن ظباءها ونعامها وهوامها وذبابها وثعالبها وشاءها وحميرها وخيلها وطيرها كلها سود .. »

وتحدث الجاحظ في مواضع مختلفة من كتبه ورسائله عن الأمصار والبلدان : عن فساد هواء بعضها ومائه وتربته حتى ليكاد يخرج بإنسانه وحيوانه عن طبيعة نوعه وهيأته(١٠٣) . وأن بعض البلدان ذوات روائح طيبة ويزداد الطيب فيها طيباً ، وبعضها ذوات روائح فاسدة والطيب

سريعاً ما يفسد فيها[١٠٤] . وأن بعض المدن تزيد في قوة الإنسان ومنّته وأخرى تنقص من عقله وفهمه[١٠٥] . وينقل عن أبقراط قوله[١٠٦] : « يداوى كل عليل بعقاقير أرضه فإن الطبيعة تتطلع لهوائها وتنزع إلى غذائها » . ويأتي بطرائف وغرائب من مثل[١٠٧] : « ألا ترى أنهم يزعمون أن من دخل أرض تُبَّت لم يزل ضاحكاً مسروراً من غير عجب حتى يخرج منها » .

والخلاصة إن الجاحظ يجعل من العامل الجغرافي ـ كما يقال اليوم ـ العامل الأول والأساسي في نشوء الأمم وإعطائها خصائصها الجسدية والعقلية ، فالوطن يصهر الشعوب المختلفة الأصول ثم يسبكها أمة واحدة ، كما فعلت الجزيرة العربية بشعبي قحطان وعدنان :[١٠٨] « العرب كلهم شيء واحد ، لأن الدار والجزيرة واحدة ، والأخلاق والشيم واحدة ، واللغة واحدة ، وبينهم من التصاهر والتشابك ... **ثم المناسبة التي بنيت على غريزة التربة وطباع الهواء والماء** ، فهم في ذلك بذلك شيء واحد ... »

الشعوب والأمم

الأمم عند الجاحظ أربع : العرب والفرس واليونان والهند ، هذا حين ينظر إلى الحضارة والحكمة والعلم والأدب والبلاغة . ولكنه يقف طويلاً عند الترك وأهل الصين والسودان ، ويمر على ذكر القبط والحبش وأهل الزابج والصقالبة والأشبانيين والفرنجة . ويخص كل أمة بخصائص ويصفها بأوصاف :[١٠٩] فللعرب الشعر والخطابة والبلاغة ، ولليونان الحكمة وصناعة المنطق والعلم ، وللفرس الملك والإدارة ، وللهند الحكمة والحساب والفلك ، والترك لهم الحرب ، والصين لهم الصناعة الخ ..

ويفصل القول في صفة طبائع هذه الأمم واختصاصاتها :

فيقول مثلاً في اليونانيين وكثيراً ما يقرنهم بالصينيين من حيث هما نموذجان لأمتين إحداهما نظرية والأخرى عملية :[١١٠] «ألا ترى أن اليونانيين الذين نظروا في العلل لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً بأكفهم ولا أصحاب زرع ولا فلاحة وبناء وغرس ، ولا أصحاب جمع ومنع وحرص وكدّ . وكانت الملوك تفرغهم وتجري عليهم كفايتهم . فنظروا حين نظروا بأنفس مجتمعة وقوة وافرة وأذهان فارغة ، حتى استخرجوا الآلات والأدوات ...

« وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا فعلة يصورون الآلة ويخرطون الأداة ويصوغون المثل ولا يحسنون العمل بها ، ويشيرون إليها ولا يمسونها ويرغبون في العلم ويرغبون عن العمل .

« فأما سكان الصين فهم أصحاب السبك والصياغة والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة وأصحاب الخرط والنحت والتصاوير والنسخ والخط ورفق الكف في كل شيء يتولونه ويعانونه وإن اختلف جوهره وتباينت صنعته وتفاوت ثمنه .

« ... لأن أولئك حكماء وهؤلاء فعلة » .

ولم يقف الجاحظ عند الأمم الكبرى وحدها ولكنه ذكر الجماعات الإنسانية الأضيق نطاقاً أيضاً :

فذكر مثلاً الشام والعراق والحجاز فنقل قول عبد الملك بن مروان في صفة روح بن زنباع[١١١] : « جمع أبو زرعة طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز » . ووصف الأهواز وأهلها[١١٢] ، وأنباط

بيسان[١١٣] ، وبخل أهل خراسان ومرو منها خاصة[١١٤] . وأقام منافرة بين البصرة والكوفة[١١٥] الخ ..

وكتب في شعبي العرب الكبيرين : قحطان وعدنان[١١٦] ، ووصف قريشاً[١١٧] ، وبين صفات بطونها[١١٨] ، وألف في « فرق ما بين هاشم وعبد شمس »[١١٩] الخ ...

واستقى أبو عثمان معلوماته عن البلدان والشعوب من الكتب التي امتلأت بها أسواق الوراقين في البصرة وبغداد ، ومن المساجد والأسواق والمجتمعات العامة في هاتين المدينتين اللتين كانتا محشراً للناس من كل لون وكل أمة ، ولا سيما من مصدر هام جداً هو الرقيق الذي كان يجلب إليهما من أقصى المعمورة جنوباً من الزنج إلى أقصاها شمالاً من الصقالبة ومن غاية شرقها من الترك والسند إلى نهاية غربها من الفرنجة والإشبانيين ... فوصف لنا تصرف أنواع الرقيق وما يحسنون من المهن وقدراتهم على مواجهة الظروف الجديدة عليهم . وأكتفى بالنص التالي[١٢٠] :

« .. وأصحاب الإبل يرغبون في اتخاذ النوبة والبربر والروم للإبل ، يرون أنهم يصلحون على معايشها وتصلح على قيامهم عليها ...

« فأما السند فإن السندي صاحب الخُرْبَة إذا صار إلى البدو وهو طفل خرج أفصح من أبي مهدية ومن أبي مطرف الغنوي . ولهم طبيعة في الصرف لا ترى بالبصرة صيرفياً إلا وصاحب كيسه سندي . واشترى محمد بن السكن أبا روح [فرجاً] السندي فكسب له المال العظيم . فقل صيدلاني عندنا إلا وله غلام سندي . فبلغوا أيضاً في البربهار والمعرفة بالعقاقير وفي صحة المعاملة واجتلاب الحرفاء مبلغاً حسناً . وللسند في الطبخ طبيعة ما أكثر ما ينجبون فيه .

« وقد كان يحي [بن خالد] أراد أن يحول إجراء الخيل عن صبيان الحبشان والنوبة إلى صبيان السند فلم يفلحوا فيه . [وأراد تحويل رجال السند إلى موضع الفراشين من الروم فلم يفلحوا فيه] . وفي السند حلوق جياد وكذلك بنات السند » .

الأمزجة والطباع

قال الجاحظ(١٢١) : « أو ما علمت أن الإنسان ... إنما سموه العالم الصغير سليل العالم الكبير لما وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير . ووجدنا (وجدوا) له الحواس الخمس ووجدوا فيه المحسوسات الخمس . ووجدوه يأكل اللحم والحب ، ويجمع بين ما تقتاته البهيمة والسبع . ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد وغدر الذئب وروغان الثعلب وجبن الصِّفْرِد☆ وجمع الذرّة وصنعة السُّرفة وجود الديك وإلف الكلب واهتداء الحمام . وربما وجدوا فيه مما في البهائم والسباع خلقين أو ثلاثة ...

« ... وفيه الصفراء وهي من نتاج النار وفيه السوداء وهي من نتاج الأرض وفيه الدم وهو من نتاج الهواء وفيه البلغم وهو من نتاج الماء ...

« فجعلوه العالم الصغير إذ كان فيه جميع أجزائه وأخلاطه وطبائعه : ألا ترى أن فيه طبائع الغضب والرضا وآلة اليقين والشك .. (ثم يمضي فيسرد عدداً كبيراً من الأضداد من الصفات العقلية والخلقية) .. »

☆ الصفرد : طائر جبان ـ السرفة : دويبة تتخذ بيتاً من دقاق العيدان فتدخله وتموت (القاموس)

هذا نص هام في أوجه مما نحن فيه من الفراسة ، وبخاصة في مسألة الأمزجة والطباع . فأبو عثمان ، كما هو واضح ، يقول بالطبائع الأربع التي يردها إلى الأخلاط الأربعة التي يرجعها إلى الأركان الأربعة : النار والأرض والهواء والماء . إنه لم يأت ، فيما بين الأيدي من كتاباته ، بنظرية مكتملة في الأمزجة وأنواعها والسمات الجسدية والصفات الأخلاقية والعقلية لكل مزاج منها ، ولكننا نعثر على نصوص تدل على أنه كان على علم بهذه النظرية المعروفة لدى أطباء زمانه ، مثل هذا النص :[١٢٢] « .. إن داء الحزن وإن كان قاتلاً فإنه داء مماطل وسقمه سقم مطاول ومعه من التمهل بقدر قسطه من أناة المرة السوداء . وداء الغيظ سفيه طياش وعجول فحاش يُعجل عن التوبة ويقطع دون الوصية ومعه من الخرق بقدر قسطه من التهاب المرة الحمراء .. »

ولكل إنسان ، برأي الجاحظ ، طبعه الخاص ، وهو على هدى إذا أخذ في اتجاه طبعه وفي نجح وروح ، ويتخبط ويضل إذا خالفه ، والمرء لا يأبق من طبعه :

قال[١٢٣] : « قد زعم أناس أن كل إنسان فيه آلة لمرفق من المرافق وأداة لمنفعة من المنافع ، ولابد لتلك الطبيعة من حركة وإن أبطأت ولابد لذلك الكامن من ظهور ، فإن أمكنه ذلك بعثه وإلا سرى إليه كما يسري السم في البدن ... ولذلك صار طلب الحساب أخف على بعضهم وطلب الطب أحب إلى بعضهم وكذلك النزاع إلى الهندسة وشغف أهل النجوم بالنجوم . وكذلك أيضاً ربما تحرك له بعد الكَبْرة وصرف رغبته إليه بعد الكهولة على قدر قوة العرق في بدنه وعلى قدر الشواغل له وما يعترض عليه .. وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم ، ثم

لا تدري كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر إلا بجملة من القول ، ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض يعلم لم اختار ذلك في جملة ولا تفسير ... وليس العجب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور ويحركه في بعض الجهات ، ولكن العجب ممن يموت مغنياً وهو لا طبع له في معرفة الوزن وليس له جرم☆ حسن فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغني خاصة أن يكون مطرباً ومغني عامة .. »

وفي اختلاف طبائع الأفراد ، كما في اختلاف طبائع الأمم ، حكمة ومصلحة للعالمين :

قال أبو عثمان(١٢٤) : « اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر والضار بالنافع والمكروه بالسار والضعة بالرفعة والكثرة بالقلة . ولو كان الشر صرفاً هلك الخلق ، أو كان الخير محضاً سقطت المحنة وتقطعت أسباب الفكرة ، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز ، ولم يكن للعالِم تثبت وتوقف وتعلم ، ولم يكن علم ولا يعرف باب التبيّن ... وعادت الحال إلى حال السبع والبهيمة وإلى حال الغباوة والبلادة وإلى حال النجوم في السخرة ...

« ولو استوت الأمور بطل التمييز ، وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة ، ولو كان ذلك لبطلت ثمرة التوكل على الله تعالى .. »

ويلوح من هذا النص أيضاً أن أبا عثمان لا يجعل من الطبائع قدراً مقدوراً بل إن للإنسان حرية بها يحصل التكليف ويكون الجزاء - وإلا لم

☆ الجرم : الصوت

يكن معتزلياً . ويتضح ذلك أكثر في قوله[١٢٥] : « والعادة القائمة والنسق الذي لا يتخطى ولا يغادر والنظام الذي لا ينقطع ولا يختلط في ذوي التمكين والاستطاعة وفي ذوي العقول والمعرفة ، أن أبدانهم متى أحست بأصناف المكروه والمحبوب ، وازنوا وقابلوا وعايروا وميزوا بين أتم الخيرين وأنقص الشرين ... واختاروا بعد ذلك أتم الخيرين وأنقص الشرين ، فأما الشر صرفاً والخير محضاً فإنهم لا يتوقفون عندهما ... وإنما ينظرون في الممزوج .. »

والعقل الذي هو أداة التمييز والاختيار لا يقوم العقل الغريزي منه وحده لشهوات الإنسان وطبائعه بل لا بد من شد أزره بالنظر والعلم والتجربة وهو العقل المكتسب :

قال :[١٢٦] « .. ولن تفي قوة غريزة العقل بجميع قوى طبائعه وشهواته حتى يقيم ما اعوج منها ويسكن ما تحرك ، دون النظر الطويل الذي يشدها والبحث الشديد الذي يشحذها والتجارب التي تحنكها .. » . وقال أيضاً :[١٢٧] « وقد أجمعت الحكماء أن العقل المطبوع والكرم الغريزي لا يبلغان غاية الكمال إلا بمعاونة العقل المكتسب ، ومثلوا ذلك بالنار والحطب والمصباح والدهن ، وذلك أن العقل الغريزي آلة والمكتسب مادة .. »

ويلحق بمسألة الطباع مسألة « إنضاج الأرحام » . نقل الجاحظ عن أبي إسحاق النظام قوله : « إن الأمة التي لم تنضجها الأرحام ، ويخالفون في ألوان أبدانهم وأحداق عيونهم وألوان شعورهم سبيل الاعتدال ، لا تكون عقولهم وقرائحهم إلا على حسب ذلك ، وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم وشمائلهم وتصرف هممهم في لؤمهم وكرمهم لاختلاف السبك

وطبقات الطبخ وتفاوت ما بين الفطير والخمير والمقصر والمجاوز ، وموضع العقل عضو من الأعضاء وجزء من الأجزاء ، كالتفاوت الذي بين الصقالبة والزنوج » .

ويلحق بها كذلك ماتزعمه العرب للإسقاط والإتآم واليتن والغيلة من نقص في تكوين الطفل وقوته ، ومالحمل في أول الهلال أو المحاق من تأثير على بنية الطفل . قال أبو عثمان :[١٢٩] « وتزعم الأعراب والعرب أن النطفة إذا وقعت في الرحم في أول الهلال خرج الولد قوياً ضخماً وإذا كان في المحاق خرج ضئيلاً شختاً ، وأنشد قول الشاعر :

لقحت في الهلال عن قُبُل الطهر وقد لاح للصباح بشير
ثم نمّى ولم يُراضع فَلُوّاً☆ ورضاع المُجِحّ عيب كبير » .

النقص والتعويض

واهتم الجاحظ بأصحاب العاهات والزمنى وذوي النقص والدمامة ، وأي شيء لم يثر اهتمام أبي عثمان ويبعثه على التنقير والبحث ؟ ، فكتب كتابه « البرصان والعرجان والعميان والحولان » والعور والحدب ومن سقي بطنه والجذم والعسر والقرعان والصلعان والمفاليج ومن أصيب باللقوة والشط والسنوط والفقم والثرم والوقص والزرق والقصار والمهزولون الخ ..

وما اجتلب ذكر هؤلاء الزمنى ، كما يقول في مقدمة كتابه ، إلا :[١٣٠] « ليجعل ذاك سبباً إلى ... وإلى أن جماعة فيهم كانوا يبلغون مع العَرَج مالا يبلغه عامة الأصحّاء ومع العمى يدركون مالا يدركه أكثر البصراء ؛

☆ فلا الصبي فلواً عزله عن الرضاع أو فطمه ـ أجحّت المرأة حملت فأقربت وعظم بطنها فهي مُجحّ (القاموس)

ولما جاء أيضاً في ذلك من الأشعار الصحيحة ومن الأمثال المضروبة ..، وكيف جزع من جزع وصبر من صبر ، ومارووا في ذلك من الأخبار النافعة والأحاديث السائرة ..، وكيف تبين ذلك النقص وظهر ذلك الخلل على بعض ولم يتبين على بعض » . فقد كان له إذن هدف أدبي وهدف أخلاقي ، وهذا الهدف الثاني هو الذي يهمنا في علم الفراسة لأنه هو الذي يكشف عن موقف هؤلاء المنقوصين من نقصهم وعن درجة تغلبهم عليه أو سقوطهم تحت ثقله .

وفي قليل من الأخبار والأقوال والأشعار أنقلها عنه كفاية للتمثيل :

قال :(١٣١) « وخطب الطائي الأعرج (عدي بن عمرو) امرأة فشكت عرجه إلى جاراتها فأنشأ يقول :

تشكّى إلى جاراتها وتعيبني فقالت معاذ الله أنكح ذا الرِّجْلِ
فكم من صحيح لو يوازن بيننا لكنا سواء أو لمال به حملي »

وقال :(١٣٢) : « وكان أوفى (بن موألة) على شرفه وسؤدده قصيراً نحيفاً ، وهو الذي يقول :

إذا كنت قصداً في الرجال فإنني إذا حل أمر ساحتي لجسيم »

وقال :(١٣٣) « وأما من فخر بالعمى فمنهم بشار بن برد ... وهو الذي يقول :

إذا ولد المولود أعمى وجدته وجدّك أهدى من بصير وأحولا
عميت جنيناً والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم معقلا
وغاض ضياء العين للعلم رافد وقلب إذا ما ضيع الناس حصّلا
وشعر كنور الروض لاءمت بينه بقول إذا ماأحزن الشعر أسهلا »

وفي هذه المواقف اعتدال وإجمال وفخر مقتصد ، ولكنها قد لا تكون دائماً كذلك فتتجاوز القصد إلى الغلو والمبالغة فتثير الابتسام أو العجب أو السخرية أو الإنكار . ولا نكاد نقع في كتابات أبي عثمان على ما قد تخلفه العاهة في صاحب العاهة من شذوذ أو اندفاع إلى الشر والأذى والتعذيب الذي قد يتجه إلى الشخص ذاته :

قال :(١٣٤) « ويكون الأعرابي شختاً مهزولاً ومقرقماً ضئيلاً فيجعل ذلك دليلاً على كرم أعراقه وشرف ولادته . قال الأصمعي : قلت لغلام أعرابي : مالي أراك ضعيفاً نحيفاً وصغير الحجم قليلاً مهزولاً ؟ قال : قرقمني العز .. وأنشدوا :

قرقمني العز وأضواني الكرم »

وقال :(١٣٥) « قالوا : ولما شاع هجاء الحكم بن عبدل الأسدي لمحمد بن حسان بن سعد وغيره من الولاة والوجوه هابه أهل الكوفة ... وكان الحكم أعرج لا تفارقه عصاه . فترك الوقوف بأبوابهم ، وصار يكتب على عصاه حاجته ويبعث بها مع رسوله ، فلا يحبس له رسول ولا يؤخر عنه لقراءة الكتاب ، ثم تأتيه الحاجة على أكثر مما قدر وأوفر مما أمل . فقال يحي بن نوفل :

عصا حكم في الدار أول داخل
ونحن عن الأبواب نقصى ونحجب »

وقال :(١٣٦) « قال لي ثمامة (بن أشرس) : رأيت جماعة نساء لم أر قط أحسن ولا أملح شكلاً ولا أظهر دلاً مع لباس وشارة ، وإذا فتيان من فتيان الغزل والجمال واليسار قد عارضوهن ، والتفتّ فإذا أنا بالمشمرخ الأحدب ، وإذا هو يتقدمهن مرة ويزاحمهن مرة ، وإذا هو في ذلك

يختال في مشيته ويخطر بكميه ، فأقبلت عليه واحدة منهن فقالت : عذرت هؤلاء الذين يُدِلّون بالشباب والجمال واليسار فقد أطمعهم ذلك فينا ، أنت بأي شيء تدل ؟ قال : بالبراعة والظرف ، قال : فضحكن منه وصار أكثر كلامهن معه دون جميع الناس وغلب عليهن وشغلهن » .

وقد مر الجاحظ على ذكر المشعِّبين وما يصنعون صنعاً من عاهات في الأطفال المعَدّين للكدية . ومن المؤسف أنه لم يذكر شيئاً عما تتركه هذه العاهات في نفوس هؤلاء الأطفال حين يكبرون وفي أخلاقهم وسلوكهم ، واكتفى بالحكم عن المشعبين وعلى آباء هؤلاء الأطفال الذين(١٣٧) « لا أدري أيهم أعظم كفراً وأقسى قلباً » .

ولكنه أطال الوقوف على تشويه آخر مصنوع هو الخصاء ، ووصف آثاره الجسدية والنفسية والخلقية . وهذه نصوص مختارة في هذا الموضوع ذات قيمة في أوجه مختلفة من علم الفراسة :

قال الجاحظ(١٣٨) « ... فإن الخصي يكون أنتن وصنانه أحدّ ويعم أيضاً خبث العرق سائر جسده حتى لتوجد لأجسادهم رائحة لا تكون لغيرهم .

« ... والإنسان إذا خصيَ طال عظمه وعرض ...

« وتعرض للخصيان أيضاً طول أقدام واعوجاج في أصابع اليد والتواء في أصابع الرجل وذلك في أول طعنهم في السن . وتعرض لهم سرعة التغير والتبدل وانقلاب عن حد الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته وكثرة الماء وبريقه إلى التكرش والكمود وإلى التقبض والتخدد ... »

وقال : « ... وليس بعد المنكح باب له موقع كموقع المطعم ، فاجتمعت تلك القوى التي كانت للمنكح ... إلى القوة التي عنده للمطعم ... ولذلك صار الخصي آكل من أخيه لأمه وأبيه ...

« ودوام الأكل في الإناث أعم منه في الذكور ... وما أشك أن الرجل يأكل في المجلس الواحد ما لا تأكل المرأة ، ولكنها تستوفي ذلك المقدار وتربي عليه مقطّعاً غير منظوم ... وهن يناسبن الصبيان في هذا الوجه ... »

وقال : « ويعرض له ... تغير الصوت حتى لا يخفى على من سمعه من غير أن يرى صاحبه أنه خصي ...

« ومتى خُصي قبل الإنبات لم يُنْبِت ، وإذا خصي بعد استحكام نبات الشعر في مواضعه تساقط كله إلا شعر العانة ... ولا يعرض ذلك لشعر الرأس ، فإن شعر الرأس والحاجبين وأشفار العينين يكون مع الولادة وإنما يعرض لما يتولد من فضول البدن ... وهذه الخصال من أماكن شعر النساء ... ألا ترى أن المرأة لا تصلع فناسبها الخصي من هذا الوجه ... »

وقال : « والخصاء ينقص من شدة الأسر وينقض مبرم القوى ويرخي معاقد العصب ويقرب من الهرم والبلى ...

« والخِصيان مع جودة آلاتهم ووفارة طباعهم في معرفة أبواب الخدمة وفي استواء حالهم في باب المعاطاة لم تر أحداً منهم قط نفذ في صناعة تنسب إلى بعض المشقة وتضاف إلى شيء من الحكمة مما يعرف ببعد الروية والغوص بإدامة الفكرة ... »

وقال : « ويعرض للخصي العبث واللعب بالطير وما أشبه ذلك من أخلاق النساء وهو من أخلاق الصبيان أيضاً

« ويعرض له الشره عند الطعام والبخل عليه والشح العام في كل شيء وذلك من أخلاق الصبيان ثم النساء ...

« ويعرض للخصي سرعة الغضب والرضا وذلك من أخلاق الصبيان والنساء . ويعرض له حب النميمة وضيق الصدر بما أودع من السر وذلك من أخلاق الصبيان والنساء . ويعرض له ... البصر بالرفع والوضع والكنس والرش والطرح والبسط والصبر على الخدمة وذلك يعرض للنساء .

« ويعرض له الصبر على الركوب والقوة على كثرة الركض حتى يجاوز في ذلك رجال الأتراك وفرسان الخوارج ..

« ويعرض له حب الرمي بالنشاب ... ويعرض له حب أن تملكه الملوك على ألا تقيم له إلا القوت ويكون ذلك أحب إليه من أن تملكه السوقة وإن ألحقته بعيش الملوك ...

« ويزعم كثير من الشيوخ المعمرين وأهل التجربة المميزين أنهم اختبروا أعمار ضروب الناس فوجدوا طول الأعمار في الخصيان أعم منه في مثل أعدادهم من جميع أجناس الرجال .. »

وقال : « ولفرط إرادتهم النساء وبالحسرة التي نالتهم ... أبغضوا الفحول بأشد من تباغض الأعداء فيما بينهم ... وبغض الخصي للفحل من شكل بغض الحاسد لذي النعمة وليس من شكل ما يولده التنافس وتلحقه الجنايات » .

وقال : « ولرجال كل فن وضرب من الناس ضرب من النسك ، إذ لا بد لأحدهم من النزوع ومن ترك طريقته الأولى : فنسك الخصي غزو الروم ، فظن عند ذلك أهل الفراسة أن سبب ذلك إنما كان لأن الروم لما كانوا هم الذين خصوهم كانوا مغتاظين عليهم ... ونسك المغني أن يكثر التسبيح وهو يشرب النبيذ والصلاة على النبي ﷺ والصلاة في جماعة ... ونسك المتكلم التسرع إلى إكفار أهل المعاصي وأن يرمي الناس بالجبر أو بالتعطيل أو بالزندقة يريد أن يوهم أموراً : منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه للدين ... ومنها أن يقال لو كان نطفاً أو مرتاباً أو مجتنحاً على بلية لما رمى الناس ولرضي منهم بالسلامة .. ولم نجد في المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوباً ممن يرمي خصمه بالكفر » .

و « نص النسك » هذا ينقلنا من النقص الجسدي وما يولد من اتجاهات في التفكير والأخلاق إلى النقص النفسي أو النقص الاجتماعي ، وهو النقص الذي يجده المرء في باطنه ، وما يكون انعكاسه على النفس والسلوك . فالمغني مثلاً الذي طالما لغا لسانه بما يعده هو والمجتمع معصية كأنه حين نسك يريد أن يطهر هذا اللسان بذكر الله والصلاة على رسوله . والمتكلم الذي يضطرب الشك في أعماق نفسه فكأنه يريد أن يسكت هذا الشك في نفسه أو يقنع نفسه والآخرين بامحاء هذه الشكوك فيسارع إلى إلقاء مافي نفسه على الآخرين .

ونص الجاحظ يوحي بأن هؤلاء النساك على علم بما يعتمل في أعماقهم أي إنهم إذن مراؤون ، ولكن هذا العلم بأعماق النفس قد لايكون وهذا مايدعوه الصوفية : الرياء الخفي .

وفي كتابات الجاحظ نصوص كثيرة في المسالك التي يسلكها الإنسان وتكون تعبيراً إيجابياً أو سلبياً عن نقص معنوي يشعر به أو قد شعر به ثم غاب عنه ، منها :

قوله[١٣٩] : « وأنا أحذرك من اللجاج .. فإن اللجاج لايكون إلا من خلل القوة وإلا من نقص في التمكين ، واللجوج في معنى المغلوب .. ولا يكون إلا والعقدة منحلة والنفس منقوصة .. »

وقوله[١٤٠] : « والنبيل لايتنبّل كما أن الفصيح لايتفصح ، لأن النبيل يكفيه نبله عن التنبل والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصح . ولم يتزيد أحد قط إلا لنقص يجده في نفسه ولا تطاول متطاول إلا لوهن قد أحس به في قوته » .

وقوله[١٤١] : « والكبر في الأجناس الذليلة من الناس أرسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم ، فصار لايعرف ذلك إلا أهل المعرفة ...

« والجملة أن كل من قدر من السّفلة والوضعاء والمحقّرين أدنى قدرة ظهر من كبره على من تحت قدرته ... مالا خفاء به ...

« وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكة من الحر .

« وشيء قد قتلته علماً وهو أني لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه » .

وما نقله من قول عمر[١٤٢] : « ما وجد أحد في نفسه كبراً إلا من مهانة يجدها في نفسه » .

ومن مقالة معاوية لابن الأشعث[١٤٣] : « وأذن معاوية للأحنف بن قيس ، وقد وافى معه محمد بن الأشعث ، ثم أذن له فقدمه عليه ، فوجد من ذلك محمد بن الأشعث ، ثم أذن له فدخل ، فجلس بين معاوية والأحنف . فقال له معاوية : إنا والله ما أذنا له قبلك إلا ليجلس إلينا دونك ، وما رأيت أحداً يرفع نفسه فوق قدرها إلا من ذلة يجدها ، وقد فعلت فعل من أحس من نفسه ذلاً وضعة .. »

فروق مابين الجنسين

للجاحظ في موضوع المرأة ثلاثة كتب : كتاب الجواري والغلمان[١٤٤] ـ وكتاب القيان[١٤٥] ـ وكتاب النساء . أما الأول والثاني فيصفان ظواهر ويعالجان مشكلات في المجتمع الذي عاش فيه الجاحظ مثل الشذوذ الجنسي والمتاجرة بغناء القيان وجمالهن وإغرائهن ورقابهن . وأما الثالث فالذي بقي منه حطام كتاب[١٤٦] : شيء عن الحب والعشق وشيء عن جمال المرأة وأن الرجل أدرى بجمال المرأة من المرأة بالمرأة ، بل إن فيه شيئاً عن ضرورة وجود السلطان لإصلاح العامة ، ثم لانعثر بين هذا الحطام على شيء في الموضوع الأصلي للكتاب الذي حدده الجاحظ نفسه في الكتاب ذاته حين قال[١٤٧] : « كنا نحب أن يخرج هذا الكتاب تاماً ويكون للأشكال الداخلة فيه جامعاً ، وهو القول فيما للذكور والإناث في عامة أصناف الحيوان ... فمنع من ذلك فرط الكبرة وإفراط العلة وضعف المنة وانحلال القوة .

« فلما وافق هذا الكتاب منا هذه الحال .. اجتنبنا (أحببنا) أن نقصد من جميع ذلك إلى **فرق مابين الرجل والمرأة** ... »

ـ أقول : لانعثر بين الحطام على شيء من « فرق مابين الرجل والمرأة » إلا أن يكون هذا القول العام[١٤٨] : « ونحن وإن رأينا أن فضل الرجل على المرأة ، في جملة القول في الرجال والنساء ، أكثر وأظهر ، فليس ينبغي لنا أن نقصر في حقوق المرأة . وليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات . وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم » .

ولذلك ماكان من إطالة مانقلت من نص « مايعرض للخصيان » ، فهو من بين مابقي من كتابات الجاحظ أوسع نص حديثاً في صفة النساء وأخلاقهن ومداركهن . ففيه يذكر أبو عثمان شيئاً عن منابت شعر النساء وامتناعهن على الصلع ، وما يراه في شرههن عند الطعام وبخلهن عليه وبخلهن عامة وحبهن للغيبة والنميمة وضيق صدورهن بالسر وسرعة غضبهن ورضاهن وبصرهن بالخدمة وأعمال البيت عامة وصبرهن عليها ...

فروق مابين الأسنان

وداع آخر هو مافي هذا النص من مقارنة بين هذه الأخلاق وأخلاق الصبيان ، إذ النصوص التي تعرض للفروق بين الأسنان : من الطفولة والشباب إلى الكهولة والشيخوخة نادرة فيما بين الأيدي من كتابات الجاحظ على الرغم مما أبداه من اهتمام بهذا الموضوع حين قال[١٤٩] : « فمن الأبواب الكبار (في الحيوان) القول في فصل مابين الذكورة والإناث وفي فصل مابين الرجل والمرأة خاصة .

« وقد يدخل في القول في الإنسان ذكر اختلاف الناس في الأعمار » .

فليس إلا أقوال في الشيخوخة ، وما أكثر ما في الشعر العربي من الشكوى من الشيخوخة ، ولكن بعض هذه الأقوال يدقق في وصف بعض آثار الشيخوخة ويحاول تبيين أسبابها مثل(١٥٠) :

« قال أبو إسحاق : وقد غلط أيضاً كثير منهم فزعموا أن طباع الشيخ البلغم ، ولو كان طباعه البلغم ، والبلغم لين رطب أبيض ، لما ازداد عظمه نحولاً ولونه سواداً وجلده تقبضاً .

« وقال النمر بن تولب :

كأن محطاً☆ في يدي حارثية صناع علت مني به الجلد من عل

وقال الراجز :

وكثرت فواضل الإهاب

« قال : ولكنهم لما رأوا بدنه يتغضن ويظهر من ذلك التغضن رطوبات بدنية كالبلغم في الفم والمخاط السائل في الأنف والرمص والدمع في العين ، ظنوا أن ذلك لكثرة ما فيه من أجزاء الرطوبات ، وأرادوا أن يقسموا الصبا والشباب والكهولة والشيخوخة على أربعة أقسام كما تهيأ لهم ذلك في غير باب .

« وإذا ظهرت تلك الرطوبات فإنما هي لنفي اليبس لها ولعصره قوى البدن . ولو كان الذي ذكروا لكان دمع الصبا أكثر ومخاطه أغزر ورطوباته أظهر . وفي البقول والرياحين والأغصان والأشجار ذلك إذ كانت في الحداثة أرطب وعلى مرور السنين والأيام أيبس » .

☆ المحط : الحديدة تكون مع الخرازين ينقشون بها الأديم (عن حاشية المحقق)

مشابهة الإنسان للحيوان

قال الجاحظ في نص « العالم الصغير »(١٥١) : « أو ماعلمت أن الإنسان .. إنما سموه العالم الصغير ... ووجدوا فيه صولة الجمل ووثوب الأسد ... وربما وجدوا فيه مما في البهائم والسباع خلقين أو ثلاثة ، ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصولته وحقده وصبره على حمل الثقل ، ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل غدره ومكره واسترواحه وتوحشه وشدة نكره » .

فالإنسان برأي الجاحظ فيه من كل حيوان ، وقد تغلب عليه الصفة أو الصفات من حيوان معين ولكنه لا يبلغ فيها مبلغ هذا الحيوان .

وقد حددت الأمثال السائرة ماالستقر في أذهان الناس لكل حيوان من صفة غالبة . فإذا أطلق المثل على إنسان تحددت الصفة المشتركة بينه وبين هذا النوع من الحيوان :

قال(١٥٢) : « يقال : أجرأ من الليث ، وأجبن من الصفرد ، وأسخى من لافظة ، وأصبر على الهون من كلب ، وأحذر من عقعق ، وأزهى من غراب ، وأصنع من سرفة ، وأظلم من حية ، واعذر من الذئب ، وأخبث من ذئب خمر ، وأشد عداوة من عقرب ، وأروغ من ثعلب ، وأحمق من حبارى ، وأهدى من قطاة ، وأكذب من فاختة ، وألأم من كلب على جيفة ، وأجمع من ذرة ، وأضل من حمار أهلي ، وأعق من ضب ، وأبر من هرة ، وأنفر من الظليم ، وأضل من وَرَل☆ ، وأضل من ضب ، وأضل من الحية .. »

☆ الورل : دابة كالضب (القاموس)

بل إن القبائل والشعوب قد تغلب عليها صفات نوع معين من الحيوان :

قال[١٥٣] : « وبنو أسد أسد الغياض وأشبه شيء بالأسد ، فلذلك تشتهي من اللحمان أشهاها إلى الأسد . والدليل على أنهم أسد وفي طباع الأسد أنك لو أحصيت جميع القتلى من سادات العرب ومن فرسانهم لوجدت شطرها أو قريباً من شطرها لبني أسد » .

وقال[١٥٤] : « الغراب من لئام الطير .. ومن ذوات البراثن الضعيفة .. ومن ذوات المناقير .. وهو مع أنه قوي النظر لايتعاطى الصيد .. وهو فسل إن أصاب جيفة نال منها وإلا مات هزالا ...

« وهو مع ذلك يكون حالك السواد شديد الاحتراق . ويكون مثله من الناس الزنج فإنهم شرار الناس وأردأ الخلق تركيباً ... »

بل إن بعض الأمم قد ارتبطت بأنواع معينة من الحيوان حتى أصبحت رموزاً لها ، كارتباط الفرس بالديك وارتباط العرب بالكلب . وما المفاخرة التي أقامها الجاحظ بين صاحب الديك وصاحب الكلب إلا رمز لما كان يشور من منافرات بين العرب والشعوبية . وترجع هذه الارتباطات إلى عقائد دينية أو ضرورات معاشية : فللديك قداسته عند المانوية[١٥٥] : « (فـ) العوام تقضي على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة » ، وله فائدته المعاشية عند اصحاب الحرث ، على حين لا يستغني الرعاة عن الكلب .

وقد يشابه بالمقابل الحيوان الإنسان كما نقل الجاحظ عن[١٥٦] : « مثنى بن زهير ، وهو إمام الناس في البصرة بالحمام وكان جيد الفراسة حاذقاً بالعلاج ...

« قال مثنى بن زهير : لم أر شيئاً قط في رجل وامرأة إلا وقد رأيت مثله في الذكر والأنثى من الحمام : رأيت حمامة لاتريد إلا ذكرها كالمرأة لاتريد إلا زوجها وسيدها الخ .. »

ولكن الجاحظ اكتفى بعامة بالمشابه بين الإنسان والحيوان في الطباع والسلوك ولم يصلها بالمشابه الجسدية كما ينبغي في الفراسة وإن فعل ذلك أحياناً كما في « نص الغربان » ونصوص ، ذُكرت من قبل ، على بيئات قوية تطبع إنسانها وحيوانها بطابع واحد مثل بلاد الترك وحرة بني سليم .

ونصوص على بيئات فاسدة تكاد تمسخ صورة الإنسان(١٥٧) : « .. لاننكر أن يفسد الهواء في ناحية من النواحي فيفسد ماؤهم وتفسد تربتهم فيعمل ذلك في طباعهم على الأيام ...

« وقد خبرنا من لايحصى من الناس أنهم قد أدركوا رجالاً من نبط بيسان ولهم أذناب إلا تكن كأذناب التماسيح والأسد والبقر والخيل وإلا كأذناب السلاحف والجرذان فقد كان لهم عجوب طوال كالأذناب .

« وربما رأينا الملاح النبطي في بعض الجعفريات على وجهه شبه القرد .. »

ونصوص أخرى على الخلق المركب(١٥٨) : « وشر الطبائع ماتجاذبته الأعراق المتضادة والاخلاق المتفاوتة والعناصر المتباعدة ...

« وكذلك البغل : خرج من حيوانين يلدان حيواناً مثلهما ويعيش نتاجها ويبقى بقاءهما ، وهو لايعيش له ولد وليس بعقيم ولا يبقى للبغلة ولد وليست بعاقر ... وخرج أطول عمراً من أبويه وأصبر على الأثقال من أبويه .

« أو كابن المذكرة من النساء والمؤنث من الرجال ...

« وزعم عثمان بن الحكم : أن ابن المذكرة من المؤنث يأخذ أسوأ خصال أبيه وأردأ خصال أمه ، فتجتمع فيه عظام الدواهي وأعيان المساوي ، وأنه إذا خرج كذلك لم ينجع فيه أدب ولا يطمع في علاجه طبيب ... »

ففي هذه النصوص ما يشير إلى تبدلات جسدية أو تكوينات جسدية تصحبها تبدلات وصفات نفسية سلوكية تحدث في الإنسان والحيوان على السواء ويتشابه فيها الإنسان والحيوان .

المهن

ليس كالوصف الذي وضعه الجاحظ على لسان خالويه المكدي(١٥٩) يصف فيه تجربته في الحياة ومغامراته مع الناس وفي الآفاق ، وبخاصة حين يقول : « إني قد لابست السلاطين والمساكين وخدمت الخلفاء والمكدين وخالطت النساك والفتاك » ـ كلمة تصف معرفة أبي عثمان بطبقات مجتمعة وفئاته ومهنه . ففي كتاباته نلتقي بالمكدين والطفيليين .. والكناسين والحاكة والسماكين والصاغة والأكارين والرعاة .. والوكلاء والتجار والصيارفة .. والحجاب والكتاب وأمراء الجيوش والولاة والوزراء والخلفاء ، وبالفتاك واللصوص والشطار والمجان والزهاد والمتصوفة والفقهاء والقضاة والمتكلمين والشعراء والعلماء .. ـ نلقاهم في جدهم وهزلهم وفي مناظراتهم ومواعظهم وسمرهم ...

والمهن من ممارستها تكوّن أجساد العاملين فيها وعقولهم تكويناً خاصاً ، وكذلك المجتمع في مواقفه من المهن وتصنيفه لها رفعة وحطة وفيا

يتيح لأربابها من كسب وتعليم وماتقننه تقاليده من لباس وركاب يصوغ اهتماماتهم وأخلاقهم وسلوكهم وحركاتهم ولغتهم صياغة معينة . واذا كنا لا نجد فيا بقي من مؤلفات الجاحظ كل شيء عن المهن في مجتمعه وآثارها ففي النصوص التي نقع عليها فيها مقنع ودلالة كافية . ولو أن مؤلفاته وصلت إلينا كلها فلربما كانت تكتمل عندنا صورة المجتمع الذي عاش فيه بفئاته ومهنه كلها أو معظمها[١٦٠] .

فما قاله فيا تتركه المهنة من طابع على جسد صاحبها قوله[١٦١] : « وقد وصف عبيد الراعي كيف تتحول صورة الراعي وتتبدل خلقته . وكذلك **كل صناعة تصور صاحبها على ما يشاكلها** . ألا ترى أن الحائك يعرف بصُدرته وتفحُّج رجليه ولا يكون أبداً إلا وجلد بطنه أسود ـ وقال عبيد الراعي :

ترى وجهه قد شاب في غير لحية ... وذا لبد تحت العصابة أنزعا
ترى كعبه قد كان كعبين مرة ... وتحسبه قد عاش حولاً مكنعا☆

« وقال يزيد بن مفرغ ما يؤكد قولنا ويفسره :

يقولون أوس شاعر فاحذرنه ... وما أنا إن لم أهج أوساً بشاعر
رأيت لأوس خلقة فشنأتها ... لهازم☆☆ حراث وتقطيع جازر

« وقال آخر :

وصفت بجهدي وجه حفص وخلقه
فما قلت فيه واحداً من ثمانيه

☆ المكنع : المقيد (القاموس)

☆☆ اللهزمة : اللحمة الناتئة خلف الأذن (عن حاشية المحقق)

لهـــــازم أكار وخلقـــــة كافر وتقطيع كشخان ورأس ابن زانيـه
ولحيـــــة قـــواد وعيني مخنـــق . . . .
وراحـة صبـاغ وصـدرة حـائـك ومرفق سقط رُدّ في الرحم ثانيـه »

وفيما تعود عليه من كسب قال :[١٦٢] « ... ولم أر سقاء قط بلغ حـال اليسار والثروة . وكذلك ضراب اللبن والطيان والحراث ، وكذلك ما صغر من التجـارات والصنـاعـات . ألا ترون أن الأموال كثيراً مـا تكـون عنـد الكتاب وعنـد أصحـاب الجوهر وعنـد أصحـاب الوشي والأنمـاط ، وعنـد الصيارفة والحنـاطين ، وعنـد البحريين ... والجلاب أبـداً والبيـاذرة أيسر ممن يبتـاع منهم . وجمـل الأمـوال خلق بـأن تربـح الجمـل من تفـاريـق الأموال . وكذلك سبيل القصاب والجزار والشواء والبازيار والفهاد » .

وأما في التعليم فيقول الجاحظ[١٦٣] : « ووجدنا الأوائل كانوا يتخذون لأبنائهم من يعلمهم الكتابة والحساب ، ثم لعب الصوالجة و ... وبعد ذلك الفروسيـة واللعب بـالرماح والسيوف و ... ثم النجـوم واللحـون والطب والهندسة ، وتعلم النرد والشطرنج وضرب الدفوف وضرب الأوتار و ...

« ويأمرون بتعليم أبناء الرعية الفلاحة والنجارة والبنيان والصيـاغـة والخياطة والسرد والصبغ وأنواع الحياكة .. »

وإذا لم يحصل في تاريخ الإسلام أن وجد نظام ثابت للتعليم يفرضـه السلطان ، فالواقع الاجتماعي كان يصرف بعـامـة طبقـات المجتمع إلى أنواع من التعليم ودرجات تناسب كل طبقة طبقة منهـا على النحو الـذي نقلـه الجاحظ عن الأوائل أو نحو قريب منه ، فتختلف أفهامهم ومعارفهم تبعـاً لما فرضه هذا الواقع عليهم من تعليم .

فلا عجب وهذان هما مستويا أصحاب الحرف الدنيا في المعاش والتعليم أن ينحط مستوى تفكيرهم وأن يحكم عليهم المجتمع بالحمق والغباء .

قال الجاحظ[١٦٤] : « وقد سمعنا قول بعضهم : الحمق في الحاكة والمعلمين والغزالين . قال : والحاكة أقل وأسقط من أن يقال لهم حمقى ، وكذلك الغزالون ، لأن الأحمق هو الذي يتكلم بالصواب الجيد ثم يجيء بخطأ فاحش ، والحائك ليس عنده صواب جيد في فعال ولا مقال » .

ولا عجب أن يدور بين أفراد هذه الطبقة مثل الحوار الذي دار بين كناسي الكرخ وعريفهم ورواه لنا الجاحظ[١٦٥] .

ونقع في كتابات الجاحظ على نصوص تكشف عن موقف الطبقة الثرية من هذه الطبقة الفقيرة :

قال :[١٦٦] « سمعت شيخاً من مشايخ الأبلة يزعم أن فقراء أهل البصرة أفضل من فقراء أهل الأبلة ، قلت : بأي شيء فضلتهم ؟ قال : هم أشد تعظيماً للأغنياء وأعرف بالواجب .

« ووقع بين رجلين أبليين كلام ، فأسمع أحدهما صاحبه كلاماً غليظاً فرد عليه مثل كلامه . فرأيتهم قد أنكروا ذلك إنكاراً شديداً ولم أر لذلك سبباً . فقلت : لم أنكرتم أن يقول له مثلما قال ؟ قالوا : لأنه أكثر منه مالاً ، وإذا جوّزنا له جوزنا لفقرائنا أن يكافئوا أغنياءنا ، ففي هذا الفساد كله »

وكذلك نقع على نصوص أخرى تنطوي على أحكام قاسية على أخلاق أصحاب هذه المهن الدنيا :

قال :[١٦٧] « كما أن كل حجام في الأرض من أي جنس كان ومن أي بلد كان فهو يحب النبيذ ، وكما أن أصحاب الخلقان والسماكين والنخاسين والحاكة في كل بلد من كل جنس شرار خلق الله في المبايعة والمعاملة ، فعلمنا بذلك أن ذلك خلقة في هذه الصناعات وبنية في هذه التجارات حين صاروا من بين جميع الناس كذلك » .

وكل ما يتصف به أصحاب هذه المهن من صفات جسدية وعقلية وخلقية مترابطة فيما بينها يدل بعضها على بعضها ، وعلى هذا الترابط تقوم الفراسة .

ويلحق بأصحاب هذه المهن الدنيا فئات اجتماعية أخرى مثل المكدين والعيارين والطفيليين واللصوص الخ .. ولقد أوسع الجاحظ المكان في كتاباته لهده الفئات ، بل لقد خص بعضها بكتب قائمة برأسها وصف فيها أخلاقها وتصرفاتها وتقاليدها الخ ...

كما يقابل هذه الطبقات التي تترسب في قاع المجتمع طبقات أخرى تتصدره يمكن أن نميز فيها طبقتين : طبقة التجار والصيارفة والوكلاء . وطبقة عمال السلطان من حجاب وكتاب وقادة وولاة ووزراء .. وقد وصفها الجاحظ أيضاً وخص بعضها بكتب خاصة .

ولا أريد أن أتوقف عند هذه الطبقات الثرية ولا عند أولئك المتشردين والشذاذ فذلك بحث يطول .

ولكنني لا أريد أن أنهي هذا الجانب من البحث دون الإشارة إلى رسالة « صناعات القواد[١٦٨] » الهزلية الجدية الساخرة : فقد تصور أبو عثمان فيها أرباب مهن مختلفة خاضوا معركة حربية ثم أخذ كل واحد

منهم يصف هذه المعركة ، وأورد أبو عثمان أبياتاً في الغزل وضعها على لسان كل منهم ؛ فتتكشف في الوصف والغزل عقولهم وتصوراتهم وأساليبهم في التعبير ومعجم ألفاظهم التي صاغتها وفرضتها عليهم مهنهم المختلفة .

الهيأة وصفات الأعضاء

الاعتدال والتوازن والانسجام في الجسم وبين الأعضاء والجوارح والقسمات دليل عند الجاحظ على الاعتدال والتوازن والانسجام في النفس والتفكير والخلق :

قال أبو عثمان :[١٦٩] « وكان يقول (النظام) : إن الأمة التي لم تنضجها الأرحام ويخالفون في ألوانهم وأحداق عيونهم وألوان شعورهم سبيل الاعتدال لا تكون عقولهم وقرائحهم إلا على حسب ذلك ، وعلى حسب ذلك تكون أخلاقهم وآدابهم وتصرف هممهم في لؤمهم وكرمهم .. »

وقال :[١٧٠] « .. وفراسة الرجل السوء أن يكون منقبضاً غير منشرح وأن يرى لونه إلى الصفرة والكمود من غير مرض وأن يكون طائش القلب وأن يكون للدعابة والمزاح كارهاً له عائباً وأن تراه غليظ اللفظ عند المحاورة .

« ومن فراسة الرجل الصالح أن تراه سهلاً طلقاً ذا منظر بهي وكلام شهي سبط الجبين غير منقبض ولا نزق علق قلق وغير كارهٍ للدعابة والمزاح يذكر من يذكر بخير لين المحاورة متواضعاً »

أما في الألوان والأعضاء والجوارح ففي كتب الجاحظ أقوال كثيرة ومتناثرة تصفها وتصف المحمودة منها والمذمومة والممدوحة والمهجوة والمشؤومة وما يتوسم فيها الخير :

الألوان

كان العرب بعامة يتشاءمون بالصهب والحمر القشر :

قال أبو عثمان :(١٧١) « .. وقال الشاعر :

وخصم غضاب ينفضون رؤوسهم أولي قدم في الشغب صهب سبالها
ضربت لهم إبط الشمال☆ فأصبحت يرد عداة آخرين نكالها »

وقال :(١٧٢) « .. وكان النعمان أزرق أقشر أحمر العينين أحمر الحماليق . وفيه يقول أبو قردودة حين نهى ابن عمار عن منادمته :

إني نهيت ابن عمار وقلت له : لا تأمنن أحمر العينين والشَعَرَة »

وقال :(١٧٣) « وكنت أظن بالحمر الألوان التسرع والحدة فوجدت الحلم فيهم أعم . وكنت أظن بالسمان الخدال☆☆ العظام أن الفالج إليهم أسرع فوجدته في الذين يخالفون هذه الصفة أعم ».

الرؤوس

وكانوا يعيبون صغر الرأس :

قال :(١٧٤) « وممن يضاف إلى صغر الرأس ويعاب بذاك سنان بن سلمة الهذلي . وهو الذي قال له ابن راشد الجديدي : والله ما أنت بعظيم الرأس فتكون سيداً وما أنت بأرسح فتكون فارساً » .

وينعتونه برأس العصا :

☆ إبط الشمال فسره الجاحظ بالفؤاد

☆☆ الخدال جمع خدل وهو الممتلئ الأعضاء لحماً في رقة عظام

قال[١٧٥] : « وكان عمرو بن هبيرة صغير الرأس . فقال سويد بن الحارث :

من مبلغ رأس العصا أن بيننا ضغائن لا تنسى وإن قدم الدهر »

ويحمدون الرؤوس العظام :

قال :[١٧٦] « قال مسكين الدارمي في عظم رؤوس بني تميم :

وإنا أناس تملأ البيض هامنا ونحن حواريون حين نزاحف

.....

« عبد الوارث عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : الصورة الرأس فإذا ذهب الرأس فلا صورة » .

وكانوا يمدحون الصلع ويرون أنه دليل السؤدد والسيادة :

قال :[١٧٧] « وقال آخر :

بنّى (لنا) المجد آباء لنا سلفوا صلع الرؤوس وسيا السادة الصلع

« وقال الآخر :

إذا مالقينا أصلع الرأس أشيبا طويل القرا ضخم العثانين أكلفا
فذاك الذي لا يخلف البرق ودقه ويصبح بساماً وإن كان مدنفا

. . . .

لهاميم صلعٌ في قديم أرومة
وحادث مجد كان بالأمس مطرفا »

العيون

ويشاءمون بالزرق . وإذا وصفوا العين بالزرقة وقع على لونين : فقد تكون زرقاء اللون وقد تكون ذهبية :

قال :[١٧٨] « ومن الزرق ممن كانوا يتشاءمون بـه قيس بن زهير وكان أزرق وكان بكراً وابن بكر . وكانت البسوس زرقاء وبكراً بنت بكر ...

« وقال عبد الله بن همام السلولي :

ولا يكـونـنّ مـال الله مـأكلـة   لكل أزرق من همـدان مكتحـل

« وقال آخر :

لقـد زرقت عينـاك يـاابن مكعبر   كما كل ضبي من اللـؤم أزرق »

وحمرة العيون قد تكون[١٧٩] « للعرض المفارق كعين الغضبـان وعين السكران وعين الكلب وعين الرمد ...

« قال أبو حية :

غضـاب يثيرون الـذحـول عيـونهم   كجمر الغضـا ذكيتـه فتـوقـدا »

ولكنهم بعـامـة يـذمون الحمر العيـون الحمر الحمـاليـق☆ : وقـد مر ذكر النعمان وما قال أبو قردودة في حمرة عينيه .

وقال أبو عثمان :[١٨٠] « وقـال معـاوية لصحـار العبـدي : يـا أحمر ، قال : والذهب أحمر ، قال : ياأزرق قال : والبازي أزرق . وأنشدوا :

☆ الحماليق باطن الأجفان

ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذاك عتاق الطير شكل عيونها »

والشكلة عندهم محمودة :

قال :(١٨١) « وقال يونس : لم أر قرشياً قط أحمر عروق العينين إلا كان سيداً شجاعاً . وروى أن النبي ﷺ كان أشكل العينين ضليع الفم » .

الأنوف

يقول أبو عثمان :(١٨٢) « والأنف هو النخوة وموضع التجبر .. والأنف هو موضع الخُنْزُوانة والنُّعَرة☆ » ويحمد في الأنف الشمم :

قال :(١٨٣) « قال حسان بن ثابت :

بيض الوجوه نقية أجسادهم شم الأنوف من الطراز الأول

«وقال ابن مقرم الضبي :

وفتية لا يشين الفحش مجلسهم شم العرانين لا ميل ولا عزل

« وقالوا : وكانوا بنو عبد المطلب عشرة يأكل أحدهم جذعة ويشرب فَرْقاً☆☆ ترد أنوفهم الماء قبل شفاههم » .

وقال :(١٨٤) « ووصف الإنسان بأنه أقنى مدح ، وكذلك جوارح الطير . قال ذو الرمة :

☆ الخنزوانة : الكبر ، وكذلك النعرة (عن حاشية المحقق)

☆☆ الفرق مكيال لأهل المدينة يسع ثلاثة اصع

نظرت كما جلى على رأس مرقب
من الطير أقنى ينفض الطل أزرق »

ويهجون بالأنوف الفطس والسائلة المسترخية العظيمة الأرنبة وبالأنوف الشعر :

قال :(١٨٥) « وقال أبو عزة وهو عمرو بن عبد الله بن وهب بن حذافة بن سعد بن جمح :

قبح الإله وجوههم وشياتهم ممّا تجن صدورهم أو تخمز
زرق العيون كأن حد أنوفهم كمر الكلاب لناظر يتبصر

« وقال عقيل بن علّفة يهجو عمار بن عيينة بن حصن :

لم يبق من آل بدر غير أهجنة شعر أنوفهم حول ابن عمار

« وأنشد أبو الرديني العكلي :

عدمت أنفاً هاهنا مستالا من امرئ قد عدم الجمالا
وحاجبين عظما وطالا وعين سوء تكسر المكحالا »

الأفواه والأصوات

وكانوا (ونعني دائماً العرب) يمدحون الواسع الشدق الجهير الصوت ويذمون الضعيف الصوت الصغير الفم :

قال أبو عثمان :(١٨٦) « وحدثني محمد بن يسير الشاعر قال : **قيل لأعرابي : ماالجمال ؟ قال : طول القامة وضخم الهامة ورُحب الشدق وبعد الصوت .**

« وسأل جعفر بن سليمان أبا المِخش عن ابنه المخش ، وكان جزع عليه جزعاً شديداً ، فقال : صف لي المخش ، فقال : *كان أشدق خُرْطُمانياً ، سائلاً لعابه ، كأنما ينظر من قَلْتَين ، وكأن ترقوته بُوان أو خالفة ، وكأن منكبه كِركِرة جمل ثَفال ، فقأ الله عيني إن كنت رأيت قبله أو بعده مثله .

« قال : وقلت لأعرابي : ما الجمال ؟ قال : غؤور العينين وإشراف الحاجبين ورحب الشدقين ...

« ويدلك على تفضيلهم سعة الأشداق وهجائهم ضيق الأفواه قول الشاعر :

لحى الله أفواه الدَّبى من** قبيلة
إذا ذكرت في النائبات أمورها

وإنما شبه أفواههم بأفواه الدبى لصغر أفواههم وضيقها ...

« وقال بشار بن برد يهجو بعض الخطباء :

ومن عجب الأيام أن قمت ناطقاً
وأنت ضئيل الصوت منتفخ السَحْر

« وكان أبو عروة الذي يقال له : أبو عروة السباع يصيح بالسبع وقد احتمل الشاة فيخلّيها ويذهب هارباً على وجهه ، فضرب به الشاعر المثل وهو النابغة الجعدي فقال :

* الخرطماني : الكبير الأنف ـ القلت : النقرة في الجبل تمسك الماء ـ البوان : عمود في مقدم الخباء ـ الخالفة عمود في مؤخره ـ الثفال : البطئ (عن الحاشية)

** الدبى : أصغر الجراد والنمل (القاموس)

وأزجر الكاشح العدو إذا اغتابك عندي زجراً على أضم☆
زجر أبي عروة السباع إذا أشفق أن يلتبسن بالغنم

« وأنشد أبو عمرو الشيباني لرجل من الخوارج يصف صيحة شبيب بن يزيد بن نعيم ، قال أبو عبيدة وأبو الحسن (علي بن محمد المدائني) : كان شبيب يصيح في جنبات الجيش إذا أتاه فلا يلوي أحد على أحد ، وقال الشاعر فيه :

إن صاح يوماً حسبت الصخر منحدراً
والريح عاصفة والموج يلتطم

« قال أبو العاصي : أنشدني أبو محرز خلف بن حيان وهو خلف الأحمر مولى الأشعريين في عيب التشادق :

له حنجر رحب وقول منقح وفصل خطاب ليس فيه تشادق »

اللسان

وكانوا يرون في اللسان الطويل حتى يضرب أرنبة الأنف القدرة على القول القاطع والهجاء الموجع :

قال :[١٨٧] « وقال سويد بن أبي كاهل :

(ورأى مني مقاماً صادقاً ثابت الموطن كتام الوجع)
ولساناً صيرفياً صارماً كذباب السيف ماسّ قطع

☆ الأضم : الغضب

« وقال النبي ﷺ لحسان بن ثابت : ما بقي من لسانك ؟ فأخرج لسانه حتى ضرب بطرفه أرنبته ، ثم قال : والله ما يسرني به مقول من معد ، والله لو وضعته على حجر لفلقه أو على شعر لحلقه .

« قال : وسمعت أعرابياً يصف لسان رجل فقال : كان يشول بلسانه شولان البَروق☆ ويتخلل به تخلل الحية .

« قال : ووصف أعرابي رجلاً فقال : أتيناه فأخرج لسانه كأنه مخراق☆☆ لاعب » .

الأعناق

وكانوا يمدحون الرقاب الغلب والأعناق الطويلة السبطة ، ويهجون بالرقاب الشعر :

قال :(١٨٨) « وأنشد أبو عبيدة :

وصلع الرؤوس عظام البطون جفاة المحز غلاظ القَصَر☆☆☆
شداد المقابض يوم الجلاد رحاب الشداق طياب الخبر »

وقال :(١٨٩) « وقال الشمردل :

إذا جرى المسك يندى في مفارقهم راحوا كأنهم مرضى من الكرم
يشبّهون ملوكاً من تجلتهم وطول أنضية☆☆☆☆ الأعناق والأمم »

☆ البروق : الناقة إذا طلبت الفحل فإنها حينئذٍ ترفع ذنبها

☆☆ المخراق منديل أو نحوه يلوى فيضرب به (تفسير الألفاظ منقول عن حاشية المحقق)

☆☆☆ القصر : العنق

☆☆☆☆ النضي : السهم الذي لم يُرَش يعني أن أعناقهم ملس مستوية ـ الأمم : القامات (من شرح الجاحظ)

وقال :[١٩٠] « وقال آخر ووصف عنق رجل :

يـــارُبَّهـــا يـــوم تـــلاقي أسلمـــا يـــوم تـــلاقي الشيظم المقـــوّمـــا
عبـــل المشــــاش وتراه أهضما كأن بين منكبيـــــــــه سلّما »

قال :[١٩١] « وفزارة تهجى بشعر القفا . ولذلك قال الحارث بن ظالم حيث انتسب إلى قريش وانتفى من بني مرة بن عوف :

فما قـــومي بثعلبـــة بن سعـــد ولا بفـــزارة الشعر الرقـــابـــا »

الأكف

ويمـــدحون القبضـــات القـــويـــة والأكف ذات العروق البـــارزة في ظاهرها :

قال :[١٩٢] « قال دريد بن الصمة :

أبلـــغ نعيمـــــاً وأوفى إن لقيتهما إن لم يكن كان في سمعيهما صمم
فـــلا يـــزال شهـــــاب يستضـــــاء بـــــه
يهـــدي المقـــانب☆ مـــا لم تهلـــك الصِّمم
عـاري الأشـاجـع معصـوب بلمتـه أمر الـــزعـــامـــة في عرنينـــه شمم

الأوراك

ويمدحون كذلك الأوراك الرسح . وقد مر من قبل قول ابن راشد لسنان بن سلمة : « .. وما أنت بأرسح فتكون فارساً » .

☆ المقانب جمع مقنب ، والمقنب الجماعة من الخيل ليست بالكثيرة ـ الصِّمم جمع صمة وهو الشجاع (من الحاشية)

البطون

وكانوا يفخرون بشدة الجسم مع هزاله وخفة الحشا ويذمون السمن :

قال :[١٩٣] « وللحسين بن مُطير :

رأت رجلاً أودى بوافر لحمه ... طلاب المعالي واكتساب المكارم
خفيف الحشا ضرباً كأن ثيابه ... على قاطع من جوهر الهند صارم
فقلت لها : لا تعجبنَّ فإنني ... أرى سمن الفتيان إحدى المشاتم »

وقال :[١٩٤] « وقيل لآخر : ما أسمنك ؟ قال : قلة الفكرة وطول الدعة والنوم على الكظة »

ومع ذلك هناك أقوال تتمدح بالبطون المندلقة . وقد ذُكر من قبل ما أنشد أبو عبيدة : « وصلع الرؤوس عظام البطون .. » .

وقال أبو عثمان :[١٩٥] « وقال معاوية بن أبي سفيان : ثلاث خصال من السؤدد : الصلع واندحاق البطن وترك الإفراط في الغيرة »

الهيأة والمشية

قال :[١٩٦] « ومما مدح به العماني هارون الرشيد .. قوله :

جهير العطاس شديد النياط ... جهير الرواء جهير النغم
ويخطو على الأين خطو الظليم ... ويعلو الرجال بجسم عمم »

« وكان الرشيد إذا طاف بالبيت جعل لإزاره ذنبين عن يمين وشمال ثم طاف بأوسع من خطو الظليم وأسرع من رجع يد الذئب .

« وقال إبراهيم : ونظر إليه أعرابي في تلك الحال والهيأة فقال :

خطو الظليم ريع ممسىً فانشمر »

والخلاصة

أظن أنه أصبح من الممكن ، بعد هذا الاستعراض لما عند الجاحظ في الفراسة ، استخراج بعض النتائج :

أولاً ـ إن كتب الجاحظ ، ما وصل منها فقط ، معدن غني يمكن أن تستخرج منه كل الفلزات والمواد اللازمة والكافية لتشييد بناء لعلم الفراسة إن لم يكن مكتملاً فيكاد يكونه .

ثانياً ـ إن مفهوم الفراسة كان عند الجاحظ واضحاً ومحدداً : في معناها من حيث هي كشف عن الطباع الثابته أو عما يختلج في النفس مما هو عارض ، وفي معناها من حيث هي علم بالغائب في كل الأمور .

ثالثاً ـ ولكنه ينقل عن أصحاب الفراسة أن علوماً مثل علوم الكف والأكتاف والخيلان وقرض الفأر الخ .. تدخل في علم الفراسة ، وهي من العلوم التي كان يدعوها القدماء علوم تقدمة المعرفة وتدعى في أيامنا العلوم التنبؤيه ، مما يدل على أن الفراسة في عصره لم تكن قد تميزت من التنبؤ بالمصاير : مصاير الأفراد ومصاير الجماعات . فهل كان الجاحظ نفسه يدخل هذه العلوم فيما كان يسميه العلم بالغائب ؟ إن أبا عثمان لم يقل : العلم بالغيب بل قال : العلم بالغائب . فما أظنه ، وهو المعتزلي ، كان يسلم بإمكان الاطلاع على الغيوب . والنصوص التي يرد فيها ذكر العلم بالغائب لا تدل على أكثر من معرفة حدسية بالمسبَّبات استناداً إلى أسباب تخفى إلا على العقل النافذ والبصيرة الثاقبة . وقد عرفه على كل حال فقال : « وأول العلم بكل غائب الظنون ، والظنون إنما تقع في القلوب بالدلائل ، فكلما زاد الدليل قوي الظن حتى ينتهي إلى غاية تزول معها الشكوك عن القلوب .. » .

رابعاً ـ أما العلوم الأخرى التي ألحقت بعلم الفراسة ، مثل استنباط المعادن ومعرفة الغيث والاهتداء في القفار الخ ، فيبدو أنها كانت في عصر الجاحظ وعنده مازالت بعيدة عن علم الفراسة ومستقلة عنه .

خامساً ـ إلا القيافة من هذه العلوم فالجاحظ كثيراً ما قرنها بالفراسة ، فكثيراً ماردد مثل هذه الصيغة : « إن الأمر كذا لا يحتاج إلى فراسة أو قيافة لمعرفة كذا » ، مما يدل على أن الجاحظ كان يدرك القربى الحميمة التي تربط بين العلمين ، ولكنهما بقيا عنده متميزين أحدهما من الآخر .

سادساً ـ إن الجاحظ كان بالتأكيد مطلعاً على بعض كتب الفراسة المترجمة عن اليونانية . فهو يذكر أفليمون ويعطيه لقب صاحب الفراسة ، وأشك أن يكون على اطلاع على كتاب « سر الأسرار » المنسوب لأرسطو أو أي كتاب آخر له في الفراسة ، فهو على كثرة ما يذكر صاحب المنطق لم أقع مرة على اسمه مقترناً بالفراسة . وقد نقل الجاحظ عن هذه الكتب وتأثر بها : فقوله بالأخلاط مثلاً قد أخذه منها ، وكذلك فكرة تأثير البيئة على الإنسان والحيوان ، ولكنه ملأها بمعلومات مستقاة من مصادر عربية أو مصادر راهنة موجودة في مجتمعه .

سابعاً ـ ولكنه فيما عدا ذلك كان يرجع إلى مصادر عربية أو إلى ما كان متداولاً في عالمه مما هو متوارث من حضارات قديمة أو إلى تجربته الخاصة ولا سيما ما يتصل من هذه المعلومات بالنقص العضوي أو النفسي أو بالمهن أو بدلالات الهيآت والأعضاء .

وإن في الأقوال والأشعار التي اعتمدها ما يوضح معنى ما ذكر من وجود كتابات في الفراسة في اليمن رحل الشافعي في طلبها وكتاب في

الفراسة باسم الشافعي ، إذ يكفي أن يعن فقط لإنسان أن يجمع تلك الأقوال والأشعار حتى تجتمع له مادة تصلح لأن تكون أساساً لكتاب في الفراسة ، فاذا هو صاغها قواعد عامة أصبحت كتاباً في الفراسة كاملاً لا ينقصه إلا قليل ، والعصر بعد كان عصر وضع القواعد العامة وإنشاء العلوم ، ففيه وضعت علوم النحو والصرف واللغة والعروض والقافية والفقه وأصوله والحديث وعلومه والكلام و .. والجبر الخ ..

ملحق

باب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس

ويبقى ماذكره بروكلمان[١٩٧] عن كتاب للجاحظ بعنوان « باب العرافة والزجر والفراسة على مذهب الفرس » ، توجد منه مخطوطة في ليدن ، وقد نشره في سان بترسبورغ سنة ١٩٠٧ ، وترجمه إلى الروسية وعلق عليه « ك. إينوسترانتسيف » في « مواد من مصادر عربية تفيد في تاريخ الحضارة في فارس الساسانية » . وذكره يوسف مراد في كتابه « الفراسة عند العرب » ، وفهد في مقاله « الفراسة » في دائرة المعارف الإسلامية (الجديدة) ، وكلاهما ينعته بأنه منحول للجاحظ .

ومما ذكره فهد[١٩٨] نعلم أن في الكتاب تعريفاً للفراسة ، واستشهاداً بالآية ﴿ ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم في لحن القول ﴾ على أن خصائص الطبع لا تبقىٰ خافية ولو جدّ الإنسان في كتمانها .

ومما ذكره يوسف مراد[١٩٩] نعلم أن فيه كلاماً في دلالة الخيلان يشبه ما في كتاب ميلامبوس ، وذكراً لكتاب أبقراط « علامات ماقبل لحظة

الموت » ، وقصة اكتشافه ، وأن اسمه كما وضعه أبقراط « أسرار الطبيعة » ، وأن مترجمه حنين بن إسحاق . ونقل عنه الفقرة التالية (كما ترجمها عن الفرنسية الدكتور وهبه) : « ولقد وضع الله على كل عضو من أعضاء الجسم الحيواني أو الإنساني علامة ، ثم أخفى هذا العضو وهذه العلامة بغطاء من الصحة بحيث تبقى العلامة مختفية تحت الممتد والمحفوظ . وإذا ظهرت إحدى هذه العلامات عزم من ذلك ظهور مرض أو تخارج نقص ما أو موت عاجل أو انحراف كامن » .

وليس لي أن أحكم والكتاب ليس بين يدي . ولكن هذا الكتاب لم يشر إليه الجاحظ مرة واحدة في كتبه التي وصلت إلينا كما أشار إلى كثير من كتبه ، ولم يذكره له ابن النديم ولا ياقوت ولا حاجي خليفة ولا أي كاتب ممن ترجموا للجاحظ ، ولم ينقل عنه بل لم يشر إليه أي كتاب من كتب الفراسة ولا أيٌ ممن كتب في الفراسة ـ مما وصل إلي علمه .

للبحث صلة

المراجع والتعليقات

(٨٦) رسالة المعاد والمعاش (الموجهة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد) ـ رسائل الجاحظ ، ج ١ ، ص ٩٣ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مصر ١٩٦٤

(٨٧) رسالة الوكلاء (وهي موجهة إلى رجل كتب في ذم الوكلاء) ـ الرسائل ، ج ٤ ، ص ١٠٢ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ مصر ١٩٧٩

(٨٨) رسالة كتمان السر وحفظ اللسان ـ الرسائل ، ج ١ ، ص ١٤١ ـ ١٤٩

(٨٩) رسالة الحاسد والمحسود ـ الرسائل ، ج ٣ ، ص ٨

(٩٠) رسالة فصل ما بين العداوة والحسد (قد تكون موجهة لأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان) ـ الرسائل ، ج ١ ، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٥ .

ويدخل في هذا المعنى للفراسة ما ورد في « رسالة في الجد والهزل » : « وأما الواد ... ولا تغتر بقوله : إني واد ... وانظر أنت في حديثه وإلى مخارج لفظه وإلى لحن قوله وإلى طريقته وطبيعته وإلى خلقه وخليقته وإلى تصرفه وتصميه وإلى توقفه وتهوره ، وتأمل مقدار جزعه من قلة اكترائه ، وانظر إلى غضبه فيك ولك وإلى انصرافه عمن انصرف عنك وميله إلى من مال إليك ...

« ثم لا تحكم له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبتك ومحنوّة على نصيحتك بالعلل التي توجب الأفعال والأسباب التي تسخر القلوب للمودات كالعلل الثابتة في الصنيعة ...

« فإن أنت لم تحكم له بالغاية مع اجتماع هذه العلل فيه ومع توافيها إليه ، ولم تقض له بأقصى الغاية مع ترادف هذه الأسباب وتكامل هذه الدلائل وتعاون هذه البرهانات ـ فكل خبر بيّنه زور وكل دلالة فاسدة . وقد قال الأول : دلائل الأمور أشد تثبيتاً من شهادات الرجال ، إلا أن يكون في الخبر ومع الشهادة برهان ، لأن الدليل لا يكذب ولا ينافق ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة الإنسان لا تمتنع من ذلك ... » ـ الرسائل ، ج ١ ، ص ٢٣٩ و ٢٤٠

(٩١) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٤٢٣ و ٤٢٤ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الثانية ١٩٦٦

(٩٢) رسالة المعاش والمعاد ـ الرسائل ، ج ١ ، ص ١٢٠ و ١٢١

(٩٣) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٦٠

(٩٤) انظر إلى النص كاملاً في الحيوان ، ج ٣ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٣

(٩٥) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١١٦ ـ تحقيق عبد السلام هارون ـ الطبعة الرابعة ١٩٧٥

وارجع إلى ما ذكر من صفة يستدل بها على فراهية الكلب : « قال بعض من خبر ذلك : إن طول ما بين يدي الكلب ورجليه بعد أن يكون قصير الظهر من علامة السرعة . قال : ويصفونه بأن يكون صغير الرأس طويل العنق غليظها الخ ... » (الحيوان ، ج ٢ ، ص ٤٥ ـ ٤٨) .

(٩٦) وتتمة الخبر : « ويزعمون أن أبا جعفر المنصور نزل في بعض القرى ، فقرض الفأر مسحاً له كان يجلس عليه فبعث به ليرفأ . فقال له الرفاء : إن هنا أهل بيت يعرفون بقرض الفأر ما ينال صاحب المتاع من خير أو شر فلا عليكم أن تعرضوه عليهم قبل أن تصلحوه . فبعث المنصور إلى شيخهم ، فلما وقعت عينه على موضع القرض وثب وقام قائماً ، ثم قال : من صاحب هذا المسح ؟ فقال المنصور : أنا ، فقام ثم قال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، والله لتلين الخلافة أو أكون جاهلاً أو كذاباً » ـ الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٠٣

وجاء في كتاب « البرصان .. » : « .. ومنهم إفريقي هرثمة (بن أعين) ، قدم به هرثمة ينظر في الأكتاف ويتكهن . والنظر في الأكتاف شبيه بالنظر في أسرار الكف وفي قرض الفأر وفي الخيلان ، ولكل صنف من هذه الأبواب صنف من الناس يدعون أن فيه علماً . وخبرني بكر بن الأشقر صاحب خمس بني تميم بالبصرة ، وكان أبو زيد (الكتاف ، افريقي هرثمة) جاراً له ببغداد ، قال : لم يزل يقول : لا يموت هرثمة حتى يهزم جيش المبيضة .. » ـ البرصان والعرجان والعميان والحولان ، ص ٣٠٨ ـ تحقيق محمد مرسي الخولي ـ القاهرة ١٩٧٢

(٩٧) ففي المعادن صنف كتاباً ذكره في مقدمة كتاب الحيوان ـ الحيوان ، ج ١ ، ص ٥ .

وفي العرافة والزجرو ... ـ الحيوان ، ج ١ ، ص ٦٣ و ج ٢ ، ص ٢١٦ و ج٣ ، ص ٤٣٨ ـ ٤٥٧ و ج ٥ ص ٥٨٠

وفي الاهتداء في البراري ومعرفة الغيث ـ الحيوان ، ج ٣ ، ص ١١٩ ـ البرصان .. ص ١٨٤ و ٣٠٤ ـ وفي الحيوان ، ج ٦ ، ص ٣٠ هذا النص :

« ومن هذه الجهة عرفوا (الأعراب) الآثار في الأرض والرمل ، وعرفوا الأنواء ونجوم الاهتداء ، لأن كل من كان بالصحاصح الأماليس حيث لا أمارة ولا هادي مع حاجته إلى بعد الشقة مضطر إلى التماس ما ينجيه ويؤديه .

« ولحاجته إلى الغيث وفراره من الجدب وضنه بالحياة اضطرته الحاجة إلى تعرف شأن الغيث ...

« وأكثر سبب ذلك كله ، بعد فرط الحاجة وطول المدارسة ، دقة الأذهان وجودة الحفظ » .

وفي القيافة يكفي النص التالي مثالاً على قرن الجاحظ القيافة بالفراسة :

« .. وأنت لا تغلط في التركي ولا تحتاج فيه إلى قيافة ولا إلى فراسة .. » ـ الرسائل ، ج ١ ، ص٦٣

(٩٨) كتاب في الأوطان والبلدان ـ الرسائل ، ج ٤ ، ص ١٠٩

وللجاحظ في الجغرافية ثلاثة كتب : هذا الكتاب ، الرسائل ، ج ٤ ، ص ١٠٩ ـ ١٤٧ ـ رسالة الحنين إلى الأوطان ، الرسائل ، ج ٢ ، ص ٣٨٣ ـ ٤١٢ ـ كتاب الأمصار وعجائب البلدان ، ذمّه المسعودي في مروج الذهب ، بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي (الترجمة العربية) ، ج ٣ ، ص ١٢٥

(٩٩) فخر السودان على البيضان ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٢١٩

(١٠٠) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٧٠

(١٠١) رسالة مناقب الترك (الموجهة إلى الفتح بن خاقان) الرسائل ، ج ١ ، ص ٦٣

وانظر : رسالة فخر السودان على البيضان ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٢٢٠ ـ كتاب البغال ، الرسائل ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ـ الحيوان ، ج ٤ ، ص ٧١

(١٠٢) الرسائل ، ج ١ ، ص ٢١٩

وانظر : كتاب البغال ، الرسائل ، ج ٢ ، ص ٣١٣ ـ الحيوان ، ج ٤ ، ص ٧١

(١٠٣) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٧٢

(١٠٤) الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٤٢ ـ ج ٧ ، ص ٢٢٩

(١٠٥) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٣٥

(١٠٦) رسالة الحنين إلى الأوطان ، الرسائل ، ج ٢ ، ص ٣٨٧

(١٠٧) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٣٥

ومثل : « والفرات خير من ماء النيل . وأما دجلة فإن ماءها يقطع شهوة الرجال ، ويذهب بصهيل الخيل ولا يذهب بصهيلها إلا مع ذهاب نشاطها ونقصان قواها ، وإن لم يتنسم النازلون عليها أصابهم قحول في عظامهم ويبس في جلودهم » (النيل يعني نيل الكوفة وهو خليج كبير يتخلج من الفرات حفره الحجاج بن يوسف وسماه باسم نيل مصر ـ القحول : اليبس ـ الشرح منقول عن حواشي المحقق) ـ الرسائل ، ج ٤ ، ص ١٣٦

(١٠٨) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٩١

(١٠٩) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٧ و ٢٨ ـ الرسائل ، ج ١ ، ص ٦٧

وللجاحظ كتب في الأمم والشعوب منها :

في مناقب الترك وعامة جند الخلافة ـ الرسائل ، ج ١ ، ص ٥ ـ ٨٦

فخر السودان على البيضان ـ الرسائل ، ج ١ ، ص ١٧٧ ـ ٢٢٥

مفاخرة السودان والحمران ـ العرب والعجم ـ العرب والموالي ـ الصرحاء والهجناء ـ القحطانية والعدنانية ـ فخر هاشم وعبد شمس ـ فخر عبد شمس ومخزوم يرجع الى فهرست مؤلفات الجاحظ في : فهرست ابن النديم ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٢ (طبعة طهران) ـ معجم الأدباء لياقوت ، ج ١٦ ، ص ١٠٦ ـ ١١٠ ـ أدب الجاحظ لحسن السندوبي ، ص ١١٦ ـ ١٥٨ ـ تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ، ج ٣ ، ص ١١٠ ـ ١٢٨ (الترجمة العربية)

(١١٠) رسالة مناقب الترك ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٦٧ ـ ٦٩

وانظر في وصف العرب : البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٢٨ ـ الرسائل ، ج ١ ، ص ٦٩ و ٧٠

وفي وصف الفرس : البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٢٨

وفي وصف الهند : رسالة فخر السودان على البيضان ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٢٢٣ و ٢٢٤

وخص الترك برسالة مناقب الترك

وخص السودان برسالتين : مفاخرة السودان والحمران ، وهي مفقودة ـ وفخر السودان على البيضان

(١١١) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ٨١

(١١٢) الحيوان ، ج ٤ ، ص ١٣٥

(١١٣) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٧٢ ـ (وبيسان المذكورة قرية من قرى الموصل ـ نقلاً عن حاشية الحيوان)

(١١٤) البخلاء ، ص ١٧ ـ ٢٨ ، تحقيق طه الحاجري ، ط ٦ ، دار المعارف ، مصر ١٩٨١

(١١٥) رسالة الأوطان والبلدان ، الرسائل ، ج ٤ ، ص ١٣٦ ـ ١٤٧

(١١٦) الحيوان ، ج ١ ، ص ٤

(١١٧) رسالة المعلمين ، الرسائل ، ج ٣ ، ص ٤٥ ـ ٤٧

(١١٨) البخلاء ، ص ١٥٦

(١١٩) الحيوان ، ج ١ ، ص ٥

(١٢٠) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٤٣٤ و ٤٣٥

(١٢١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٢١٢ ـ ٢١٤

(١٢٢) رسالة في الجد والهزل (الموجهة إلى محمد بن عبد الملك الزيات) الرسائل ، ج ١ ، ص ٢٣٤

وارجع إلى : البرصان .. ، ص ٥١ : « ومن البهق الأسود والأبيض ، وإنما ذلك على قدر النقص فإن كان من المرة السوداء كان أسود ، وإن كان من البلغم كان أبيض ، وإذا ابيض لم يؤمن » .

(١٢٣) الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٠١ ـ ٢٠٣

(١٢٤) الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٠٤ ـ ٢٠٦

(١٢٥) الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٤٥

(١٢٦) رسالة حجج النبوة ، الرسائل ، ج ٣ ، ص ٢٣٨

(١٢٧) رسالة المعاش والمعاد ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٩٦

(١٢٨) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٥

(١٢٩) البخلاء ، ص ١١١

وانظر ما جاء في البيان والتبيين ج ١ ص ٣٢٩ : « ودخل عبيد الله (ابن زياد بن ظبيان التيمي) على عبد الملك بن مروان ، بعد أن أتاه برأس مصعب بن الزبير ، ومعه ناس من وجوه بكر بن وائل ، فأراد أن يقعد معه على سريره . فقال له عبد الملك : ما بال الناس يزعمون أنك لا تشبه أباك ؟ قال : والله لأنا أشبه بأبي من الليل بالليل والغراب بالغراب والماء بالماء ، ولكن إن شئت أنبأتك بمن لا يشبه أباه ، قال : ومن ذاك ؟ قال : من لم يولد لتمام ولم تنضجه الأرحام ومن لم يشبه الأخوال والأعمام ، قال : ومن ذاك ؟ قال : ابن عمي سويد بن منجوف ، قال عبد الملك : أو كذلك أنت ياسويد ؟ قال : نعم . فلما خرجا من عنده أقبل عليه سويد فقال : وريت بك زنادي ، والله ما يسرني أنك كنت نقصته حرفاً واحداً مما قلت له وأن لي حمر النعم ، قال : وأنا والله ما يسرني بحلمك اليوم عني سود النعم » .

(١٣٠) البرصان ، ص ٧

(١٣١) البرصان ، ص ١٧

(١٣٢) البرصان ، ص ١٩

(١٣٣) البرصان ، ص ٢٠

وفي ديوان بشار ، ج ٤ ، ص ١٣٦ : في البيت الأول : نجد « أجولا » بدلاً من أحولا وفي البيت الثالث : « وغاض ضياء العين للقلب فاغتدى » بدلاً من : وغاض ضياء العين للعلم رافد .

(١٣٤) البرصان ، ص ١٥

(١٣٥) البرصان ، ص ٢١١ ـ البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٧٥

(١٣٦) البرصان ، ص ٢٥٩

(١٣٧) البرصان ، ص ٢٣٧

(١٣٨) الحيوان ، ج ١ ، ص ١٠٦ ـ ١٧٤

(١٣٩) البرصان ، ص ٤

(١٤٠) رسالة النبل والتنبل وذم الكبر ، الرسائل ، ج ٤ ، ص ١٧٥

(١٤١) الحيوان ، ج ٦ ، ص ٧١

(١٤٢) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧٥

(١٤٣) البيان والتبيين ، ج ٤ ، ص ٧٠

(١٤٤) رسالة مفاخرة الجواري والغلمان ، الرسائل ج ٢ ، ص ٩١ ـ ١٣٧

(١٤٥) كتاب القيان ، الرسائل ج ٢ ، ص ١٤٣ ـ ١٨١

(١٤٦) كتاب النساء ، الرسائل ج ٣ ، ص ١٣٩ ـ ١٥٩

في مقدمة كتاب الحيوان ، حيث يرد الجاحظ على ناقد كتبه ، يذكر عدداً من كتبه من جلتها « كتاب فصل ما بين الرجال والنساء وفرق ما بين الذكور والإناث » (الحيوان ، ج ١ ، ص ٤) . ولكنه يعود في الجزء السادس فيسرد أبواباً من الكتاب بقيت وعليه أن يكتبها من كبارها « القول في فصل ما بين الذكورة والإناث وفي فصل ما بين الرجل والمرأة خاصة » (الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٤) ، فيقعده المرض والشيخوخة على ما يظهر عن إنجاز ما قرر . ثم نجد في « الفصول المختارة من كتب الجاحظ لعبيد الله بن حسان » مختارات من كتاب النساء ، وفيه يعتذر بالشيخوخة والمرض عن معالجة موضوعات كان يريد أن يعالجها ليخرج الكتاب تاماً (كما نقلت في متن الدراسة) ، مما قد يوحي بأن الكتاب كتب بعد كتاب الحيوان كما هو الأمر في كتاب البغال . فهل هناك كتابان أم كتاب واحد هو المذكور في مقدمة الحيوان اكتفى به الجاحظ حين أقعده المرض والشيخوخة ؟

صاحب الفهرست يذكر كتابين ، يقول : « وأضاف إليه (إلى كتاب الحيوان) كتاباً آخر سماه كتاب النساء وهو الفرق فيما بين الذكر والأنثى . وكتاباً آخر سماه كتاب البغال . ورأيت أنا هذين الكتابين بخط زكريا بن يحي بن سليمان ويكنى أبا يحي وراق الجاحظ » ـ ثم يذكر له كتاباً آخر باسم « كتاب النساء » (الفهرست ، ص ٢٠٩ ـ ٢١٢ ، طبعة طهران) .

وكذلك فعل ياقوت نقلاً عن الفهرست (معجم الأدباء ، ج ١٦ ، ص ١٠٦ ـ ١١٠)

(١٤٧) كتاب النساء ، الرسائل ، ج ٣ ، ص ١٥٢

(١٤٨) الرسائل ، ج ٣ ، ص ١٥٧

(١٤٩) الحيوان ، ج ٦ ، ص ١٤

(١٥٠) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٤٨ ـ ٥٠

(١٥١) الحيوان ، ج ١ ، ص ٢١٣

(١٥٢) الحيوان ، ج ١ ، ص ٢٢٠

(١٥٣) الحيوان ، ج ٢ ، ص ١٦٠

(١٥٤) الحيوان ، ج ٢ ، ص ٣١٤

(١٥٥) الحيوان ، ج ٢ ، ص ٢٠٧

وانظر أيضاً : « يزعم زرادشت ، وهو مذهب المجوس ، أن الفأرة من خلق الله وأن السنور من خلق الشيطان وهو إبليس وهو أهرمن » ـ الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٩٨

و « تزعم العامة أن الفأرة كانت يهودية سحارة ، والأرضة يهودية .. والضب يهودي ، ولذلك قال بعض القصاص لرجل أكل ضباً : اعلم أنك أكلت شيخاً من بني إسرائيل ..

« وتزعم المجوس أن شوتَن الذي ينتظرون خروجه ويزعمون أن الملك يصير له يخرج على بقرة ذات قرون ومعه سبعون رجلاً عليهم جلود الفهود لا يعرف هرّاً ولابرّاً حتى يأخذ جميع الدنيا ...

« والباز والفهد من جوارح الملوك ، والشاهين والصقر والزُّرّق واليؤيؤ . وليس ترى شريفاً يستحسن حمل البازي لأن ذلك من عمل البازيار ، ويستهجن حمل الصقور والشواهين وغيرها من الجوارح . وماأدري علة ذلك إلا أن الباز عندهم أعجمي والصقر عربي » ـ (لا يعرف هَرّاً ولا بِرّاً : يأخذ الناس بالغشم لا يميز بين مواليه ومعاديه ـ نقلاً عن حاشية الحيوان) ـ الحيوان ، ج ٦ ، ص ٤٧٧ و ٤٧٨

(١٥٦) الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٦٤

(١٥٧) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٧٠ ـ ٧٢

(١٥٨) الحيوان ، ج ١ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٤

(١٥٩) البخلاء ، ص ٤٨

(١٦٠) فيما يلي كتب الجاحظ التي تدخل في باب المهن :

كتب : أخلاق الشطار ـ أخلاق الفتيان وفضائل أهل البطالة ـ أخلاق الملوك ـ أقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات ـ الجواري ـ الحجاب ـ الطفيليين ـ حيل اللصوص ـ حيل المكدين ـ ذم أخلاق الكتاب ـ ذم الوراقة ـ السلطان وأخلاق أهله ـ طبقات المغنين ـ غش الصناعات ـ القحاب ـ صناعات القواد ـ القيان ـ مدح التجارة وذم عمل السلطان ـ مدح الكتاب ـ مدح الوراقة ـ المعلمين ـ المغنين والغناء والصنعة ـ الوكلاء ـ التبصر بالتجارة ـ القضاة والولاة ـ الأخطار والمراتب والصناعات (فهرست كتب الجاحظ في الفهرست ومعجم الأدباء وأدب الجاحظ للسندوبي وبروكلمان) .

(١٦١) البرصان ، ص ٢١٧

وقد يدخل في هذا المعنى قوله : « وكان أبو عبدان المخلّع مولى بَلْعنبر واسمه مرثد ، وكان أطيب الناس شعراً ، وكان صعترياً صاحب نيزكية وتخلع وكان ذا نشال ، وإذا تكلم عقف أصابعه . فلم يزل يتكلف ذلك حتى صار مخلعاً بالحق وصار أسوأ حالاً من الأشل . وكان في صغره خياطاً فصار في حال لا يستطيع أن يملك نفسه ولا يمسك أبوه (إبرة) بيّده .. » ـ البرصان ، ص ٢١٥ (الصعتري : الشاطر وهو من أعيا الناس خبثاً وحيلاً ـ النيزكية : الشر ـ التخلع : المشية في تفكك ـ نقلاً عن حاشية الكتاب) .

(١٦٢) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٤٣٤

(١٦٣) رسالة المعلمين ، الرسائل ، ج ٣ ، ص ٣٢

(١٦٤) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٤٩

(١٦٥) الحيوان ، ج ٣ ، ص ١٣ ـ ١٥

(١٦٦) البخلاء ، ص ١٢٥

(١٦٧) رسالة مناقب الترك ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٥١ و ٥٢

(١٦٨) رسالة في الجد والهزل ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٢٧٩ ـ ٢٩٣

(١٦٩) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٦

(١٧٠) التبصر بالتجارة تحقيق حسن حسني عبد الوهاب ، ص ٣٠ ـ دمشق ١٩٣٢

فالجمال والذكاء وحسن الخلق تجتمع عند الجاحظ وتكتمل في الاعتدال في الصورة

والتناسب بين الأعضاء . قال : « وأنا مبين لك الحسن : هو التمام والاعتدال . ولست أعني بالتمام تجاوز مقدار الاعتدال كالزيادة في طول القامة وكدقة الجسم أو عظم الجارحة من الجوارح أو سعة العين أو الفم مما يتجاوز مثله من الناس المعتدلين في الخلق ، فإن هذه الزيادة متى كانت فهي نقصان من الحسن وإن عدت زيادة في الجسم . والحدود حاصرة لأمور العالم ومحيطة بمقاديرها الموقوتة لها . فكل شيء خرج عن الحد في خلق حتى في الدين والحكمة اللذين هما أفضل الأمور فهو قبيح مذموم .

« وأما الاعتدال فهو وزن الشيء لا الكمية .. ووزن النفوس في أشباه أقسامها . فوزن خلقة الإنسان اعتدال محاسنه وألا يفوت شيء منها شيئاً : كالعين الواسعة لصاحب الأنف الصغير الأفطس ، والوجه الضخم لصاحب البدن المجدّع النضو ، والظهر الطويل لصاحب الفخذين القصيرتين ، والظهر القصير لصاحب الفخذين الطويلتين ، وكسعة الجبين بأكثر من مقدار أسفل الوجه ... وإنما نعني بالوزن الاستواء في الخرط والتركيب ... » (كتاب القيان ، الرسائل ، ج ٢ ، ص ١٦٢ و ١٦٣)

على أن الجاحظ كان من سعة آفاق التفكير والملاحظة بحيث يعلم أن الجمال ليس له مقياس واحد ثابت ، ويعلم أن معايير الجمال تختلف وترجع إلى عوامل كثيرة مثل الكثرة أو الندرة والإلفة أو الاستطراف والتشابه أو التخالف في الصورة والألوان أو نزعات اجتماعية ونفسية تتحكم بها ظروف كثيرة ومعقدة اقتصادية واجتماعية وفكرية ...

فهو يقول : « قالوا : وإن نظر البيضان إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك السودان في نساء البيضان . على**أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد** . من ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأغوار ، واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات ، وأهل الشام أشهى النساء عندهم الروميات وبنات الروميات . وكل قوم يشتهون جلبهم وسبيهم ، إلا الشاذ وليس على الشاذ قياس » . (رسالة فخر السودان على البيضان ، الرسائل ، ج ١ ، ص ٢١٥)

(١٧١) البرصان ، ص ٣٥٢

(١٧٢) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٣٢ .

(١٧٣) الحيوان ، ج ٥ ، ص ١٠٤ .

(١٧٤) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٩٤ ـ البرصان ، ص ٣٠٧ ـ ٣٠٩ .

(١٧٥) البيان والتبيين ، ج ٣ ، ص ٤١ .

(١٧٦) البرصان ، ص ٣٠٨ و ٣٠٩ .

(١٧٧) البرصان ، ص ٣٢١ و ٣٢٢ .

(١٧٨) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٣١ و ٣٣٢ .

(١٧٩) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٢٩ .

(١٨٠) الحيوان ، ج ٤ ، ص ٢٣٠ .

(١٨١) الحيوان ، ج ٥ ، ص ٣٣٣ .

(١٨٢) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٣٠٥ .

(١٨٣) البرصان ، ص ٢٩٤ ـ ٢٩٦ .

(١٨٤) البرصان ، ص ٣٠٢ .

(١٨٥) البرصان ، ص ٢٩٢ ـ ٣٠٠ .

(١٨٦) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٢٠ ـ ١٢٩ .

(١٨٧) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٦٧ ـ ١٦٩ .

(١٨٨) البرصان ، ص ٣٢٣ .

(١٨٩) الحيوان ، ج ٣ ، ص ٩١ .

(١٩٠) البرصان ، ص ٣١٨ .

(١٩١) البرصان ، ص ٢٩٨ .

(١٩٢) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

(١٩٣) البيان والتبيين ، ج ٢ ، ص ١٧١ .

(١٩٤) البخلاء ، ص ١٨٠ .

(١٩٥) البرصان ، ص ٣٢٣ .

(١٩٦) البيان والتبيين ، ج ١ ، ص ١٢٦ .

(١٩٧) تاريخ الأدب العربي ، ج ٣ ، ص ١١٨ (الترجمة العربية)

(١٩٨) دائرة المعارف الإسلامية (الجديدة) ، م ٢ ، ص ٩٣٧ و ٩٣٨ (في الفرنسية)

(١٩٩) الفراسة عند العرب ، ص ٥١ و ٥٧ و ٥٨ .

عبد الكريم زهور عدي



المعجم الكبير

الأستاذ وهيب دياب

أصدر مجمع اللغة العربية بالقاهرة الجزء الثاني من المعجم الكبير وهو يحوي الكلمات التي تبدأ بحرف الباء . وقد تصفحت هذا الجزء فرأيت أن أذكر الملاحظات التالية :

في الصفحة ١٣ (البابونج) لم يذكروا أنه معرب ولم يوردوا اسمه العربي وهو القُرّاص .

في الصفحة ١٩ (بالي احدى الجزر الاندونيسية) وفي الصفحة ٢٨٦ (الجزر البريطانية) والصواب الجزائر ولنتذكر الجزائر الخالدات وقول صاحب المصباح (البلور حجر معروف وأحسنه مايجلب من جزائر الزنج) فجمع فعيلة فعائل واستثنوا بعض الكلمات التي تجمع على فُعُل مثل صحيفة وصحف وسفينة وسفن .

في الصفحة ٢١ (البارود) لم يذكروا أنه يسمى ثلج الصين وملح الصين .

في الصفحة ٢٢ (دعاية لدول المحور) لم يبينوا دول المحور .

في الصفحة ٢٢ (باريس[1] .... وعرف أهلها بالباريسيين) هذا حشو لا

---

(١) ورد اسمها عند المسعودي : « بريزة » . جاء في مروج الذهب (٢ : ١٤٥) : « وكلمة الافرنجة متفقة على ملك واحد لاتنازع بينهم في ذلك ولا تحزُّب ، واسم دار مملكتهم في وقتنا هذا « بريزة » وهي مدينة عظيمة . ولهم من المدن نحو من خمسين ومائة مدينة ، غير العمائر والكور » . وقد ألف المسعودي كتابه سنة ٣٣٢ هـ ، وأعاد تنقيحه سنة ٣٣٦ هـ [شاكر الفحام].

لـزوم لــه . وقــد ذكروا بــاري وبرلين وبرن وبــون ولم يــذكروا براغ وبرشلونة وبلغراد وبروكسل .

في الصفحـة ٢٥ (بـاشـا كلمـة تركيـة منحـوتـة في الارجـح من بـادشــاه الفارسية ، بمعنى السلطان) يقول طوبيا الغيسى في كتابه تفسير الألفـاظ الدخيلة في اللغة العربية (باشـا ـ فـارسي مركب من بـا أي قـدم ورِجل ومن شاه أى ملك وسلطان) . وكذلك يقول السيـد ادي شير في كتـابـه الألفاظ الفارسية المعربـة (البـاشـا مركب من پـا أي قـدم ومن شـاه أي الملك) .

في الصفحة ٢٦ (باغة) لم يقولوا دخيلة .

في الصفحة ٣٣ (الغرقيء : قشر البيضة) التعريف ناقص فالغرقيء القشرة الرقيقة الملتصقة ببياض البيضة .

في الصفحة ٤٢ (لونه أصفر داكن) الصواب (لونه أصفر أدكن) .

في الصفحة ٥٣ (افريقيا) صوابه (افريقية) كما جاء في ص ١٥ و ٣٠ و ٢٥٢ وكما جاء في متن الجزء الأول .

في الصفحـة ٥٤ (رعـاة المــاشيــة) الاعلى (الرعــاء) وفي القرآن الكريم (حتى يصدر الرعاء) . فالرعاء للمواشي والرعاة لأولي الامر .

في الصفحة ١٠١ (بخارى) لم يقولوا ان الصغاني رسمهـا بخـارا وبخـاراء في التكملة والذيل والصلة ، قال الصغاني في التكملة ج ٥ ص ٧٤ (وزملقى : من قرى بخارا) وقال في ج ٥ ص ١٣٨ (فاشوق : من قرى بخاراء) .

في الصفحـة ١٠٨ (تحول السـائـل الى بخـار) الافضـل (تحـول المـائـع الى بخار) .

في الصفحة ١٨٦ (البرتقال) لم يذكروا ان الكلمة دخيلة وان أصلها البرتغال .

في الصفحة ١٨٩ (برج) فاتهم معنى ذكره الراغب الاصفهاني في المفردات في غريب القرآن قال : (تبرجت المرأة أي تشبهت به في اظهار المحاسن وقيل ظهرت من برجها أي قصرها ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿ وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى ﴾ .

في الصفحة ١٩٣ (برجوازية) في كتاب الاعتبار عرَّبَ اسامة بن منقذ كلمة البرجوازي فجعلها البرجاسي .

في الصفحة ٢٠٨ (بردى النهر الرئيسي الذي يروي غوطة دمشق ومنبعه عين الفيجة) أرادوا عين الفيجة والصواب : ومنبعه سهل الزبداني .

في الصفحة ٢٢٤ ورد بعد لفظ البرنساء (النبراس ـ انظره في رسمه) ولا لزوم لذلك .

في الصفحة ٢٢٤ ورد (البرستاتة) وقد قال انستاس ماري الكرملي انها الموثة .

في الصفحة ٢٧٤ (البرميل يوضع فيه الخل والخمر ونحوهما من السوائل) لم يقولوا دخيل . والأفضل وضع كلمة الموائع بدل السوائل .

في الصفحة ٢٧٤ (الحافَّة) الصواب الحافَة ، بتخفيف الفاء .

في الصفحة ٢٨١ (لمعاهدة تثبت توافقة ادارة اطرافها) الجملة غير مفهومة .

في الصفحة ٤٠٠ مادة (بظر) فاتهم ابظر الرجل : تزوج نصرانية . ذكره ابن القطاع في كتابه (الافعال) .

في الصفحة ٤٥٦ (سوريا) صوابه سورية كما ورد في الصفحة ٢٥ .

في الصفحة ٤٧٤ (وأمير الألاي) كيف يعرف معنى الألاي من لايعرف اللغة التركية ؟ .

في الصفحة ٥٩٠ (البنكام ... الساعة المائية) هذا التعريف ناقص ، ففي شفاء الغليل للخفاجي في مادة اسطرلاب (تسمى الآلات التي يعرف بها الوقت اسطرلاب والطرجهارة وهي آلة مائية وبنكام وهي رملية ... ذكره في نهاية الارب) ، وفي مادة بنكام (... ما يقدر به الساعة النجومية من الرمل) ، وفي كشف الظنون لحاجي خليفة ج ١ ص ٢٥٥ (وانقسمت البنكامات الى الرملية وليس فيها كثير طائل والى بنكامات الماء وهي أصناف ولا طائل فيها أيضاً والى بنكامات دورية معمولة بالدواليب يدير بعضها بعضاً) . وفي الحاشية ١ (ولفظ بنكام فارسي معرب ... وخصه صاحب الصحاح الفارسية بزجاج الساعات الرملية) .

وفي الصفحة ٥٩٤ (البن حبوب شجرة ..... وتقشر الثمرة والبذرة ثم تحمص) قال ابن مكي الصقلي في الصفحة ٨٩ من كتابه تثقيف اللسان وتلقيح الجنان (ويقولون حمصت الحب على النار والصواب حمست بالسين مأخوذة من الحماسة وهي الشدة وإنما قيل لقريش « الحمس » لشدتهم في دينهم) .

وفي كتاب الانيس المفيد لدي ساسي ص ٧٤ (اعلم ان القهوة هو النوع المتخذ من قشر البن او منه مع حبه المُجَحَّم - أي المقلي - من كتاب عمدة الصفوة في حل القهوة للشيخ عبد القادر بن محمد الانصاري الجزيري الحنبلي) .

وورد في مادة غرض في لسان العرب (والغريضة ضرب من السويق ،

يصرم من الزرع مايراد حتى يستفرك ثم يُشَهَّى ، وتشهيته أن يسخن على المقلى حتى ييبس) . فهذان فعلان يمكن استعمالها لتأدية معنى فعل حَمَّس .

وفي الصفحة ٦٥١ (كُوة) والأعلى كَوة بفتح الكاف .

وفي الصفحة ٦٩٣ على الخريطة (پولنده) وفي المتن (بولندا) وفي الصفحة ٥٢٩ بولندة .

وفي صفحة ٧٢٢ مع رسم البيضة (الصفار) والصواب الصفرة أو الذهب أو العرقيل أو المح أو الفص .

وفي الصفحة ٧٣٨ في الحقل الايمن السطر السابع (يقرم) صوابه يقوم .

هذا وفي المعجم كلمات كثيرة لم يشر الى كونها دخيلة وكم تمنيت لو نشرت في الكتاب اسماء اعضاء لجنة تأليفه لتقديم الشكر اليهم على مابذلوه من جهد ظاهر للعيان ولحضهم على الاسراع في العمل لأن ظهور الجزء الثاني المتضمن حرف الباء بعد ظهور الجزء الاول بعشر سنين مدعاة لليأس ونفاذ الصبر .

وهيب دياب

آراء وأنباء

أربعة أوسمة استحقاق من الدرجة الأولى

لعلماء مؤرخين سوريين

وافتتاح معرض (كتاب تاريخ سورية)

الدكتور عدنان درويش

في أمسية يوم الاثنين العاشر من ربيع الآخر من سنة ثلاث وأربعمئة وألف للهجرة ، الرابع والعشرين من كانون الثاني من سنة ثلاث وثمانين وتسعمئة وألف للميلاد ، تحفّلت القاعة الشامية في المتحف الوطني بدمشق بجمهور من نخبة القوم ، علماء وأولي فضل ، لبوا دعوة المديرية العامة للآثار والمتاحف في وزارة الثقافة والإرشاد القومي ليشهدوا احتفالاً ترعاه وزيرة الثقافة والإرشاد القومي الدكتورة نجاح العطار لتكريم أربعة علماء مؤرخين من سورية ومنحهم أوسمة الاستحقاق السورية من الدرجة الأولى لما ثقلت موازينهم بما قدموه صامتين من عطاء حضاري ترسموا فيه سنة سلف ماجدين ، وما بذلوه متواضعين من جهد في بناء صرح حضارة الأمة التي نبتوا فيها فأزهروا وأتوا بالثمر الجني ، أولئك المجلون هم : علامة دمشق وأثريها ومؤرخها الأستاذ الشيخ محمد أحمد دهمان ، والعالم البحاثة صاحب التصانيف الكثيرة الأستاذ عمر رضا كحالة ، والأثري الفنان الرسام الأستاذ خالد معاذ ، والبحاثة الموسوعي والعالم اللغوي والشاعر الأستاذ خير الدين الأسدي عليه رحمة

الله ورضوانه .

وفي جو خفقت فيه بين جنبات القاعة معاني الإكبار والإجلال ترجعها ألفاظ التقدير والحب مهدت السيدة الوزيرة بكلمة جامعة لتقليد الأوسمة للعظماء العاملين فجاءت كلمة غنية بمعاني الإكرام والتقدير ، جاء فيها :

« إذا كانت الشعوب بنضالها وعطائها هي التي تصنع التاريخ في عصرنا بما تقدم من وقائع وأحداث يتشكل منها التاريخ ذاته ، فإن عمل المؤرخين ، لا في تدوين هذه الوقائع والأحداث فحسب بل في تحليلها وفهم ترابطها أيضاً ، يعدُّ إنجازاً كبيراً ، تحتاجه الأمة والحضارة والناس جميعاً » .

وتابعت قائلة : « ولقد كان تكريم الرئيس حافظ الأسد للسادة المؤرخين في هذا القطر تكريماً لكل المثل التي يناضل من أجلها بالصلاح والتنمية والثقافة على حد سواء ، وكان تكريماً ذا دلالة فهو يؤكد مرة أخرى اهتمام السيد الرئيس غير المحدود بالثقافة ورجالها ، وبالفكر وأعلامه ، وبكل الذين أسهموا في إغناء حضارتنا وأعطوا دفقاً جديداً لمسيرتها ، وأضافوا جديداً لكنزها ...

إن الأساتذة الأجلاء الذين منحوا أوسمة الاستحقاق قد كانوا كباراً في نتاجهم ، وكباراً في تكريس حياتهم لهذا النتاج ، فقد ولدوا مع بداية هذا القرن ، وأمضوا عمراً حافلاً بالعمل المثمر . وقد لايصدق إنسانٌ يرى آثار الواحد منهم أنها من نتاج فرد بذاته . فقد عمل كل واحد في قطاع خاص ، وتلاقوا في هدف واحد هو خدمة تاريخ هذا الوطن وإغناء الثقافة العامة . وأصبحت أعمالهم مراجع لمن يريد التعمق والتوسع .

وكثيرة هي الدراسات الجامعية التي اعتمدت على آثارهم .

لقد سار الشيخ الجليل محمد أحمد دهمان في مجال تحقيق ماحفظته المخطوطات من مكنون الأخبار والتاريخ والعلم ونشر ذلك بإضافات من ايضاحات لاتقل أهمية عما ورد في متن المخطوط ...

وقدم الأستاذ القدير عمر رضا كحالة جهداً لانظير له تعجز عن إنجازه المؤسسات ، فقد جمع أخبار القبائل العربية قديمها وحديثها في معجم مؤلف من ثلاثة أجزاء ضخمة ، ورصد أخبار المصنفين والمؤلفين ، وجمع تراجمهم ومؤلفاتهم من الكتب العربية ، وأخرج ذلك في خمسة عشر جزءاً ... ولا بد لي أن أؤكد على ناحية هامة تتعلق بالمرأة العربية التي لعبت دوراً في الفكر والسياسة والأدب ، المرأة التي أولاها الأستاذ كحالة اهتماماً خاصاً فتحدث عن أعلام النساء العرب والمسلمات منصفاً بذلك هذا الكائن الخلاق ...

ويقترن اسم خير الدين الأسدي مع مدينتنا الثانية حلب ، فقد رحل عنا العلامة خير الدين الأسدي إلى جوار ربه ومدادُ قلمه لم يجف ، وكان يكتب ويكتب في تاريخ حلب الشهباء ... وكان كلامه على هذه المدينة كلام المعلم والعارف والمحب ، وهذا كتابه الكبير يصدر منه المجلد الأول مؤكداً أهمية ماتركه راحلنا الكبير ، وغزارة مافيه من معارف وتواريخ .

أما الأستاذ خالد معاذ الذي يقف بيننا اليوم ، ونسأل الله أن يمد في عمره ، فقد عرفناه دائماً مصوراً وفناناً ومؤرخاً وأثرياً لم يترك شاردة تاريخية أو وثائقية عن دمشق إلا وجمعها ... وليس في دمشق أثر أو كتابة أو آبدة إلا وصوَّرها ، جامعاً في قلبه وذاكرته وخزانة وثائقه الأساس الذي يساعد على كتابة أضخم سفر عن دمشق ، وقد نشر

بعضه ، وما زال كثيره في الطريق إلى ذلك .

إذن فلتكن هذه الأوسمة بعضاً من تقدير هذه الأمة لمفكريها ، وبعضاً من التكرمة والوفاء من هذا الشعب لمؤرخيه ، ولتكن هذه البادرة الرائعة تقليداً في حياتنا الثقافية ، وطريقاً نسلكه في إبداعاتنا ، وفي تثمين هذه الإبداعات وتخليد منجزيها » .

وبعدما انتهت الدكتورة نجاح العطار وزيرة الثقافة من كلمتها تقدمت من الأساتذة العلماء الثلاثة الأستاذ دهمان وكحالة ومعاذ تقلدهم الأوسمة رموز التقدير والتكريم . وحمّلت الأستاذ رسلان وسام المرحوم الأسدي بصفته ممثلاً أسرته .

وبعد ذلك نهض الأستاذ كحالة يلقي كلمة حملها ، على وجازتها ، أجمل عبارات الشكر والاعتزاز بنيله شرف حمل وسام الاستحقاق ، ثم قام الدكتور أحمد دهمان نجل العلامة الشيخ فقرأ كلمة والده الذي أقعده مرضه عن إلقائها فكانت كلمة رائعة في التعبير عن أدق مشاعر الشيخ وأحاسيسه في هذا الموقف الجليل ، ومما جاء فيها :

« وقفت أسائل النطق إسعادي في هذا الموقف الجليل ، فاحتبس وغاب ، إلا كلمة أشربت بدمعي وتحرك بها لساني : أن الحمد لله رب العالمين ، الحمد لله الذي جعل في هذه الأمة نفراً عاملين مؤمنين ، يعملون على مكانتهم ليؤثلوا معاني خلود أمتهم ، ويبنوا صروح أمجادها ، مبتغين وجه الله وراحة الضمير ، حتى إذا آن لهم أن يريحوا ركائبهم من أين رحلة العمل الطويلة ألفوا جيلاً من الشباب يتعاورون الركائب ليتابعوا الرحلة سيراً وإصعاداً ، ووجدوا أذرع العرفان تمتد إليهم بحب ، وتضمهم بحنان واحترام ، وتأوي بهم إلى روضة غنيت بالتقدير والتكريم ، فتطمئن

نفوسهم وتقر عيونهم بأن زرعهم استوى على سوقه يؤتي أكله وثماره ، وما على الأجيال الشابة اللاحقة إلا أن يتأسوا بالرادة ، ويتهدوا بالمثل ، ويسيروا وراء الحداة ماضين إلى المجد والخلود ، فهم الشموس المانعة تتوقد نشاطاً وحيوية ، وسلفهم شموس آذنت بالأفول ...

كم أطيب اليوم نفساً بهذه البادرة الكريمة في حفل تكريم رعاه قلب قائد عظيم الرئيس حافظ الأسد ، فقد عرف قدر العلم فكرم أهله فكان لي من ذلك أسمى الفخر بأن أنالني الشرف العظيم بحمل أعلى رمز للتقدير ، وسام الاستحقاق السوري من الدرجة الأولى ، قدرني الله على الوفاء ببعض الجميل شكراً وثناء وحمداً ، إنه على ذلك قدير » .

ثم قام الأستاذ معاذ فتكلم بصوته الخفيض كلاماً موجزاً رقيقاً عبر فيه عن سعادته بنيل هذا الشرف ، وجاء آخراً الأستاذ محمد فاتح رسلان ممثلاً لآل الأسدي فألقى كلمة آل الأسدي التي عبر فيها عن سعادة الأسرة بأن توجت جهود فقيدهم المرحوم بنيله شرف الوسام التقديري .

وختم الخطباء كلماتهم بإزجاء عظيم الشكر للسيد رئيس الجمهورية على بادرته الطيبة هذه .

انها رمز كريم لرعايته للثقافة واهتمامه بالعلم ورجاله وعنايته بتنمية المؤسسات العلمية ومراكز البحث .

وختم الاحتفال بافتتاح معرض « كتاب تاريخ سورية » الذي ضم مجموعة كبيرة من المطبوعات التي تناولت تاريخ سورية ، والتي زخرت بالكتب النادرة والمصورات العربية والاجنبية .

عدنان درويش

توصيات
مجمع اللغة العربية بالقاهرة وقراراته

عقد مجمع اللغة العربية بالقاهرة دورته الأخيرة مابين (٢١ شباط - ٧ آذار ١٩٨٣ م) وانتهى إلى جملة من القرارات والتوصيات نثبتها فيما يلي :

١ - يوصي المؤتمر بأن تأخذ وزارات التربية والتعليم في الوطن العربي بقرارات المجمع في تيسير تعليم النحو التعليمي ، فيما تعده لطلابها من كتب في قواعد اللغة العربية .

٢ - يوصي المؤتمر وزارات التربية والتعليم في الوطن العربي بالعودة إلى تقاليدها القديمة من العناية بدروس المطالعة في تعليم اللغة العربية ، مع تقديم مختارات من النصوص القديمة الملائمة .

٣ - يعود المؤتمر لتأكيد توصيته المعاهد والجامعات في العالم العربي بأن تعنى باستخدام اللغة العربية في التدريس في مادة اللغة العربية ، وغيرها من المواد . ويرحب المؤتمر بما تم في هذا الشأن بمؤتمر اللغة العربية في الجامعات الذي انعقد بالإسكندرية في العام الماضي .

٤ - يدعو المؤتمر إلى أن تعنى الجامعات والهيئات العلمية بتغذية المكتبة العربية بمؤلفات حديثة في فروع العلوم والمعارف الإنسانية ، وبترجمة أمهات الكتب الغربية في شتى العلوم إلى اللغة العربية .

٥ ـ يوصي المؤتمر بأن تعود الصحف العربية إلى تقليدها القديم من تكليف مراجعين متخصصين في اللغة العربية يطمئنون إلى صحة ما يقدم للنشر من مقالات ومواد صحفية .

٦ ـ يؤكد المؤتمر توصيته وسائل الإعلام بضرورة الالتزام بقواعد اللغة العربية ، ونطق الكلمات نطقاً سليماً ، وإعداد من يضطلع بذلك إعداداً لغوياً وصوتياً .

٧ ـ يلاحظ المؤتمر أن هناك اتجاهاً نحو وضع لافتات المحال التجارية والأماكن العامة والمؤسسات الحديثة ، بألفاظ أجنبية ، والقانون يقضي بضرورة النص العربي ، ويبيح إضافة نص أجنبي إليه .

٨ ـ يكرر المؤتمر توصيته بالعناية بإحياء التراث العربي ، وإعداد المؤهلين له ، وبسط مداه على أن تنال العلوم الإسلامية حظها من هذا الإحياء .

٩ ـ تبلغ توصيات المؤتمر وقراراته إلى وزارات التربية والتعليم والثقافة والإعلام والمجامع والجامعات في الوطن العربي .

الكتب المهداة
لمكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق

خلال الربع الثاني من عام ١٩٨٣

الأستاذ محمد مطيع الحافظ

- **لمحات من تاريخ الحضارة العربية والإسلامية** - تأليف د . علي عبد الله الدّفاع - القاهرة ١٩٨١ م .

- **فتيا في ذم الشّبّابة والرقص والسماع** - تأليف موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة - تحقيق محمد بن عمر الظاهري - تقديم ومراجعة سهير محمد مختار .

- **التشريع الجنائي الاسلامي** - تأليف عبد الله بن سالم الحميد - الرياض ١٩٧٩ م .

- **كتاب استخراج الجدال من القرآن الكريم** - تأليف عبد الرحمن بن نجم المعروف بابن الحنبلي - تحقيق د . زاهر الألمعي - الرياض ١٩٨١ م .

- **أصول التربية الاسلامية (مقارنة مع نظريات التربية)** - تأليف سعد بن عبد الله بن جنيدل - الرياض ١٩٨١ م .

- **دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه** - تأليف د . محمد مصطفى الأعظمي - بيروت ١٩٦٨ م .

- **المصطلحات الأربعة في القرآن** - تأليف أبو الأعلى المودودي - الكويت ١٩٧١ م .

- **وفاء الفقه الاسلامي بحاجات هذا العصر وكل عصر** - تأليف أحمد عبد الغفور عطار - مكة المكرمة ١٩٧٩ م .

- **وشاح الكتائب وزينة الجيش المحمدي الغالب ، وديوان العسكر المحمدي الملياني** - تأليف قدور بن رويله - تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم - الجزائر ١٩٦٨ م .

- **اللمع في العربية** - تأليف عثمان بن جني - تحقيق حامد المؤمن - بغداد ١٩٨٢ م .

- **دراسات في علم النحو العام والنحو العربي** - تأليف فيكتور خراكوفسكي - ترجمة د . جعفر دك الباب - دمشق ١٩٨٢ م .

- **المعجم العربي الموحد لمصطلحات الحاسبات الألكترونية (عربي - انكليزي - فرنسي)** - المنظمة العربية للعلوم الإدارية - عمان ١٩٨١ .

- **مدخل إلى اللسانيات** - تأليف رونالدايلواز - ترجمة د . بدر الدين القاسم - دمشق ١٩٨٠ م .

- **اللباب في قواعد اللغة وآلات الأدب** - تأليف محمد علي السراج - عني بمراجعته وتنسيقه خير الدين شمسي باشا - دمشق ١٩٨٣ .

- **الجملة الشرطية عند النحاة العرب** - تأليف إبراهيم الشمسان - تقديم د . محمود فهمي حجازي - القاهرة ١٩٨١ م .

- **في صحبة الشعر والشعراء** - تأليف محمد عبد الغني حسن - القاهرة .

- **ديوان أبي نواس الحسن بن هانئ الحكيمي (الجزء الرابع)** - تحقيق غريغور شولر - بيروت ١٩٨٢ .

- **هموم عربية في البيئة والثقافة والحضارة** - تأليف أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري - المدينة المنورة ١٩٨٢ م .

- **دراسات في الأدب المقارن** - تأليف د . محمد ألتونجي - دمشق .

- **مختارات من الشعر الجاهلي** - جامعة الجزائر - الجزائر ١٩٨١ م .

- **رحلة في كتاب من التراث** - تأليف عبد القدوس الأنصاري - جدة ١٩٧٨ م .

- **الغزو الفكري في العالم العربي** - تأليف عبد الله عبد الجبار - الرياض ١٩٧٤ م .

- **إلياس قنصل (الشاعر والكاتب والانسان العربي)** - تأليف فريد جحا - دمشق ١٩٨٣ م .

- **الأصالة في شعر أبي الطيب المتنبي** - تأليف د . نوري جعفر - بغداد ١٩٧٦ م .

- **المصادر الأدبية واللغوية في التراث العربي** - تأليف د . عز الدين اسماعيل - القاهرة ١٩٨٠ .

- **جوانب مضيئة من الشعر العربي** - تأليف محمد عبد الغني حسن - القاهرة ١٩٧٢ م .

- **المبالغة في الشعر العباسي** - تأليف عبد العزيز بن عبد الله الشبيلي - الرياض ١٩٨٠ م .

- **الشريف المرتضى (شاعريته وخصائص شعره)** - تأليف د . محمد ابراهيم المطرودي - الرياض ١٤٠٠ هـ .

- **رباعيات مختارة (شعر إلياس قنصل)** - جدة ١٩٨٢ م .

- **محاضرات الموسم الثقافي الأول** - مكتب التربية العربي لدول الخليج - الرياض ١٤٠٢ هـ .

- **مقالات نقدية في الأدب الكويتي الحديث** - تأليف سعيد فرحات - بيروت ١٩٨١ م .

- **الأفعى والراعي (قصص للأطفال)** - تأليف نظمية أكراد - دمشق ١٩٨٢ م .

- **الغربة في الشعر الجاهلي (دراسة)** - تأليف عبد الرزاق الخشروم - دمشق ١٩٨٢ م .

- **الولادة والموت (قصص)** - تأليف أحمد عودة - دمشق ١٩٨٢ م .

- **دارة (شعر)** عبد الكريم الناعم - دمشق ١٩٨٢ م .

- **اعتذار آخر للوطن (شعر)** - تأليف رزق أبو زينة - دمشق ١٩٨٢ م .

- **حصان الأبانوس (مسرحية شعرية)** - تأليف خالد البرادعي - دمشق ١٩٨٢ م .

- **النيران الأزلية (قصص)** - تأليف رحيم كريم - دمشق ١٩٨٢ م .

- **الطريق الطويلة (قصص)** - تأليف محسن يوسف - دمشق ١٩٨٢ م .

- **اليمامة (مسرحية)** - تأليف محي الدين زنكنه - دمشق ١٩٨٢ م .

- **بيت الخلد (رواية)** - تأليف وليد إخلاصي - دمشق ١٩٨٢ م .

- **الأطلس التاريخي للدولة السعودية** - تأليف د . ابراهيم جمعة - الرياض .

- **الوافي بالوفيات** - تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي - الجزء السابع عشر (عبد الله) تحقيق دورتيا كرافو لكسي - بيروت ١٩٨٢ م .

- **صور من البطولة في الجزائر** - تأليف محمد الصالح الصديق وفاضل المسعودي - الجزائر ١٩٨١ م .

- **تاريخ الدولة السعودية** - تأليف أمين سعيد - الرياض .

- **تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي** - تأليف فاسيلي فلاديمير وفتش باركولد - نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم - الكويت ١٩٨١ م .

- **تاريخ الكويت** - تأليف عبد العزيز الرشيد - بيروت ١٩٧٨ م .

- **أشهر رحلات الحج (ملخص رحلتي ابن عبد السلام الدرعي المغربي)** - تأليف حمد الجاسر - الرياض ١٩٨٢ م .

- **نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود** - تأليف عبد الرحمن بن أحمد البهكلي - تكملة الحسن بن أحمد عاكش - تحقيق محمد بن أحمد العقيلي - الرياض ١٩٨٢ م .

- **تاريخ الإحساء السياسي** (١٨١٨ - ١٩١٣) - تأليف محمد عرابي نخلة - الكويت ١٩٨٠ م .

- **نظام الوزارة في الدولة العباسية** (العهدان البويهي والسلجوقي) - تأليف محمد مسفر الزهراني - بيروت ١٩٨٠ م .

- **الفضل المزيد على بغية المستفيد في أخبار زبيد** - تأليف ابن الديبع الشيباني الزبيدي - الكويت ١٩٨٢ م .

- **أزمنة التاريخ الإسلامي - (الجزء الأول - المجلد الثاني) -** تأليف د . عبد السلام الترمانيني - مراجعة وتحقيق د . شاكر مصطفى ، د . أحمد مختار العبادي - الكويت ١٩٨٢ م .

- **أثر الفرس السياسي في العصر العباسي الأول** - تأليف د . علي عبد الرحمن العمرو - القاهرة ١٩٧٩ م .

- **تاريخنا بأسلوب قصصي** - تأليف أكرم زعيتر ، درويش المقدادي - بيروت ١٩٧٩ م .

- **المدينة المنورة في التاريخ (دراسة شاملة)** - تأليف عبد السلام هاشم حافظ - المدينة المنورة ١٩٨٢ م .

- **أبو العلاء اللاهوري** - تاليف د . ظهور أحمد أظهر - الرياض ١٩٨٢ م .

- **الوراقة والوراقون في التاريخ الاسلامي** - تأليف لطف الله قاري - جدة ١٩٨٢ م .

- **علم الهيئة الاسلامي مع كتاب (الهيئة السّنية في الهيئة**

السُّنية) ـ تأليف جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ـ حققه وقدم له وترجمه انطون م هاينن ـ بيروت ١٩٨٢ م .

ـ **من مباهج الفكر ومناهج العبر (صفحات من جغرافية مصر)** ـ تأليف محمد بن إبراهيم الوطواط ـ دراسة وتحقيق د . عبد العال عبد المنعم الشامي ـ الكويت ١٩٨١ م .

ـ **التراث الجغرافي الاسلامي** ـ تأليف د . محمد محمود محمدين ـ الاسكندرية ١٤٠١ هـ .

ـ **في ذكرى بياجية** ـ تأليف د . محمد عماد الدين اسماعيل ، د . محمد أحمد غالي ، د . حامد عبد العزيز الفقي ، د . عبد الرحيم عبد الله صالح ـ الكويت .

ـ **تراث الإسلام** (**القسم الأول**) ـ تأليف شاخت وبوزورث ـ ترجمة د . محمد زهير السمهوري ـ تعليق وتحقيق د . شاكر مصطفى ـ مراجعة د . فؤاد زكريا ـ (من سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٧٨ م .

ـ **تراث الاسلام (القسم الثاني والثالث)** ـ تأليف شاخت وبوزورث ـ ترجمة د . حسين مؤنس ، احسان صدقي العمد ـ مراجعة د . فؤاد زكريا (من سلسلة عالم المعرفة) ـ الكويت ١٩٧٨ م .

ـ **أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة** ـ تأليف د . نايف خرما ـ (من سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٧٨ م .

ـ **اتجاهات نظرية في علم الاجتماع** ـ تأليف د . عبد الباسط عبد المعطي (من سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٨١ م .

ـ **العلم ومشكلات الانسان المعاصر** ـ تأليف زهير الكرمي ـ (من

سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٧٨ م .

- **الكوميديا والتراجيديا** - تأليف مولوين ميرشنت ، كليفورد ليتش - ترجمة د . علي أحمد محمود - مراجعة د . شوقي السكري ، د . علي الراعي - (من سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٧٩ م .

- **جمالية الفن العربي** - تأليف د . عفيف بهنسي - (من سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٧٩ م .

- **التنبؤ العلمي ومستقبل الانسان** - تأليف د . عبد المحسن صالح - (من سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٨١ م .

- **الملاحة وعلوم البحار عند العرب** . د . أنور عبد العليم - (من سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٧٩ م .

- **الرق ماضيه وحاضره** - تأليف عبد السلام الترمانيني - (من سلسلة عالم المعرفة) الكويت ١٩٧٩ م .

- **الاحصاء النفسي** - تأليف د . السيد محمد خيري - الرياض ١٩٨١ م .

- **القانون التجاري السعودي** - تأليف د . محمد حسن الجبر - الرياض ١٩٨٢ م .

- **مقدمة للتكوين الجنيني** - تأليف ستيفن ب . اوبنهايمر - ترجمة د . رمسيس لطفي (من مطبوعات مجمع اللغة العربية الأردني) عمان ١٩٨٣ م .

- **من تاريخ الكتب والمكتبات** - تأليف د . عبد الستار الحلوجي - القاهرة ١٩٧٩ م .

- **إدارة التنمية وطموحات التنمية الاقتصادية والاجتماعية في العالم العربي عام ٢٠٠٠** . تأليف د . محمد صادق (المنظمة العربية للعلوم الادارية) عمان ١٩٨٠ .

- **اختيار العاملين وتوجيههم** - إعداد عادل جودة (المنظمة العربية للعلوم الادارية) عمان ١٩٨٢ م .

- **الوصف الوظيفي كمدخل للتنظيم الجامعي** - تأليف د . حسين محمد علي علوي - (المنظمة العربية للعلوم الادارية) عمان ١٩٨٠ م .

- **دليل الباحث في إعداد البحوث والدراسات الاكاديمية** - تأليف . د . عمار بوحوش ، (المنظمة العربية للعلوم الادارية) عمان ١٩٨١ م .

- **نظرية الادارة في الاسلام** - تأليف د . أحمد ابراهيم أبو سن - (المنظمة العربية للعلوم الادارية) - عمان ١٩٨١ .

- **توصيات المؤتمرات والندوات العلمية التي عقدتها المنظمة العربية للعلوم الادارية خلال عشر سنوات ١٩٧١ - ١٩٨٠ وعرض نتائجها** - عمان ١٩٨١ م .

- **فهرس مخطوطات مكتبة الحرم الابراهيمي في الخليل** - إعداد محمود علي عطا الله ، (من مطبوعات مجمع اللغة العربية الأردني) عمان ١٩٨٣ .

- **الكتاب السنوي الأول** - (الأمانة العامة للمراكز والهيئات المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية) الرياض ١٩٨١ .

محمد مطيع الحافظ

فهرس الجزء الثالث من المجلد الثامن والخمسين